

مصر والشام بين دولتين

الشيال

BOBST LIBRARY



3 1142 02341 1849

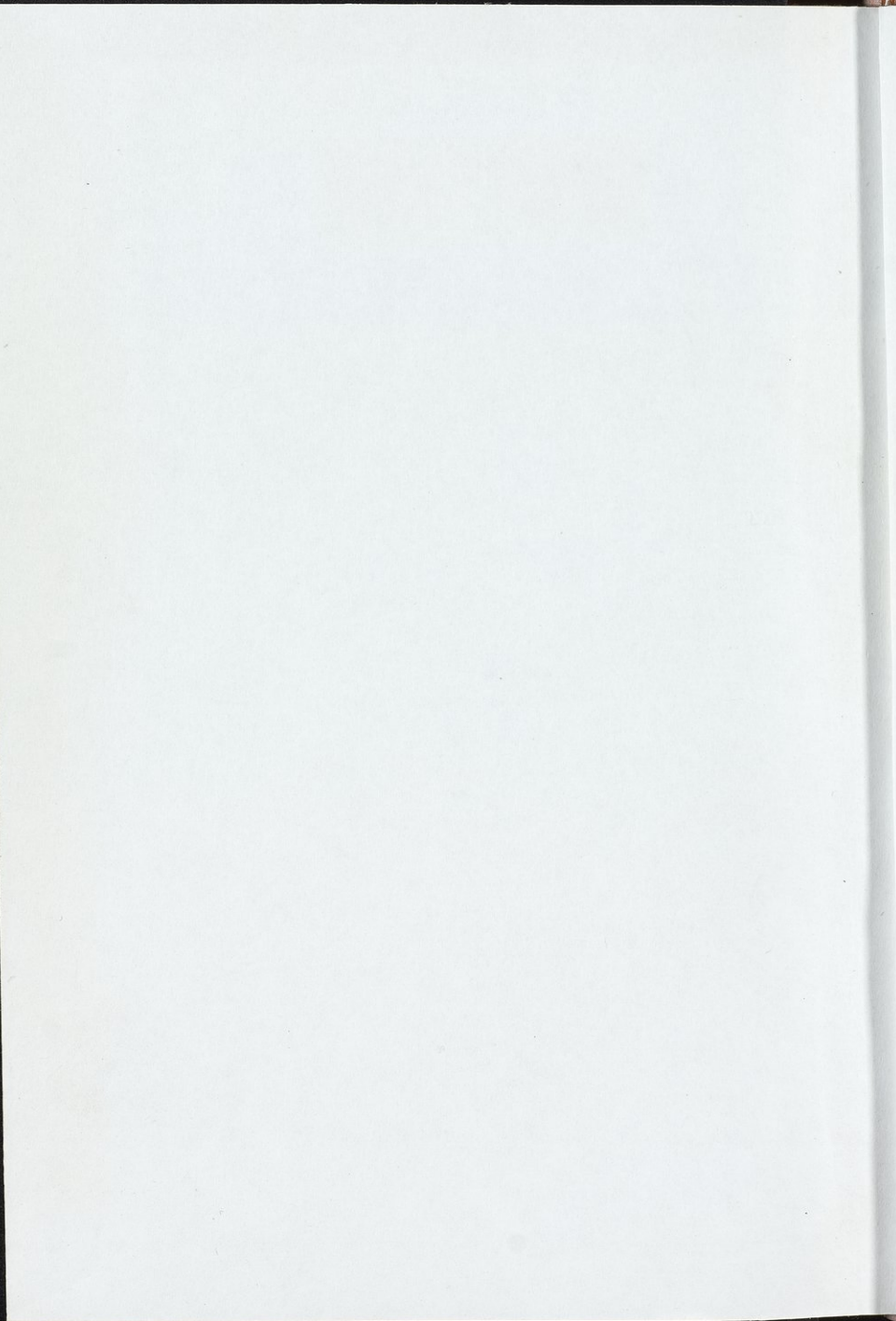


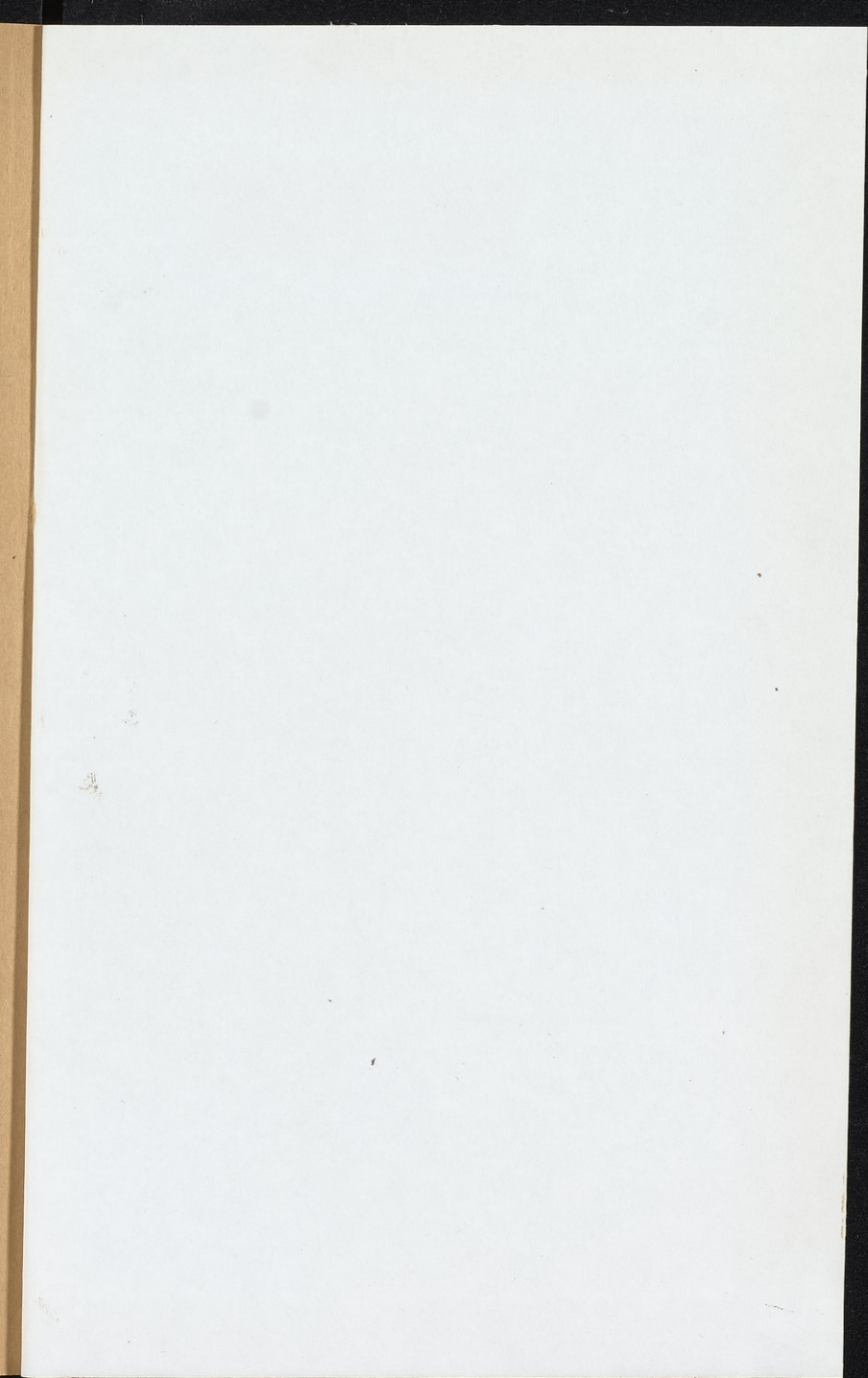
New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE

DUE DATE

DUE DATE	DUE DATE





مصر والشعلة

بين دولتين

قصة تاريخية تصف الأحداث في القطرين الشقيقين بين سنتي ٥٦٩ و ٦٥٥ هـ
إبان انحلال الدولة الفاطمية وقيام دولة بني أيوب

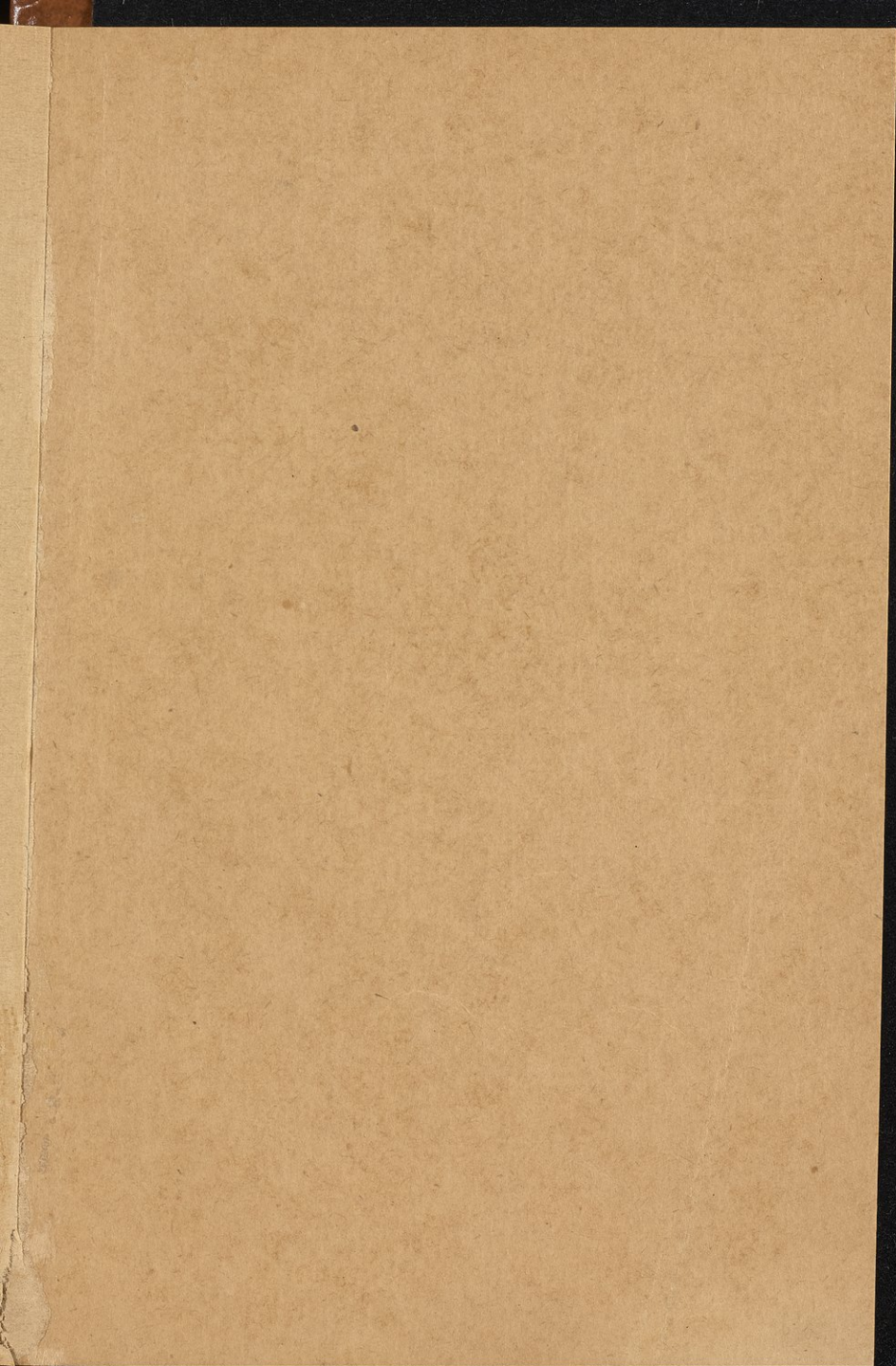
تأليف

جمال الدين الشَّيْبَالِ

المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر

دار الفكر العربي



Elmer Holmes Bobst Library

54

مصر والشعلة

بين دولتين

قصة تاريخية تصف الأحداث في القطر الشقيقين بين سنتي ٥٦٩، ٦٥٥٨
إبان انحلال الدولة الفاطمية وقيام دولة بني أيوب

تأليف

جمال الدين الشيال

المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر

دار الفكر العربي

DT

95

5

543

1947

الإهداء

إلى أخى وصديقى الكريم

الأستاذ محمد خلف الله

أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

أخى خلف الله .

كان لى أخوان شقيقان هما المرحومان الأستاذان حامد ومحمد
عبد الرحيم ؛ وكانا يكبرانى سنأ .

وعلم الله لقد كانا فى الشباب مثالين عالين : أخلاق نبيلة كريمة ،
ووطنية مخلصه صادقة ، وإيمان بالله عميق وثيق ، ونفس طاهرة صافية
ولقد نعمت بأخوتهما زماناً كنت فيه طفلاً وصيباً ويافعاً ، فكانا
لى القدوة الطيبة ، والأستاذين الجليلين ، فقبست من شمائلهما ما زلت
أعتد به حتى اليوم . ثم تخيرهما الله لجواره خير ما يكونان أملاً باسمها
مبشراً ، وأشد ما أكون حاجة إلى أخوتها وعونهما ؛ وبقيت وحدى
أنشد الأخ فى الحياة فلا أجده ، وأكتم الألم على فقدهما فى أعماق
نفسى ، وأبكيهما بقلبي ووجدانى ، وذخيرتى الوحيدة التى أستضىء
بها هى ذكرى هذه الأخوة الحبيبة - وكانها حلم جميل - أتلسها
كلما ادلهمت بى الخطوب واحتجت إلى الأخ المعين .

ثم نقلتُ إلى الإسكندرية ، وتعرفت إليك أيها الأخ النبيل
فعرفت فيك صورة من أخوى الراحلين ، ووجدت من عواطفك
الرفيقة وخلقك الانساني وعطفك علىّ عوضاً طيباً عما فقدت بفقد
أخوى .

وأنت تعلم أيها الأخ الكريم أن خير ما اعتد به هو جهدى
الفكرى وإنتاجى القلى ، وقد كنت عزمت — عندما انتهيت من
كتابة هذه القصة منذ سنوات — على إهدائها إلى روى أخوى
الشقيقين الراحلين ، ولكننى رأيت — بعد أن قدمتها للطبعة — أن
أتقدم بإهدائها إليك أيها الأخ الكريم ، لا نسياناً لذكرهما العزيزة ،
ولكن توكيداً لهذه الذكرى ، ووفاء لبعض ما أسديت إلى من جميل ،
وقد كان الوفاء من خير ما علمانى من مثل — رحمهما الله وحفظك
من كل سوء ، وأدام لى أخوتك ؟

جمال الدين السيمال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الموفق لكل عمل صالح ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد فهذه قصة تاريخية حاولت أن أعرض في فصولها ما جرى في مصر والشام من أحداث في الفترة بين سنتي ٥٥٨ و ٥٦٩ هـ ، وقد انتهت هذه الاحداث بالقضاء على دولة مجيدة — ظلت تحكم القطرين الشقيقين مستقلة مدة قرنين من الزمان ، وهي الدولة الفاطمية — وقيام دولة جديدة مجيدة أيضا هي دولة بني أيوب .
وأنا بهذه المحاولة أحقق رغبة خاصة كانت ولا تزال تتردد في نفسي كلما جلست إلى مراجع تاريخنا القديمة بأسانيدنا وأساليبها وخطوطها المتعثرة الباهتة — إن كانت مخطوطة . وورقها الأصفر وطبعاتها السكيلة — إن كانت مطبوعة : كنت إذا خلوت إلى هذه السكتب القيمة دمغنتي صور الماضي الجميلة إليها فعمشت في تلك العصور الغابرة المليئة بصفحات المجد وتجارب الانسان ، وصور البطولة وعبر الزمان . فإذا جلست إلى تلاميذي أحدثهم عن هذا التاريخ ، وأروى لهم أحداثه ، وأغريهم بقراءة مراجعه ، وجدت منهم صدوداً عنها ، وصدوفاً عن السعي إليها ، والاستمتاع بقراءتها ، واستخلاص الحقيقة من بين ثناياها .

لهذا كنت أعلل النفس بالآمال : إن هذا التاريخ لو استخلص من هذه المخطوطات ، وفضنا عنه ما يتعلق به من أسانيد واستطرادات وعرضناه على شبابنا عرضاً قصصياً جذاباً ، إذن لوجد طريقه إلى نفوسهم سهلة ميسورة ، وإذن لأثر فيهم أثراً طيباً فأحياهم ، وشحذ عزائمهم ، وزودهم بتجارب غالية ثمينه ، تفيدهم الفائدة كلها وهم يضطربون في هذا العصر القلق يبنون لأنفسهم وللغرب أسس النهضة الجديدة والمجد الجديد .

وهذه القصة هي المحاولة الأولى لتحقيق هذه الرغبة التي كانت تضطرم في نفسي — ولعلها تضطرم في نفوس الكثيرين غيري — أرجو أن أكون قد وفقت فيها بعض التوفيق ، وإلا فالخير أردت ، وما توفيتي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

صالح الديوبندري

الاسكندرية } ٧ جمادى الآخرة ١٣٦٦
٢٨ ابريل سنة ١٩٤٧

فرار شاور

استيقظت القاهرة نشيطة صباح يوم الجمعة الأول من شهر رمضان سنة ٥٥٨ ، ولبس أهلها أجمل ما لديهم من حلال ، ووفد عليهم سكان القسطنطينية ليشتروا وإياهم في الاحتفال بموكب الخليفة ، وفتحت الدكاكين وجلس التجار يرحبون بأصدقائهم الذين أتوا ليجدوا لهم مكاناً على الأرائك الممتدة أمام هذه الدكاكين حتى يستطيعوا رؤية الموكب في يسر وسهولة ، وانتشر العامة على جانبي الطرق ينتظرون ، وانبت الباعة يحملون اللعب والحلوى والفواكه على رؤوسهم وعلى عربات مزينة بالأعلام يجرونها ، يفتنون في عرض بضاعتهم والدعوة لها ، وهم ينادون عليها بأصوات عذبة وألحان جميلة ، ويستعينون على ذلك بالطبل والدف والمزمار .

فلما كان الضحى خرج الخليفة العاضد من القصر الكبير ممتطياً صهوة جواده ، وعلى رأسه التاج الشريف تشرق جواهره ولآلئه ، والدرة اليتيمة على جبهته ، وقد تقلد بسيف عربي مرصع بالأحجار الكريمة ، وقضيب الملك في يده ، وكان الجواد لا يقل زينة عن راحته : عليه سرج موشى بالذهب والفضة مرصع بالجواهر ، وفي عنقه طوق من الذهب وقلان من عنبر ، وفي أرجله خلاخل الذهب والفضة وهو يتهادى في مشيته معتزلاً بمن يركبه ، فخوراً بما يغطيه من زينة وزخرف .

وسار الخليفة وعلى يساره صاحب المظلة وهو يحرص ألا يزول ظلها من أمير المؤمنين ، وعن يمينه ويساره ألف رجل من الركابية مقلدو السيوف مشدودو الأوساط بالمناديل والسلاح ، وكان يتقدم الموكب أجناد الأمراء وأولادهم وأخلاق العسكر يتبعهم أرباب القُضْبُ الفضة من الأمراء ، ثم أرباب الأطواق منهم ، ثم الحاملان للواءى الحمد ، ثم حامل الدواة وبعده حامل السيف ، ويلى هؤلاء جميعاً الخليفة بين الركابية يسير على تؤدة ورفق ، وفى مقدمة العسكر والى القاهرة يذهب ويعود ليفسح الطريق ، وفى الوسط القائد العام للجيش يحث الأجناد على الحركة ويزجر المتراحمين والمعترضين ، وبالقرب من الخليفة ضرغام صاحب الباب ذاهباً وعائداً يحرس الطرقات ؛ وخلف الخليفة جماعة من الركابية لحفظ أعقابه ، يليهم عشرة يحملون عشرة سيوف فى خرائط من الديباج الأحمر والأصفر ، ووراءهم الوزير شاور فى أهبة الملك وجلاله ، وفى ركابه خمسمائة رجل من خيرة أصحابه وقوم من أقوياء الأجناد ، وخلفه الطبول والصنوج والصفافير ترسل الألحان شجية متصلة قوية تدوى من أصواتها الدنيا ، ويتبعهم رجال الأساطيل مشاة يحملون القسي العربية ، وبقية فرق الجيش ورجال تباينت أرديتهم واختلفت أسلحتهم فيهم المغاربة والأترك والأكراد والديلم والمصريون .

وسار الموكب فى الميدان بين القصرين ، وخرج من باب النصر ثم انعطف يساراً طالباً باب الفتوح فدخل منه ، فلما وصل الخليفة

الجامع الأحمر وقف هناك في جماعته ، وانفرج الموكب للوزير فتحرك مسرعا حتى وقف أمام الخليفة فأشار بالسلم عليه إشارة خفيفة ، ثم أسرع الوزير حتى سبق الخليفة إلى باب القصر فزجل ووقف ومعه الأمراء ينتظرون الخليفة ، فلما وصل دخل القصر راكبا ؛ وعاد الوزير فركب جواده والأمراء بين يديه يخدمونه حتى وصل إلى دار الوزارة

وصعد شاور إلى غرفته وهو يخال في حلته الموشاة بالذهب المحلاة بالجواهر ، وجلس هناك على أريكة يستريح مما عاناه من تعب وجهد في إعداد الموكب والسير فيه ، وكانت علامم السرور والغبطة واضحة على محياه فقد كان يعتقد بعد أن وصل إلى منصب الوزارة أن الحظ قد بسم له ، وأن الأيام قد صفت من كل ما يكدر ، فحذا حذو سلفه من الوزراء السابقين وجمع السلطة كلها في يديه ، ولم يدع لخليفته العاضد — وهو طفل في العاشرة من عمره — من الأمر شيئا ، ولم ياق بالآ إلى الشعب أو صالحه .

وترك الأريكة بعد لحظات ووقف ينظر من نافذة الغرفة فرأى سكان الفسطاط والقاهرة في حللهم البسيطة الجديده الجميلة الفساقعة الألوان يعودون بعد رؤية الموكب جماعات جماعات يتعلق بأذيالهم أطفالهم يحملون الحلوى واللعب .

ونظر أيضا فرأى قصور القاهرة متناثرة تحوط بها الحدائق الغناء ومن خارج السور النيل يجرى في لون اللجين والعسجد تحت أشعة

الشمس المشرقة ، وعلى ضفتي النيل حقول ممتدة يغطيها بساط من سندس يعجب الناظرين .

ونظر إلى نفسه فرأى أنه هو الحاكم بأمره في هذا البلد وأهله فانتفخت أوداجه وأحس قوة السلطان تسرى في عروقه ، وكأنه كان يقول كما قال فرعون من قبل .

« أليس لي ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي » .

وبينا هو يسبح مع خياله ناعماً إذ بالباب يطرق ثم يفتح ، ودخل ابنه طى غاضباً ، خفي وجلس ثم ابتدر أباه فقال :

— يا أبت ، أنت غافل ، وهذا صاحب الباب ضرغام يفسد أمرك وقد شرع يمهّد الأمور لإعادة رزيك ، واستحلف له جماعة من الأمراء . فلم يصدق شاور مقالة ابنه ، ولكنه أراد أن يجاريه في ظنه ورأيه فقال :

— وماذا ترى ؟

— ماذا أرى ؟! ليس هناك إلا حل واحد .

— وما هو ؟

— أن تقتل رزيك .

— أهذا رأيك ؟! لا يا بني ، ليس هذا من الوفاء في شيء ،

ألا تعلم أن أبارزيك — الصالح طلائع — هو صاحب الفضل

على أيك ؟! أليس هو الذي قربني إليه ثم ولاني قوص فكنت

صاحب الأمر في الصعيد الأعلى كاه ؟ ثم أليس هو الذي أوصى ابنه

هذا قبيل موته أن يبقى على ولايتي وقال له :

« لا تزل شاور من ولايته » .

ثم تولى ابنه رزيق الوزارة بعد موته فدنت له بالولاء ، ومددت له جبل الود ، ولكنه لم يعمل بوصية أبيه ، فثارت بيننا أسباب النزاع ، وكان لا بد أن يتغلب واحدنا على الآخر ، وقد وفقني الله وغدوت وزيراً ، وكنت أستطيع أن أقتله يومذاك ، ولكنني أبقيت على حياته اعترافاً بجميل أبيه ، واكتفيت بسجنه ، فما الذي جد حتى أغير رأي فأعذر بهذا الشاب ؟ ، قد يكون حقاً ما تقول أن ضرغاماً يسعي هذا السعي ، ولكن ما ذنب رزيق وهو حيس جدران السجن . وليس له من الأمر شيء !

— أنا أعلم هذا كله يا أبت ، ولكن ضرغاماً أيضاً من صنائع الصالح طلائع ، وهو يجمع الأمراء حوله باسم الوفاء لمولاه وابن مولاه .
— لا تخش شيئاً يا بني وارك هذا الأمر لي .

فهز طي رأسه غير مقتنع بهذا الحل ثم قال :

— الأمر أمرك يا أبت ، ولكنني أدبت واجبي .

ثم استأذن وخرج مغضباً محنقاً ، وأخذ يدير الأمر في رأسه ويفكر ويعيد التفكير ، فقد كانت تدفعه حماسة الشباب وطعم السلطان الذي ذاقه فاستساغته ، وراح يستعيد حديث ذلك الأمير الذي نقل إليه خبر المكيدة ، وحديث أبيه فلم يقتنع بهذه الإجابات المعلقة ، وأخذ يؤنب نفسه ويلومها : « لم تذهب يا طي فتقتل هذا الشاب .

السجين قبل أن تخبر أباك ؟ ! » فترد نفسه الجاحمة وتقول : « وماذا حدث ؟ إن الوقت لم يفت ، فالتنفذ هذه الرغبة الآن ، وسيجد أبوك نفسه أمام الواقع فيرضاه ولا يطيق أن يفعل شيئاً . . » وهنا ضرب الارض بقدمه في ضجر وقال : « لا يقهر إلا المتردد » ثم ألقى بنظره على السيوف المعلقة على حائط غرفته في نظام أنيق جميل . واختار من بينها سيفاً قاطعاً شدّه إلى وسطه وخرج يقصد إلى السجن . وكانت علائم الجد والصرامة تبدو على محياه كما كانت عيناه تنطقان بالشر ، ففتح له السجن الباب عند تلاتي أول إشارة منه ، ووقف بعيداً اتباعاً لأمره ، ولكنه كان يسمع جناً لا عنيفاً داخل السجن ثم نضالاً قويا تلتته صرخة عالية وصوت رزيك وهو يقول .
— « قتلتني قتلك الله » .

* * *

وعلم شاور بمصرع رزيك فحزن وتألم ، وثار على ولده ثورة عنيفة وأنبه على فعلته تأنيباً شديداً ، ولكن الأمر كان قد خرج من يده فراح يفكر في حمق ابنه وطيشه ، وكيف قاده إلى هذه الفعلة النكراء وقدّر أن صنائع رزيك وأبيه في الجيش لا بد وأن يشوروا . وقد تحقق ظنه فعلاً فإن ضرغاماً لم يكذب يوصله الخبر حتى أسرع إلى رفاقه الذين عاهدوه على نصره رزيك ، وأخذ يثير شعورهم ضد شاور وأولاده ، ويستنهض همهم للقيام والثأر لرزيك : فلبوا نداءه ، وتواعدوا على

اللقاء في الميدان بين القصرين ، وأرقلوا إرقالا حتى لا يحس شاور بحركتهم فيستعد لها .

وفي اليوم التالي — عند الظهيرة — بينا شاور في دار الوزارة قد أبعد عنه رجاله وكتابه ، وجلس مستلقيا على أريكته جلسة المستجم من عناء العمل والتفكير . يستعيد في مخيلته صور النضال الأخير ، ومصراع رزيك ؛ ويدبر في نفسه ماعساه يتخذه ضد ضرغام والأمراء إذا ثاروا ، وبيننا هو في هذا التفكير والتدبير إذا به يسمع جلبة وضوضاء وقعقة سلاح بدت ضعيفة بعيدة أول الأمر ، ثم أخذت في الوضوح شيئا فشيئا ، فأحس كأن يداً قوية قد قبضت على قلبه فاهتصرته ، وارتاع — وهو الرجل الجلد — وأسرع إلى نافذة غرفته فرأى فرق الجند والأمراء وقد سدت الطريق من أوله ، وهي تسرع نحو دار الوزارة تزجر وتهدد وتتوعد ، وكانت الأصوات تلحن شاور ، وأبناء شاور ، ورجال شاور .

أخذ الرجل على غرة فغار كيف يفعل ، ثم أسرع فارتدى قبائه الذي خلعه ، ووضع خوذته على رأسه وامتشق حسامه ؛ وفي قفزات قليلة كان يتوسط فناء الدار ويصدر أوامره الشديدة بصوت كالرعد إلى حرس الدار وجنودها أن يوصدوا الأبواب ويقفوا خلفها يمنعون الجند المهاجمين ؛ وقاده هو فرقة من الفرسان وخرج إلى الميدان حيث ناضل نضال الأبطال ، وكافح كفاح المستميت ، ولكنه سرعان ما أدرك أن المقاومة غير مجدية ، فتقهقر قليلا قليلا إلى أحد أبواب

الدار الخلفية ، وانسل إلى غرفته ، واتجه إلى صورة جميلة تغطي جانبا من الحائط رسمت عليها بركة مائية في وسطها مقصورة مزينة بالتماثيل وجلس داخلها فتى جميل يستمع إلى مغنية يبدها العود وحوولها الراقصات والأشجار الفارعة والنخيل الباسق على شواطئ البركة ، والطيور ذات الريش الجميل تنتقل على الأفنان والأغصان .

نظر شاوور إلى الصورة ملياً ، ثم نزع المسامير الأربعة المذهبة التي تثبت إطار الصورة الخشبي في الحائط ، ورفع اللوح الخشبي المصور إلى أعلى فظهرت خلفه رفوف ممتدة داخل الحائط فمد يديه في سرعة إلى صرار المال يخرجها ودسها بين ثنايا ثوبه وطياته ، وأعاد الصورة إلى مكانها ، وأسرع ثانية إلى الباب الخلفي فنادى ثلاثة من خلص جنوده الأوفياء ، وامتطى الجميع سهوات جيادهم ووقفوا على استعداد ، ثم أمر بقية الجند بفتح الأبواب كي يدخل أعوان ضرغام فلما اطمأن إلى وجودهم جميعاً في القصر يجوسون خلال غرفه بحثاً عنه أطلق هو وصحبه الأعنة لخيالهم ، وأسرعوا يلوذون بأذيال الفرار .

حديث على ضفة النيل

انتهت صلاة المغرب في مسجد عمرو وجلس الفقيه زين الدنيا ابن نجا مطأطأ رأسه مسبلاً عينيه يستغفر ربه ، ويقرأ بعض الأدعية الخاصة التي اعتاد أن يتلوها عقب كل صلاة ، وما أن انتهى من تلاوته حتى رفع يديه ووجهه إلى السماء يكمل الدعاء في صوت خفيض ولكنه صادر عن قلب قوى عامر بالإيمان ، وانتهى من الدعاء ، ومسح وجهه بيديه ، ومال إلى يمينه فأخذ خفيه في يده وقام يريد الخروج ، فقد كان الجو حاراً في ذلك اليوم والهواء ساكناً لا يكاد يتحرك ، وسار الفقيه يقصد باب المسجد فإذا به يلح صديقه الشيخ أبا الحسن جالساً قرب الباب ساهماً تبدو عليه علائم التفكير العميق فابتدره بتحية المشوق قائلاً :

— مرحباً يا أبا الحسن .

فهم أبو الحسن واقفاً في حركة سريعة وقد ذعر لهذه التحية المفاجئة التي قطعت عليه جبل تفكيره وقال :

— مرحباً بك أنت أيها الفقيه الجليل وأهلاً وسهلاً .

ثم سأل الفقيه :

— أين كنت يا أبا الحسن فاني تلفت أبحث عنك بين المستمعين

لدرسي عصر هذا اليوم فلم أجدك فشغلت عليك ، وساءلت نفسي ، ترى أى سبب أخرك هذه المرة عن واجبك الذي لم تنسه منذ مدة

طويلة ، وخاصة أن حر اليوم كان قائظاً لا فحاً ، وقد افتقدك مستمعو
الدرس وكنت أسمعهم يتهايمون :

— « أين أبو الحسن — أين أبو الحسن يروى عطشنا في هذا
الحر بمائه العذب وقد عطره وجمّل طعمه بماء الزهر اللطيف : ثم
سكت هنيئة واستأنف حديثه وضحك ملاطفاً الشيخ بقوله :
— والحق أنى أنا أيضاً اشتقت لسكوب من مائك بعد أن غبت
عنك وعنه أسبوعين كاملين .

— إني لآسف جد الأسف يامولاي إذ لم أعلم بخبر عودتك
وإلا لسارعت بالحضور لاستمع إلى درسك القيم فإني أعلم أنه قد
فاتني خير كثير بغيابي اليوم ، ولكنني كنت مشغولاً بضيف
مريض ، بل جريح .

— لازلت سباقاً للمكرمات يا أبا الحسن ، ولكن مالنا نقف
هاهنا والجو خانق ؟

ثم أخرج منديلاً من جيبه ومسح به عرقه الناضح على وجهه
وقال لرفيقه :

— هيا بنا نخرج فنسير على شاطئ النيل حتى يحين وقت العشاء
لعلنا نظفر بنسبات متبردة نوعاً تخفف عنا بعض ما نحس من هذا
الضيق ، ثم إني أريد أن استمع إلى ما تعرف عن أخبار مصر
والقاهرة مدة غيابي .

ووضع كل من الرجلين خفيه في قدميه ، وسارا صامتين بعيداً

عن المسجد يسمان وجهيهما شطر النيل ، وكانا كلما اقتربا منه أحسا نسفات خفيفة تهب على وجهيهما حتى وصلا الشاطئ وسارا بمحاذاة قليلا فزاد هبوب النسيم ، ولطف الجو كثيرا ، وأحسا بعض الهدوء في رأسيهما ونفسيهما ، واستمر في السير صامتين حتى وصلا شجرة جميز عاتية كثيرة الغصون وقد مهدت الأرض تحت فروعها وسُورّت بسور قصير من الطين ، وفرشت حميرا باليا ، وفي أحد جوانبها قلل كثيرة أعدت ليشرب منها المارة إذا عطشوا ، فقال الفقيه :

— أظن أن هذا المكان هو خير ما نطلب في هذه الساعة يا أبا الحسن فلنستريح هنا قليلا حيث نستقبل نسفات الليل الباردة ونمتع أنظارنا بهذا النيل الجميل ، وهنا أيضا نستطيع أن نتحدث كيف نشاء ونحن منفردان فإن أبواب الفلك مشغولون الآن مع أهل الفسطاط الفارين من حر المدينة إلى فللكهم يتنزّهون فيها ، وأحسبهم لا يعودون إلا بعد ساعات .

— إنهم مشغولون حقا . ولكنهم سوف لا يتأخرون عن موعد العشاء لأن الناس لا يجرأون كثيرا على الخروج في هذه الأيام المضطربة العصيبة ، فهم يفضلون الحر في منازلهم على النزهة والتعرض لحوادث الجند وقتالهم .

— أجل ذكرتني يا أبا الحسن وكنت نسيت ، حدثني الآن كيف انقضت هذه الأيام بحوادثها الغريبة فقد كنت شاهدا لها ، وقبل أن أنسى مرة ثانية من يكون هذا الضيف الجريح الذي شغلك اليوم عنا ؟

— إنه شاب تعرفه ياسيدنا، فقد كان يحضر دروسك دائماً
إنه عبد الرحمن القوصى .

— عبد الرحمن ؟! هذا الشاب النابه الذكي ، لقد آلمتني بهذا
الخبر يا أبا الحسن ، ومن الذى جرحه وأنا أعلم أنه قليل الاختلاط
بالناس مشغول طول يومه بالكتاب والدرس .

— أجل إنه لكما تعرف ، ولكنه القضاء والقدر ولقد صدق
رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « المؤمن مصاب » ؛ كنت
فى المسجد كالعادة أصيل اليوم التالى لسفري سيدنا الفقيه إلى الاسكندرية
فإذا بعبد الرحمن يأتى ويطلب إلى أن أصحبه إلى القاهرة لأدله على قصر
الأمير شمس الخلافة فقد أرسل إليه بعد أن علم بجماله خطه لينسخه بعض
الكتب ؛ وعبد الرحمن قد لزم الفسطاط منذ وفد إليها من بلده قوص
فهو يقسم وقته بين المسجد والبيت ، ولم يكن قد ذهب إلى القاهرة
من قبل فقبلت دعوته وذهبتنا سوياً ، وقابل الأمير ، وصحب الكتب
وبيننا نحن فى طريقنا ولم نكد نبعد عن القصر إلا مسافة قصيرة إذ
سمعنا ضجة عالية وأصوات الخيل والأبواق والجند تملأ الأسماع
والجو حولنا ، وفى لحظات ألفينا الطريق الذى نسير فيه قد سدت
مسالكه من الناحيتين بالجند مشاة وعلى خيولهم ، ولم يكن
لنا سبيل إلى الفرار فأسندنا ظهرينا إلى الحائط خلفنا وبقينا
فى دعر نشاهد القتال بين جند شاور وأنصار ضرغام .
ولبثنا على هذه الحال مدة والرعب يملأ أفئدتنا ، وكادت الخيل

في فورتها وقفزاتها أن تصينا أكثر من مرة حتى انتهت المعركة
باتصار ضرغام ، وفرار جند شاور ، فمر ضرغام على جث القتلى لا
يعبأ بشيء وقد رفع رأسه وشمخ بأنفه ، واتجه إلى القصر ودخله ،
وهنا لم أشأ أن ألبث كثيراً فأمسكت بيد عبد الرحمن وجرينا نريد
النجاة بأنفسنا ونحن نحاذر بخطواتنا نقلها بين جث القتلى ، ولكننا
لم نكد نتوسط الطريق حتى رأينا فارساً يعدو بأقصى ما يستطيع من
القوة والسرعة ، وخلفه ثلاثة آخرون فارتبكتنا وحرنا في أمرنا :
أنسرع فنجتاز المسافة الباقية من الطريق أم نعود إلى مكاننا حتى يمر
هؤلاء الفرسان ؟

وبينما نحن في حيرتنا التي لم تطل إذ بالفرسان على قيد خطوة أو
اثنتين منا فقفزت أنا إلى الامام ، وتخطاني الفارس الأول ، ولكن
المسكين عبد الرحمن عثر في قفزه بجمته حصان فسقط وداسه الفرسان
الثلاثة وهم في سرعتهم لا يلوون على ولا يهتمون بانسان ، وقد أصابت
حوافر الخيل رأس الشاب المسكين وكتفه بجراح خطيرة ، وغاب عن
صوابه ؛ فحملته وسرت قليلاً إلى مكان آمن حتى مر بنا رجل ومعه
حمار فأركبت عبد الرحمن فوق الحمار وأمسكت به أنا والرجل إلى أن
وصلت داري وهو عندي أعنى به وبجروحه إلى أن تحسن قليلاً
والحمد لله .

— له الله ذلك الشاب ، إن من واجبنا أن نعوده ، وسأمر عليك
غداً إن شاء الله لزيارته ، ولكن من يكون ذلك الفارس ؟

— لقد لمحتة وعرفتة رغم سرعتة الشديدة ، ورغم وجود الخوذة التي تغطي معظم وجهه ، إنه شاور بأنفه الطويل وعينه السوداوين . لم يندهش الفقيه عند سماعه هذا الخبر ، ولكنه أطرق صامتا لحظة ثم قال :

— لقد أفسد هؤلاء الرجال الدولة يا أبا الحسن فهم يتنازعون السلطة والجاه ، ولا يعنون البتة بمستقبل مصر ومستقبل الإسلام ، أنا لا يكاد يقتلني إلا أن هذا الخصام يحدث والفرنج على الحدود يزدادون كل يوم قوة وملكا ، وأنا لا أحسبهم يطمشون أو يقر لهم قرار حتى يمتلكوا هذه الديار فكان أولى رجال الدولة أن يتكاتفوا ويتعاونوا لصد هذا العدو إذا تحرك .
فضحك أبو الحسن وقال :

— يتكاتفون؟! إنهم كالكلاب ياسيدي والوزارة كالجيفة ، كلهم ينبح ويقاتل في سبيل هذه الجيفة ، والخليفة من ورائهم مغول اليمين كالكرة يتقاذفونها بينهم .
فتشهد الفقيه فقال :

— إن هذا الطفل يا أبا الحسن لاه لا يدرى ، ورجال القصر ونساؤه يدسون الدسائس لكل من يعارضهم ، ورجال الجيش كما ترى تخطف الوزارة بأبصارهم فإذا وصل أحدهم إلى دستها تحكمت أسرته في رقاب الشعب وأمواله ، أتعلم يا أبا الحسن من الذي هزم شاور؟ ليس هو ضرغام ولا جنده ، إنهم أبناؤه — أبناؤه الذين بسطوا

سلطانهم على الناس في كل مكان ، وتعاضموا وتجبروا وتسيطر وا حتى
مجهم الناس وكرهوهم وكرهوا أباهم ، وأنت تعلم أن ضرغاماً اتهم
هذه الفرصة فانقض على شاور وخاصة بعد أن دخل طى السجن فقتل
رُزَيْك بن الصالح طلائع وهو رب نعمة شاور، وهو الذي ولاه الصعيد
أثناء وزارته فاستمال ضرغام إليه الكثيرين من أمراء الجيش وانقض
على غريمه فسلبه الجيفة كما تقول .

ثم سكت الفقيه لحظة واستأنف حديثه فقال :

— ويخيل إلى يا أبا الحسن أن هذه الدولة قد قاربت الفناء لأن
هذا النزاع الدائم بين رجالها نذير بزوالها ، ولكنني رغم ما لها من
أخطاء لا أحب لها هذا الموت الذي بدأ يدب في جسمها لأنها مهما
أخطأت دولة إسلامية وأخشى أن يكون فناؤها ممهداً لقدم الفرنج .
— فقال أبو الحسن : ولكن رجال هذه الدولة هم الذين يمهدون
لموتها ويقربون نهايتها ، لقد رحب العاضد — لكرهه الشديد لشاور —
بضرغام فقلده الوزارة ولقبه بالملك المنصور ، ولكن هذا جعل همه
الأكبر منذ استقر وزيراً تتبع أنصار شاور ورجاله ، وقد سمع
أن نفراً من الأمراء عزموا على مكاتبة شاور بالشام وتكريضه على
العودة فاحتال عليهم حتى أحضرهم إلى دار الوزارة ليلا وقتلهم . . . ،
أجل قتل سبعين أميراً من كبار أمراء الجيش والدولة ، إن هؤلاء
الوزراء كالقنطاط التي تأكل صغارها ، إنهم يقتل بعضهم بعضا وستبقى
الدولة بعد ذلك دون رجال يدافعون عنها إذا دهمتها الخطوب ، نسأل

الله أن يلطف بهذا البلد وأهله الذين عهدوا بأمورهم إلى هؤلاء
الحكام فانصرفوا عن الاهتمام بشئونهم إلى المنازعات الشخصية ؛ ثم
إنهم . . . ولكن استمع يا مولاي . . . أليس هذا صوت المؤذن ؟؟
فقال الفقيه — نعم إنه هو . . . لقد سرقنا الوقت ، وقد لانستطيع
إدراك الجماعة في المسجد ، فهل ترى مانعاً يا أبا الحسن من الصلاة هنا
في هذا المصلي الصغير اللطيف ؟؟

— أبدأ . . . إنه مكان جميل ، ولكن لنتظر قليلاً فسيعود
أصحاب القوارب بعد لحظات ليؤدوا فريضة العشاء هاهنا كعادتهم ،
وسيفرحون الفرح كله إذ اعلموا بوجود الفقيه زين الدين بينهم ، وأنه
جاء ليصلي في مصلاهم المتواضعة .

وصمت الرفيقان قليلاً ، وأخذنا ننعمان بالمناظر الجميلة التي تحيط
بهما ، فقد كانت أمامهما حقول الروضة وقصورها ذات الحدائق
الفيحاء ، والنخيل يقوم بين القصور كالحرس اليقظ ، وكان القمر في
تلك الليلة بدرأ يرسل ضوءه الفضي فيملاً المكان نوراً وجمالاً ،
وتعكس أشعته على صفحة النيل فتبدو مياهه لامعة براقه كالرقيق
الزجاج ، وأطلق كل منهما لفكره العنان يكمل بينه وبين نفسه
ما انقطع من حديث ؛ ولكل آراء وأمنيات يتمنى لو أتاحت لها
الفرص فتحققت ، فقد كانت الحوادث تتابع في مصر والشام في ذلك
الحين تتابعاً غريباً كله مفاجآت ومتناقضات . كان الفرنج يملكون
بلاد الساحل في الشام ، وكانت أوروبا تستيقظ من سباتها وتعد العدة

لإرسال النجدات لمسيحي الشرق ، وكان نور الدين ينفخ في بوق الجهاد كل يوم وجيوشه تنقض على هؤلاء الفرنج فتذيقهم المر والعذاب وكانت مصر أخيراً مسرحاً لسلسلة من المشاحنات والاختلافات الداخلية بين الطامعين في الوزارة ، والخلافة الفاطمية وراء هؤلاء الوزراء قد سلبها الفرنج أملاكها في الشام فانكششت كالقوقعة داخل صدقتها — مصر — تحتضر وتتلس في ضعفها أية قوة خارجية تستعين بها في محنتها .

أما الفقيه زين الدين فكان من أهل دمشق نشأ وتثقف ثقافته الأولى بها ثم رحل إلى بغداد فوجد الخلافة العباسية ضعيفة تعاني من سيطرة رجال الجيش الأتراك فقال لنفسه : « تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » وترك بغداد إلى مصر فأعجب بها أيما إعجاب وملكته عليه لبه وعقله ونفسه فأحبها من كل قلبه حتى عرف بين الناس بالفقيه زين الدين المصري ، ونسى ونسى الناس معه أنه دمشقي .

ولكن الفقيه درس كتب الفقه والتاريخ فأفعمت روحه بالإيمان الإيمان بمجد الإسلام وعزه ، واتخذ الوعظ صناعته ، وكانت دروسه كلها تموج بهذه الأفكار : مجد الإسلام ومجد رجاله .

وإذ كان للدولة المصرية مذهب خاص فقد تحاشى أن يضطدم بهذا المذهب أو رجاله فكان لا يذكر أبابكر أو عمر ، ولكنه كان يتحدث عن الرسول عليه السلام وعن علي بن أبي طالب فيسهب في الحديث ، وفي حياتهما مادة غزيرة لمن يريد الحديث عن البطولة وإحياء

النفوس الهامدة ؛ ولإرضاء رجال الدولة — حتى يتقى شرهم — كان يشيد بذكر الأوائل من رجال الدولة الفاطمية ولا بأس عليه في هذا فقد كانوا رجال دولة أجلاء شيدوا دولة واسعة مترامية الأطراف ، وأقاموها على أسس حربية وإدارية متينة ، وعنوا بصالح أهل مصر ورفاهيتهم ، فشاركوهم في أعيادهم وأضفوا عليها من بذخهم وراثهم الشيء الكثير ، ومدوا للفقراء الموائد في كل مناسبة ، وأضافوا العلماء الوافدين ، وشجعوا المقيمين فنعم الشعب في عهدهم وترك لهم شؤون مذهبهم يحترونها دون أن تنفذ إلى أعماق قلبه ، ورضى أن يعيش في ظل هذه الدولة القوية التي تنشر السلطان باسمه شمالاً وجنوباً .

ولكن الفقيه زين الدين كان يقلب وجهه هذه الأيام في ربوع مصر لعله يصيب فيها القوة التي تحمي الإسلام من هذا الخطر الفرنجي الداهم الذي رآه رأى العين وهو في موطنه — الشام — فارتد إليه البصر خاسئاً وهو حسير ؛ لقد وجد الدولة مريضة في دور الاحتضار فكان وهو في جلسته هذه يقلب هذه الأمور كلها على أوجهها المختلفة : إنه يدين بالمذهب السني وهذه الدولة التي تحكم مصر شيعية ، ورجالها ووزراؤها يغالون في هذا المذهب فسكنتم ما يدين به ؛ وصدر الدولة في مصر والشام معرّض لنبال الفرنج ورماحهم ، وليس من رجال الإسلام من يغار عليه غير هذا الرجل المجاهد نور الدين في الشام ، ولكن الشام لا تكاد تفي بما يحتاجه جيش الجهاد من مؤونة وراتب وذخيرة ، ومصر ضيعة الإسلام الغنية ، وحصنه الحصين ، غير أن رجالها شغلهم أطاعهم

الشخصية عن الاهتمام بالدفاع عنها وعن الإسلام ، وهنا وصل — في عقله — إلى نتيجة منطقية : الرجل في الشام ، العتاد في مصر فهل يجتمعان ؟!؟

بمثل هذا أيضاً كان يفكر الشيخ أبو الحسن فهو مؤمن بهذه الأفكار كلها ، ولكنه إيمان القلب فقط لا إيمان القلب والعقل معاً كإيمان صديقه الفقيه ، ولكنه إلى هذا كانت تدفعه عوامل أخرى تبعث في نفسه الرغبة القوية أن يعجل الله بزوال هذه الدولة فإنه كان ذا ثأر ، ولهذا سر في نفسه لم يكشف لأحد عنه بعد .

ولم يوقظ الرجلين من أحلامهما إلا أصوات المجاديف تتابع ضربها الهين للماء تدفع القوارب متجهة نحو الجسر المقام بين القسطنطين والروضة ، فقال الفقيه لرفيقه :

— إنهم في نهاية رحلتهم يا أبا الحسن ، فقد اعتادوا أن يصعدوا بقواربهم ومن فيها متجهين إلى الجنوب ، فإذا انتهوا من نزهتهم عادوا فأنزلوا الركاب عند مرسى الجسر ، ثم أتوا إلى هنا ليؤدوا فريضة العشاء ، أذن يا أبا الحسن أذان العشاء .

— أعفني يا صديق من هذه المهمة فإن هذا الأذان المشوه كرهه إلى نفسي ، ولنتظر حتى يعود أحد منهم فيقوم هو بالأذان .

— إنه كرهه إلى أيضاً يا أبا الحسن ، ولكن للضرورة أحكام ، فلنبادر نحن لأن القوم إذا أتوا ورأوا على أن أدعو أنا للصلاة .

— أجل للضرورة أحكام :

الله أكبر — الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله — أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله — أشهد أن محمداً رسول الله

ثم توقف قليلاً متردداً وقال يخاطب نفسه :

— الأمر لله ، اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، ثم استأنف

الأذان بصوت خفيض :

حي على خير العمل حي على خير العمل

الله أكبر

الله أكبر

لا إله إلا الله

شاور في طريقه إلى الشام

استمر شاور وجنده الثلاثة يعدون مسرعين كمن يفر من عدو
داهم أو وحش ضار حتى وصلوا إلى صحراء عين شمس فترفقوا في
سيرهم قليلا ، وتنفس شاور الصعداء ، وقال لصحبه :

— أظننا بعدنا قليلا عن الخطر فلنتمهل في سيرنا لنرح هذه الجياد
فقد أنهكت ، والآن لتتدبر الأمر فيما بيننا ، لقد كان عقلي أسرع من
هذا الجواد فاستعدت كل ما حدث طول الطريق واستعرضت كل
الخلول الممكنة للخروج من هذا المأزق ، وقد رأيت أنه من الأفضل
أن أفر إلى الشام ؛ أما أتم فإني في حاجة إلى بقائكم هاهنا في مصر ،
وسأكتب إليكم ، ولتكونوا عيوننا يواظظ ترى كل شيء وإن حقر ،
وإياكم أن تبدر منكم بأدرة يشتم القوم منها إخلصكم لي وصلتكم بي ؛
هذه هي وصيتي في إيجاز فإني لازلت قريبا من الخطر ، وقدم يده
إليهم واحداً واحداً يحيمهم وهو يقول :

— أستودعكم الله .

فتنتت عيونهم بالدموع وقال واحد منهم .

— رافقتكم السلامة في حالكم وترحالكم يامولانا الوزير ،
سنكون عند حسن ظنكم بنا .

وألوى شاور عنان جواده ، وربت على عنقه يلاطفه ويستحبه
وقال مخاطبه :

— الآن لم يبق لي من رفيق غيرك يا (منصور) فأعنى بكل ماتملك

من خفة وسرعة وجلد .

وكان (منصور) جوادا عربيا أصيلا اشتراه شاور صغيرا
مذ كان هو واليا على قوص ، ورباه واعتنى به فحفظ له الجواد حق
الرعاية والجميل ونجاه في أكثر من مأزق ؛ وقد أحس منذ اللحظة
الأولى أن صاحبه في ضيق فضاعف من سرعته ، وكان في عدوه يطوى
الأرض تحته طياً وكأنه طائر مراع تتعقبه النور السكواسر .

وكان الجو قائظا والحر لاخفاً ، والعرق يتساقط من الجوادورا كبه
ولكن شاور لم ين لحظة عن التفكير فيما قد يعترضه من عقبات :
فكر أولاً في لباسه الذي يرتديه فقد ينم عنه إذا رآه من يعرفه ،
وفكر في الطريق وصعابه ، وفكر أخيراً في الشام وإلى من يلجأ فيها ؛
وقد هدته سرعة الخاطر إلى حلول ارتضاها وعمل على تنفيذها ، وترك
النجاح في ذلك إلى توفيق الله سبحانه وتعالى وإلى الظروف .

رأى أولاً أن يتخلص من ملابسه ، ورأى ثانياً أن يتجه في سيره
إلى بلبس ثم منها إلى الفرما ، وهذا طريق يعرفه جيداً فقد اجتازه
مرارا ، ثم هو يعرف إنه إذا اتجه من الفرما شرقاً وصل إلى العريش
ومنها يمكنه أن يتجه إلى الشام .

واستمر في عدوه بجواده وهو يتحاشى أن يقرب من القرى
المأهولة بالسكان ؛ والصحراء خالية حواليه يلتقي بطرفه أمامه فلا يحس

كأنا حياً في أية ناحية من نواحيها ، ومالت الشمس تنحدر نحو مقرها الليلي رويداً رويداً ، وحل الأصيل فلفظ الجو قليلاً ، وهبت نسيمات منعشة بعثت النشاط في نفس شاور ، اطمأن لها الجواد فضاعف سرعته .

ثم قاربت الشمس المغيب وضعفت حرارتها ولم تعد غير قرص أصفر باهت ، ولمح شاور عن بعد فتاة أعراية تهش على أغنامها متجهة شمالاً فخذ من سرعته إلى أن حاذاها فحياها ثم سأها :

— إلى أين رواحك يا أخت العرب ؟

— إلى خيامنا المضروبة قبلي بلبيس .

— وهل تبعد بلبيس عنا كثيراً ؟

— لا ، لقد غدت قريبة — أنظر إلى هذه التخلات البعيدة ، إن

خيامنا هناك ، وإذا اتجهت ...

ولسكن شاور لم يلق بالآ إلى بقية حديثها فقد رأى اعرايا يعدو

مسرعا متجها نحوه فأوجس خيفة ، وانتظر حتى قرب منه وحياه فرد

التحية ، ونظر فوجده من أعراب الصحراء الشرقية الذين يربون

الأغنام على حواشي الحقول وفي الصحراء ، ويتجرون بها مع سكان

الوادي ، وكان الرجل يرتدى عباءة صوفية سوداء ، وعلى رأسه عقال

تخمرت لشاور فكرة طارئة سريعة وقال للأعراي :

— أظنك في طريق أوبتك للفسطاط أو القاهرة يا شيخ العرب ؟

— لا — إني أقصد قرية عين شمس في أطرافها ترعى أغنامي
ويسكن أولادي ..

— ولكنك تأخرت يا شيخ العرب فقد قاربت الشمس أن تغيب :

— لم أتأخر كثيرا فسأصلها وقت العشاء أو بعدها بقليل فجوادي

هذا يسابق الريح لو أراد :

فألقى شاور على الجواد نظرة سريعة فعرف — وهو الخبير بجمياد

الخيل — صدق مقالة الرجل ؛ ولكن ماذا يهمله هو وصل الرجل

أم لم يصل ، إن هذه تعلقة كان يريد بها أن يستأنس الرجل ويجره إلى

الحديث ، فخرج على ما يريد وقال :

— إني من جند الخليفة يا شيخ العرب ، وقد خرجت في رسالة

هامة متجها إلى الشام ، ونسيت لسرعتي أن أصطحب عباءتي ، فهل

تبعني عباءتك هذه فأنت تعلم أن برد الصحراء في الليل شديد ، وقد

أنام في الطريق فاتخذها غطاء ، ولك مني إذا عدت إن شاء الله كل

إكرام ورعاية .

فلم يتردد الأعرابي بل خلع عباءته وأعطائها لمحدثه فقدم إليه شاور

يده بالثمن فتناوله الأعرابي وهمز جواده يستحبه على استئناف السير .

بادر شاور بعد ذلك بلبس العباءة فأخفى بها ملابس الجنود ،

وخلع منديله فاتخذة عقالا فأصبح من يراه وقتذاك لا يشك في أنه

أحد الأعراب المرتحلين عبر الصحراء في كل لحظة ، وساعده على

تقوية هذا المظهر سحنته العربية إذ كان أسمر الوجه طويله ذا أنف

عربي مستطيل وعينين سوداوين ، ولا غرو فهو من سلالة عربية خالصة .

وأحس شاور بالجوع يأكل أحشائه فقد كان صائماً، ورأى أن يعرج على بليس ليشتري منها طعاماً له ولجواده ثم يستأنف رحلته ، وقد ذهب فاشترى ما أراد واتجه إلى الصحراء ثانية حيث استراح قليلاً وأكل أكلة خفيفة وأطعم جواده ، ثم امتطاه فوجده قد استعاد نشاطه ، وزاده الأكل قوة فاستحثه على العدو السريع ، وكان الجواد مخلصاً في إجابة الدعوة فعدا أسرع ما يستطيع العدو حتى وصل نصف المرحلة إلى الفرما وهناك وجد شاور أن الليل قد أسدل أستاره ، وأنه يستطيع أن يبيت ليلته حيث وصل على أن يستأنف الرحلة في الغد المبكر ، ولكنه وجد — بعد تفكير قليل — أن السفر في الصحراء نهاراً شاق ومنهك له ولجواده . حقيقة إنه الآن مجهد وجواده متعب ، وكلاهما في حاجة إلى الراحة ليصبحا أوفر نشاطاً وأقدر على تحمل مشاق السفر ، ولكنه بعد تفكير قليل وجد أن الأفضل أن يتابع رحلته في الليل والهواء منعش جميل حتى يصل إلى الفرما وهو مكان هادئ آمن فيستريح هناك وقتاً من نهاره أو نهاره كله ثم يستأنف السفر إلى الشام .

استأنف شاور بعد هذا القرار سيره نحو الشمال ولكنه رفق بالجواد فكان كلما وجده قد أحس التعب يتركه يسير سيرا رقيقاً فيه بعض الراحة والاستجمام من تعب اليوم السابق .

وفي ظهر اليوم التالي وصل إلى الفرما فاستراح قليلاً وأراح جواده، ثم استأنف رحلته في الأصيل متجهاً إلى الشرق يقصد العريش فقضى الليل كله مرتحلاً، ولم تسكد تباشير الفجر تظهر وعلائم نور الصباح تلوح في الأفق حتى انتبه شاوور — وكانت قد أخذته سنة من النوم وهو على جواده — على نسمات قوية باردة تلفح وجهه وتعبث بمنديله وأطراف عبايته، ففتح عينيه ونظر فوجد البحر أمامه وسمع الأمواج تهدر عن بعد، ووجد عن يمينه وشماله الأرض يغطيها بعض الزرع، (والشواذيف) وأكواخ الزراع منتشرة هنا وهناك، وخلف هذا كله أشجار النخيل تنمو في غير ما نظام فتضفي على هذه البقاع جمالاً سحريراً رائعاً فراح شاوور يملأ صدره بهواء الصباح النقي اللطيف، وراح يملأ نفسه من هذا الجمال الإلهي الهاديء الخالي من كل ما يشوبه من تغيير أو تزيف، ولكنه لم يلبث أن صحا من هذه الغفوة الروحية على أصوات الكلاب النابحة تنحدر إليه من كل كوخ ومن بين النخيل فاستمر في سيره البطيء لأنه رأى أنه لو تريت أو وقف أو أسرع قعدا بجواده لها جمته الكلاب من كل حذب وصوب، وقد تصيب الجواد وهو عدته القوية في هذه السفرة.

غير أنه ما لبث أن وجد هذه الكلاب قد تكالبت وتكاثرت وكلها تجرى نحوه وهي تعوى عواء المتحفز للهجوم، وكان الجواد قد أحس بخطرها الداهم فتقاعس للوراء قليلاً ثم شب بمقدمه إلى أعلى وصهل صهيلاً قوياً، فأخذ شاوور يلاطفه ويهدىء من خوفه وإذا به يسمع

صوتاً فيه قوة يصيح بهذه الكلاب مهدداً ، ونظر فوجد رجلاً شيخاً
ذا لحية كثرة بيضاء ووجه أبيض تشوبه حمرة يتقدم نحوه ويده عكاز
يخش به على هذه الكلاب ويزجرها بخفت أصواتها وكأنها رجل
مغضب يحاول أن يكبت غضبه ويكتم ثورة نفسه ؛ وقال شاور .

— السلام عليكم يا أخا العرب .

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. تفضل ..

— هل هذه العريش يا والدي ؟

— نعم — إنها هي — تفضل ...

— إن كلابكم هذه لا تشجع على إكرام الضيف .

— لا عليك منها ، فهذا شأنها مع كل طارق غريب .

— ولكنها كثيرة ، وكانت تحتوى وكانها جند فى كمين يستعد

لملاقاة العدو ، فقد هاجمتنى من كل مكان .

— إن هذا موسم البلح فى تحرّس النخل وأصحابه ..

تفضل .. تفضل ..

— والله إني لفي سفر سريع ، ولكن الجواد متعب وأحب أنه

أستريح قليلاً فهل يمكن أن تضيفنى بعض الوقت ؟

— على الرحب والسعة يابنى .. تفضل .

فنزّل شادر وقاد الجواد خلفه ، وتقدم إلى الرجل فصاحه ، وسارا

جنباً إلى جنب يقصدان الكوخ فربط شاور الجواد إلى نخلة هناك ،

وأمر الرجل بعض أولاده فأحضروا حصيراً فرش به بعيداً عن الكوخ

ودعا صاحبه إلى الجلوس ، ثم سأله :

- من وين وإلى وين يا شيخ العرب ..؟
— أنا آت من القاهرة في طريق إلى الشام .
— القاهرة! يقولون إنها بعيدة يا ولدى .
— أجل — إنها لبعيدة — ألم ترها من قبل ؟
— كلا .. إننى لم أغادر أرضى هذه منذ ولدت .
— يا سلام !! لم تسافر أبداً ..
— أبداً

وهنا خرج من الكوخ رجل فيه شبه كبير من هذا الشيخ وهو يحمل على كتفه بعض شباك الصيد ، وخلفه طفلان صغيران قد تعلقا بأذياله واختفيا وراءه برقبان الرجل الغريب فى دهشة واستطلاع ، وقال الرجل :

— أنا ذاهب يا أبى وسأنتظرک .

— سألحق بك بعد قليل يا حمدان ، ولكن أين صفيية ؟ هل خرجت ؟

— انها تنتظر حتى ترضع السنخلة الصغيرة ثم تخرج . ولم يكذب ولم يكذب ولم يكذب ، وحديثه حتى سمع مائة الأغنام والشيء تخرج متسبعة من الكوخ ، وخلفها صبية مشرقة الوجه تهش عليها بعضا فى يدها ، وتحمل الى صدرها باليد الأخرى سنخلة صغيرة تحنو عليها وكأنها طفلها الرضيع ثم قالت الصبية :

— أنا ذاهبة يا أبى .

— رافقتك السلامة يا بئيتي ، ولكن احترسي ولا تتأخري عن الغروب .

ثم التفت الرجل إلى شاور وقال :

رمضان كريم يا صاحبي ، إن هذا موعد الفطور ولكن اعذرنا وحبذا لو بقيت معنا حتى الغروب فنأكل سوياً .

— الله أكرم يا والدي ، أشكرك على هذا الكرم .

— والآن . هاهي الدار تحت أمرك إن شئت أن تستريح فإني

لاحق بابني فهو ينتظرنى لأساعده في إنزال قارب الصيد إلى البحر ، ثم أجلس هناك بعض الوقت عند الشاطئ قرب نخلات لي أحرسها حتى يعود برزقه .

— لا . إنني أحب هواء البحر ، وأفضل أن أصحبك إلى هناك

حيث أستريح وأتحدث إليك قليلاً .

— تفضل إذن .

وسار الرجل بقامة منتصبه يذب على ثلاث : قدميه وعصاً في يده يتوكأ عليها ، وإلى جانبه شاور يتبعه جواده حتى وصلا الشاطئ فنظر شاور فوجد صفوفاً طويلة من النخيل على طول للشاطئ وكأنها حرس يقظ يحمي المدينة من طغيان البحر ، وألغى بعض الصيادين يتعاونون على إنزال قوارب الصيد إلى الماء ؛ وكان الجو صحواً والهواء سبجاً ، والشمس لا تزال تحبو خطواتها الأولى نحو النهار وكأنها في الأفق البعيد خارجة من لجج الرمال بعد أن نفضت عنها أدران

اليوم السابق، فوقف معجباً بهذا المنظر لحظة ثم سحب جواده فربطه إلى نخلة هناك ووضع عنه عدته وقدم له بعض الماء والأكل، وتلفت حوله فوجد الشيخ واقفاً على الشاطئ يرمق ابنه وحفيديه في رحلتهم اليومية سعياً وراء رزقهم، فجلس تحت النخيل ينتظره حتى عاد، وأخذ في الحديث فراح الرجل يفيض إلى جليسه بدخيلة نفسه، ويحدثه عن أولاده وبناته، فابنه هذا يحترف مهنة الصيد، وولدان آخران يزرعان الأرض حول كوخه، وله بنت تزوجت. وصفية التي رأها تخرج لترعى أغنامها، وطفلة أخرى صغيرة تساعد أمها في أعمال المنزل. ثم وجد العريشى أن صاحبه لا يصغى إلى حديثه ولا يشاركه فيه، وبدرت منه التفاتة نحوه فوجده يهوم ورأسه تعلو وتنخفض فهزه من كتفه ليوقطه وقال:

— اصح يا شيخ العرب، إنك تنام وأظنك متعب من رحلتك
قم هنا على هذا المكان الممهد تحت هذه النخلات.

— أجل، والله إني لمتعب، اسمح لي يا صاحبي، وسأترك هذا
الجواد في رعايتك.

وراح شاوور في سبات عميق، ونام نوماً لذيذاً هاتماً هادئاً حتى انقضى معظم النهار، والشيخ قريب منه يبدل الخوص ليصنع منه بعض السلال فسمع النائم يصيح ويقول:

— اتركني — اتركني — وأنت أغثنى أغاثك الله. فجرى نحوه

ولكنه وجده لا يزال نائماً فعاد إلى عمله، وبعد قليل سمعه يناديه:

- يا شيخ .. يا شيخ .. ما اسمك ؟
- لقد استيقظت أخيراً .. اسمي حسان .. وأنت ؟
- أنا .. اسمي .. اسمي منصور يا شيخ حسان .
- لعلك نعمت بالنوم في هذا المكان الهادئ يا شيخ منصور ؟
- ولكنك كنت تصيح وتستغيث منذ لحظات !؟
- نعم يا صاحبي ، لقد رأيت حلما مزججا ، رأيت كأنني أسير في مزرعة كبيرة مترامية الأطراف فيها من كل فاكهة زوجان ، وفيها الزهر والورد والريحان ، وفيها الماء ينساب في الجداول يروى الأراضين وفيها الطيور تغرد على الأشجار ؛ وكأن هذه المزرعة وما تحوى ملك يميني . ورأيت زائراً يزورني وهو رجل له وجه مثل وجه الأسد ، ويقيم عندي أياما ؛ وتكررت زيارته لي ثلاث مرات ، ولكنه في المرة الثالثة انقلب أسداً حقاً ، وهاجمني يريد قتلي فاستغثت بمن حولى آه .. إنه حلم مريع مفزع .
- لا عليك يا شيخ منصور .. فهذا أثر الجوع والتعب ، وهذا صوت جوادك أيضا يطلب الطعام ، وقد أطعمته مرة وأنت نائم ولكنه جاع ثانية .
- وأفطر شاور هذا اليوم على مائدة الشيخ حسان وكان قوامها السمك المشوى — من صيد ولده حمدان — وخبز الشعير ، ثم أعطى شاور لأولاد الشيخ وأحفاده بعض المال ، وكان كريماً حتى بهرهم بكرمه ؛ وودعهم ليستأنف رحلته .

وانطلق به الجواد قويا نشيطاً سريعاً وقد أنسته الراحة تعب
الأمس ، وكان شاور يفكر طول الطريق في هذه الحياة الراضية
المرضية التي يحياها هذا الشيخ حسان ، وتذكر قوله له إنه لم يغادر هذه
الأرض منذ ولد ، وردده عليه عندما سأله :

— أنطبق المعيشة طول حياتك في مثل هذا المكان الموحش ؟

إذ قال :

— وماذا أبغى غير ما أنا فيه ؟ هذه الأرض يزرعها أولادى
وأعاونهم في حرثها ، وهذا ابني الكبير يرتزق مما يبيع من صيده ،
وهذه ابنتى صافية ترعى الأغنام طول يومها ؛ ولقد بلغت الثمانين من
عمرى وأنا فى صحة جيدة والحمد لله ، هذه نعمة من ربى له الحمد والشكر
وقارن شاور حياته بحياة هذا الرجل ، واستعرض فى مخيلته كفاحه
الطويل المضنى فى سبيل الملك ومجده الزائل ، وها هو الآن مشرد فى
الصحراء لا يدرى أين تقوده الأقدار : إلى حتفه أم إلى مجده ثانية ؟
وأسرته وأولاده فى مصر .. ترى كيف حالهم ؟ وماذا فعل بهم ضرغام ؟
أين هذا كله من هذه الحياة الهادئة الآمنة التى يحياها الشيخ حسان
وحوله أولاده وأحفاده يكدحون كدحا يسيراً فى سبيل الرزق ،
ويقنعون بما يشبع جوعهم ويكسو عريهم ، وحسبهم بعد هذا هدوء
البال واطمئنان النفس ، والصحة ، أجل والصحة .. إن هذا الشيخ ذا
الثمانين سنة كان يبدو فى مشيته وكأنه أصغر منه سناً .

ولكن نفس شاور الطموح عادت تناقش هذه الأفكار ، وتذكره

بأبهة الوزارة ومجد السلطان وعز الملك ، ونشطت غريزة الانتقام
تثيره ضد ضرغام ، هذا الخارج على طاعته، المغتصب لجاهه ووزارته..
ولا بد أنه قتل أهله وولده أو سجنهم فكيف يسكت عن الثأر..؟ إنه
لا يكون شاور إذا لم ينتقم من غريمه .

والآن ليذهب إلى بصرى وهى قرية على بعد أميال من دمشق ،
وفىها تاجر يعرفه أغانه مرة إذ لجأ إليه وهو وال على قوص بعد أن
هاجمه اللصوص فى الطريق بين عيذاب وقوص فسلبوه ماله وتجارته ،
فأصدر أوامره الشديدة يومئذ إلى رجاله أن يقتفوا آثار اللصوص ،
وقد قبض عليهم وأعيدت التجارة وأعيد المال لهذا التاجر ، فشكر
لشاور هذا الصنيع ، ودعا لزيارته فى بصرى ليرد له الجميل ، وما كان
يدرى وقتذاك أن الأقدار ستدفعه إلى تحقيق هذا الطلب — بالذى لم يحمله
حمل الجد — وزيارة هذا الرجل فى مثل هذه المحنة .

وفى بصرى يستطيع أن يمهد السبيل للاتصال بأحد الطرفين :
نور الدين فى دمشق أو الفرنج فى مدن الساحل .
واتخذ شاور طريقه إلى الشام . وكان كلما سار مرحلة سأل من
يقابل عن الطريق حتى وصل إلى بصرى بعد تركه العريش بيومين .

في ضيافة نور الدين

جلس السلطان الملك العادل نور الدين محمود في قلعة دمشق بعد عودته من الشمال وانتصاره على الفرنج وأخذه حمص ، وكان معه في مجلسه وزيره الموفق بن القيسراني ، وقاضيه كمال الدين الشهرزوري ومن كبار قواده ورجال دولته نجم الدين أيوب وولده صلاح الدين وشهاب الدين الحارمي ، وعين الدولة الياروقي ، وجماعة من القضاة والفقهاء والشعراء ، وكانوا جميعاً يقدمون التهاني لنور الدين لانتصاره على الفرنج في حمص ، فتكلم القواد والكبراء والقضاة ، ثم تقدم واحد من الشعراء وأخذ ينشد قصيدته مهتماً .

وبينا هو في إنشاده يقول البيت ويعيده ، والجمع يبديون استحسانهم وإعجابهم بما يقول إذ بالحاج يدخل ويقول :

— مولاي ، إن بالباب تاجرا من قرية بصرى ، اسمه الحاج عبد الصمد يلح في طلب المقابلة لأمر سرى هام ، وقد حاولت رده الآن ، وأبديت له الأعذار الكثيرة بأن مولاي مشغول مع قواده ورجال دولته فأبي أن يدعن بل زاد إلحاحا وإلحافا في طلبه .

فالتفت نور الدين إلى جلسائه وقال :

— ومن يكون الحاج عبد الصمد؟ إني لا أعرفه . .

فقال القاضي كمال الدين الشهرزوري :

— إنه تاجر طيب القلب من بصرى ، وهو رجل متدين كثير
البر بالفقراء والمعوزين .

فقال نور الدين :

— ترى ماذا يكون هذا الأمر الخفى الهام الذى دفع هذا الرجل
الطيب إلى الاحاح فى طلب مقابلتى .. إنه كما تقول رجل يشتغل
بالتجارة وأظنه لا يعنى بشئون الدولة أو الحرب .

— لا أحسبه يعنى بها يامولاي ، بل إنه لا يعنى إلا بتجارته
وأولاده .

— ومع هذا لا بد أن نراه .. أدخله أيها الحاجب

فقال الحاجب :

— ولكنه يريد مقابلة مولاي على انفراد ، فالأمر خطير كما يقول

— غريب أمر هذا الرجل ، لقد اشتقت إلى رؤيته

ثم التفت إلى الجالسين وقال :

— هل تأذنون يا صحبي فتتنظرون لحظات فى الإيوان المجاور ؟

فقالوا جميعاً :

— سمعاً وطاعة ... لعله رسول خير .

وخرجوا واحداً إثر الآخر وهم يتهامون متسائلين عن هذا الرجل

وعما يقصد إليه بهذه الزيارة ، ولكن نور الدين نادى وقال :

— يا نجم الدين — ابقى أنت لحظة .

ثم انتظر حتى خرج جلساؤه فقال :

— أتظنني أخفي عنك سر آيا نجم الدين ، ابق فقد أكون في حاجة
إلى رأيك ..

— أشكر مولاي على هذه الثقة ، وأرجو أن أكون أهلاً لها .
وتقدم الحاجب يستأذن للزائر ، ودخل رجل ربة أقرب إلى
القصر ذو وجه أبيض مستدير تزيينه لحية بيضاء ، يلبس ملابس التجار
ويده سبحة ، فقال :

— سلام الله على ملكنا العادل نور الدين ، حفظه الله وأيده
روح من عنده .

— السلام عليك يا حاج .. تفضل .. تقدم فاجلس هنا بجاني ..

— شكر ألامولاي السلطان .

ثم نظر التاجر إلى نجم الدين أولاً ولنور الدين ثانياً كمن يريد أن
يقول :

— هل أستطيع أن أرى مولاي السلطان على انفراد ؟ ففطن
نور الدين لقصده وقال :

— لا تخش شيئاً يا حاج عبد الصمد . إن نجم الدين هذا بطل من
أبطال جيشي ، وله رأى حصيف ، وهو منى بمشابة الأخ لا أخفي عنه
شيئاً فأطمئن على شرك . وهات ما عندك ، ولعله خير .

— خير إن شاء الله يامولاي .. لقد نزل عندي منذ مدة ضيف
عزيز ، وقد بعثني إلى مولاي في رسالة .

— إن ضيفك ضيفنا يا حاج .. وإنا لشكرمه لأجل خاطرک .

— أكرمك الله يامولاي وزادك مجداً وأعزك ، وكتب لك النصر على أعدائه .. إن ضيف أيها السلطان هو وزير مصر شاور . فأخذ نور الدين وبدت على وجهه علامم الدهشة . واعتدل في جلسته ثم نظر إلى الرجل وإلى نجم الدين وقال :

— شاور؟! ترى ما الذي أتى به؟! إنه إذن في ضياقتي حقاً .

— مولاي يعلم ما كان بينه وبين ضرغام ، ولقد عرفت أنا شاور وهو وال على قوص إذ أنقذ لي تجارتي من أيدي اللصوص وقد لجأ إلى متنكر آ بعد أن فر من مصر .

— إننا نغيث كل لاجيء يا حاج عبد الصمد ، فهل لشاور من حاجة فنقضها ؟

— لم يخبرني بشيء . ولو سمح مولاي له بالمشول بين يديه لعرف رأيه ، إنه الآن في مملكتي فلا بد أن يكون ضيفي . ثم استدعى الحاجب وقال له :

— ناد ابن الصوفي والقاضي كمال الدين والوزير ابن القيسراني ، فلما حضروا قال نور الدين :

— إن شاور وزير مصر لجأ إلينا بعد فراره منها ، وهو الآن في ضيافة الرجل الكريم الحاج عبد الصمد ، فأرجوا أن تذهبوا إليه في الغد الباكر وتدعوه ليقم في جوسق الميدان الأخضر وتأمروا رجال القصر وخدمه بإحسان ضيافته وإكرامه ، وسلهوا عليه وعرفوه أعدارنا في التقصير في حقه ، وسلوه فيما قدم ، وما حاجته فإن كان

ورد علينا مختاراً للاقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه . ويقوم بأربه
وأوده ؛ ونكون عوناً له على زمانه ؛ وإن كان ورد لغير ذلك فليفصح
عن حاجته .

فقال الجمع :

— سمعاً وطاعة يامولانا .

* * *

وقبل شاور دعوة نور الدين ونزل بجوسق الميدان الأخضر
ضيفاً عليه ، ونقل إليه الوفد رسالة السلطان فشكر إحسان نور الدين
وكرمه ؛ ولكنه أبي أن يبين عن غرضه ، فلما ألحوا عليه أجاب :

— إذا لم يبيت الرأي جاء فطيراً .

فقال ابن الصوفي :

— إن مولانا السلطان يريد جواباً على رسالته .

فقال شاور .

— إن رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بي فله علو الرأي

فاستأذنوا وعادوا إلى نور الدين يبلغونه رغبة شاور فقال :

— لا مانع عندي من مقابلته .

ثم نظر إلى نجم الدين وقال :

— فليكن اجتماعنا به بعد أيام في الميدان الأخضر عند ذهابنا

للعب الصولجان .

وبعد أيام كان الميدان الأخضر يبدو في أروع زينته تحفق في
أفحائه الرايات ، والجند والقواد في أماكنهم ومعهم أبواقهم وطبوعهم
وأعدت المقاعد المذهبة لجلوس نور الدين وضييفه .

وخرج نور الدين من القلعة في أحسن زى وأكمل شارة ، وحوله
وجوه دولته وخواص مملكته فلما وصل إلى الميدان دقت الطبول
والكوسات ، ونفخ في الأبواق فخرج شاور من الجوسق راكباً ،
وسار الرجلان حتى التقيا في وسط الميدان فتبادلا التحية دون أن
يترجل أحد منهما لصاحبه ، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف
الميدان إلى آخره وهما يتبادلان الحديث ، وعادا بعد قليل إلى المكان
المعد لجلوسهما فجلسا ، وبدأ اللعب ونور الدين يشرح لضييفه كل
صغيرة وكبيرة .

وكان الشوط الأول بين نجم الدين أيوب وشهاب الدين الحارمى ،
ونظر شاور فوجد كلاً من الرجلين قد امتطى صهوة جواده ، ووقف
في ناحية من الميدان وخلفه خشبتان مشبتان في الأرض تعيينان الهدف ،
ويده عصاً طويلة معقوفة النهاية ، وأذن نور الدين بيداً اللعب ، وأقيمت
الكرة وسط الميدان ، وتقدم كل منهما ، وظلا يتبادلان الكرة فاقد
بهذه العصى ، وكلما بعدت جريا خلفهما وهما يميلان على جواديهما
أماما وخلفا ، ويمينا ويساراً في مهارة وخفة عجيبتين ، والحضور جميعاً
يتابعون الكرة واللاعبين بأبصارهم ، ويبدون إعجابهم بكل رمية موفقة .
وبعد لحظات بعدت الكرة عن هدف نجم الدين ، وقربت من

هدف غريمه ، ونجم الدين وراءها يتابعها ، ورفع شهاب الدين يده بالصولجان ليضرب الكرة فيبعدها عن هدفه ، ولكن نجم الدين قفز بجواده قفزة سريعة فكان في لحظة بين شهاب الدين والكرة ، وجواده لصق جواد منافسه ، ونقل الصولجان في حركة سريعة إلى يده اليسرى ، وهوى به على الكرة فضربها ضربة قوية اندفعت إثرها من تحت الجوادين تجزى حتى استقرت داخل الهدف فصاح الجميع صيحة الإعجاب ، وصفق الجند والقواد ، وابتسم نور الدين وقال لضيفه : — إن هذين من كبار قوادى ، ومن أمهر من يلعب هذه اللعبة . فقال شاور :

— ولكن يبدو إلى أن نجم الدين أمهر من صاحبه ، بل يخيل إلى أيضا أنه قد يكون أمهر قوادك لعبا .

— إنه ماهر حقا ، ولكن ابنه صلاح الدين أمهر منه . . إنه يكون على جواده أخف من الريشة وأسرع من الريح ، وسأمر أن يكون الشوط الثانى بينه وبين أبيه لتحكم بنفسك .

وبدأ الشوط الثانى بين الأب وابنه ، وظلا يبديان من فنون المهارة فى اللعب ما يثير حماس الشهود ، وقربت الكرة من هدف نجم الدين فصددها فى ضربة قوية رفعتها عن الأرض فطارت فى الجو ، فاستعد صلاح الدين لتلقيها ، ورفع الصولجان فردها فى قفزة سريعة قوية كادت تصيب رأس نجم الدين فانحنى لها ، ومرت كالسهم إلى أن استقرت داخل الهدف ، فهلل الشهود جميعا وصفقوا ، ولم يتمالك

قور الدين نفسه فصفق معهم إعجاباً واستحساناً وصاح وظيفه :

— مرحى ، مرحى صلاح الدين .

وقال نور الدين :

— إن هذا الشاب ذا الخمسة والعشرين عاماً أمهر اللاعبين بين جنودى وقوادى ، وإنى أحب هذه اللعبة حباً جما وأتقنها ، ولكن لا يغلبنى فيها إلاصلاح الدين ، ولذلك كثيراً ما أدعوه ليشاركنى اللعب .

* * *

وبعث نور الدين إلى مقدم عسكره أسد الدين شيركوه فاستدعاه من إقطاعه « الرحبة » وجمعه وأخاه نجم الدين وابنه صلاح الدين فعرض عليهم ما دار بينه وبين شاور من حديث وسألهم رأيهم ، فقال نجم الدين :

— الأمر لمولانا السلطان ، ولكننى أرى أننا يجب أن ندخر جنودنا وقوانا كلها لمناواة أعدائنا الفرنج فهم يزدادان كل يوم خطراً بمن يأتهم من وراء البحار .

فقال نور الدين :

— وما رأيك أنت يا أسد الدين ؟

قال :

— إن ما يقول أخى حق ، ولكننى أرى أن نجيب دعوة شاور

فقد لجأ إلى مولانا السلطان مستعيناً به . .

ثم سكت لحظة وقال :

— وأظن أننا نستطيع أن نطلع على أحوال مصر ، فالأمور فيها

كما يبدو لي على غير ما نحب ، وإني لأخشى أن يطمع هذا الخلل في أحوالها الفرنج فيها فينقضون عليها ، ولكن لا بد لمولانا السلطان أن يتأكد من وعود شاور وشروطه .

فقال نور الدين :

— إن شاور يعرض أن يكون لي ثلث خراج مصر ، وأن يكون نائباً بها ، وقد ترددت كثيراً في قبول رجائه خوفاً على جندي من خطر الطريق ، فالفرنج يملكون مدن الساحل كما يملكون قلعتي الكرك والشوبك ، كما أنني أضعف من قوتي هنا في الشام إذا أرسلت لمصر جزءاً من جيشي ، وربما أطمع هذا الفرنج فيغيرون على بلادى ، ولكنني مع هذا أوافق أسد الدين على رأيه ، لأن الأخبار تصل إلى من مصر أن أحوالها يهب مقسم بين الجند والأمراء ، وضرغام قد استبد بالأمر وأخذ يقتل أمراء جيشه حتى كاد يفنيهم ، واستبد بالأمر دون الخليفة العاضد حتى أصبح لا يملك من الحكم شيئاً ، فهذه حال تطمع الفرنج في مصر كما تقول يا أسد الدين ، وإلى هذا كله لو أن جنودي انتصروا وعاد شاور إلى الوزارة لكان لنا ثلث خراج مصر وهو مبلغ لا يستهان نستعين به على حرب أعدائنا من الفرنج .

وقال أسد الدين :

— وسيدن شاور لمولانا السلطان بالولاء ، وهذه خطوة في سبيل

الاستيلاء على مصر .

ونظر إلى نجم الدين وقال :

— ألا ترى رأينا يا أخى فأنى أراك صامتاً .

— فى الحق أنه كلام جميل ، وكسب عظيم لو تحقق .

فقال نور الدين :

— وما الذى يمنع من تحقيقه ؟

— يمنع من تحقيقه من سيتولى تحقيقه .. شاور .

فقال أسد الدين :

— شاور .. وكيف ؟

فتقدم صلاح الدين لأول مرة يبدى رأيه؛ وقال :

— أجل يا عمى — شاور — إنى أوافق أبى على رأيه ؛ إن لهذا

الرجل نظرات ماكرة تبدو نفسه الخبيثة من خلالها واضحة جلية ..

إننى لم أرتح لهذا الرجل منذ رأيتة ، ولقد شمتت من حديثه أنه يكاد

يقتل نفسه لضياح السلطة من يديه ، وتبين لى أيضاً أن الغاية لديه تبرر

الوسيلة فهو يريد العودة إلى الوزارة مهما كلفه ذلك من ثمن ، وهو

يسب ضرغاماً ورجال ضرغام والخليفة العاضد ، وهو يعلن أهل مصر

الذين يقدمون إليه المال ويعينونه على معيشة الترف والبذخ التى يتحرق

شوقاً للعودة إليها الآن . أتظنه ينى لمولانا السلطان إذا عاد للحكم؟!

فقال نور الدين :

— ولكننى وعدت الرجل يا صلاح الدين :

— لم أكن أعلم أنك وعدته يامولانا ، وما دمت وعدت فلا بد
من الوفاء .

وقال نجم الدين :

— ما دمت وعدت فالخيرة في ما اختاره الله ، فلتأمر جيوشك
يامولاي بالاستعداد .

فنظر نور الدين إلى أسد الدين وقال :

— وقد اخترتك يا أسد الدين لتكون مقدم الجيش السائر إلى
مصر لما أعلمه من شجاعتك ويمن طالعك ، فإني أتفاءل بك خيراً ،
ولم يحدث أن عهدت إليك بغزو إلا كان النصر على يدك ، فاختر جندك
وقوادك من الغد واستعد للسفر .

— أنا سيف من سيوف مولانا فليوجهه أنى شاء ، ولسكننى أرجو
أن يصحبنى أخى نجم الدين أو ابنه صلاح الدين .

— لك ما تريد .

ثم نظر الى نجم الدين وابنه وقال :

— أيكما يريد السفر مع أسد الدين ؟

فقال نجم الدين :

— ليأمر مولانا صلاح الدين بالسفر مع عمه .

فقال نور الدين :

— عظيم — سيرا على بركة الله وليكن التوفيق والنصر حليفكما

إن شاء الله ، وسأسير أنا بجندى عند رحيل جيشكما إلى بلاد الفرنج
لأشغلهم عن التعرض لكم حتى تصلوا مصر سالمين بعون الله .

عودة شاور

لم يكن ضرغام في سيرته مع الناس . بعد توليه الوزارة . أفضل من شاور ، فقد عانى المصريون من ظلمه كثيراً ، وكثرت مصادراته للأموال التجار والزراع وأرباب المعاش ، وعات جنده في البلد فساداً حتى أشاعوا الرعب في نفوس الجميع ، وأصبح الناس خائفين على أنفسهم وأموالهم ، فجمعوا الأقتوات والماء ، ولزموا مساكنهم ، لا يغادرونها إلا إلى المساجد حيث يؤدون الصلاة ويبتهلون إلى الله سبحانه وتعالى أن يكشف عنهم تلك الغمة .

وعلم ضرغام بأن شاور قد لجأ إلى البطل نور الدين يستنجد به فكتب إليه رسائل كثيرة يجرح فيها شاور ، ويمنيه بالطاعة والولاء ، ولكن نور الدين كان قد وعد شاور بالمساعدة فلم يلق بالال رسائل ضرغام .

ووصل جيش أسد الدين - بعد قليل - ومعه شاور إلى بلبس ، فأرسل ضرغام أخاه ملهما على رأس الجيش المصري لمقاتلة أسد الدين . كان جيش أسد الدين أقل من جيش مصر عدداً وعدة ولكنه أقوى روحاً وأشد إقداماً ، كما كان يمتاز بشجاعة قواده ، أما جيش مصر فقد كانت تعوزه القيادة الجريئة منذ أنفى ضرغام خيرة رجال الجيش وقواده ذبحاً وقتلاً ، ولهذا لم يجد أسد الدين من جيش ملهم مقاومة جديده وسرعان ما انتصر عليه .

وقد كان الفضل الأكبر في هذا النصر لمسكر شاور ودهائه فقد بدأت المعركة عند بلبليس ، ووقف الجيشان مصطفيين مدة من النهار دون قتال ، وأشار شاور على أسد الدين أن يأمر جنده بالوقوف ، هكذا دون حرب ، فوقفوا إلى أن حمى النهار ، والتهب الحديد على أجساد الرجال ، فضرب أكثر أهل مصر الخميم الصغار ، وخلعوا السلاح ، ونزلوا عن الخيول ، وجلسوا في الظل ، فأمر شاور عند ذلك الناس بالحملة ، فكان النصر لجيش أسد الدين ، والهزيمة لجيش ملهم ، وكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه ، وأطلق عنانه ، وولى منهزماً ، وتركوا خيمهم وأموالهم ، فاستولى عليها جند أسد الدين .

وتقدم جيش أسد الدين حتى وقف على أبواب القاهرة ، فاستعد ضرغام لملاقاته ، وأعوزه المال للدفاع ، فأخذ أموال الأيتام المودعة في صندوقهم ، فكرهه الناس ، واستعجزوه ، ومالوا مع شاور ، فتنكر لهم ضرغام ، وأخذ يناهم بعقابه الشديد ، فزاد بغضهم له .

وأخيراً خرج بفلول جيشه ، وقاتل قتال المستميت ، غير أنه لم يلبث أن وجد أن لا فائدة من القتال ، ففكر راجعاً إلى القاهرة ، وأمر بضرب الأبواق لتجتمع الناس ، فضربت الأبواق والطبول ما شاء الله أن تضرب من فوق الأسوار ، فلم يخرج إليه أحد ، وانفض عنه الناس ، فسار إلى الميدان قبالة باب الذهب - من أبواب القصر - ومعه خمس مائة فارس ونادى الخليفة ضارعا مستغيثاً وهو يقول :

— أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عما أفعل .

وظل يردد النداء ولا يجيب ، لأن العاضد كان يكرهه كرها شديداً ، فقد كان مدة وزارته كالحجور عليه ، وكانت قد وصلته كتب شاور يعتذر فيها عن الماضي ، ويطلب منه الإذن بالدخول إلى القاهرة . لم يجد ضرغام لنفسه مخرجا من هذا المأزق الحرج ، وسُدت أمامه السبل ، فلبث واقفاً ينادى الخليفة إلى العصر ، ويتضرع إليه ، ويستحلفه بحق آبائه وأجداده ، والناس تنحل عنه حتى بقي في نحو ثلاثين رجلا ، كل ذلك والخليفة لا يجيب ، حتى سمع ضرغام الأبوأق والطبول وجند أسد الدين وقد دخلوا من باب القنطرة ومعهم شاور ، فذهب على وجهه منهزما ، وخرج من باب زويلة ، والعامّة تلعبه وتقول : « يا ضرغام . . هات مال الأيتام . . ضرغام عدو الإسلام . . » وتبعه رجل من جند الشام حتى ظفر به فقتله ، وحمل رأسه الى أسد الدين .

وهكذا أنتهت حياة وزير ، وعاد إلى الوزارة شاور وكان أول ما فعل بعد عودته أن أمر بإطلاق سراح المساجين الذين أسرهم ضرغام أثناء غيبته وهم نفر من رجال الدولة كانت لهم بشاور أو بأفراد أسرته صلوات .

وكان أول من أطلق سراحه القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني أحد كتاب ديوان الإنشاء ، فقد ظل سجينا مدة غياب شاور عن مصر ، لا لذنوبه إلا أنه كان متصلا بالكامل بن شاور وكانت تربط الرجلين أواصر الود والصدقة .

وذهب عبد الرحيم إلى منزله بالفسطاط فرحب به أهله فرحين ،
وسرعان ما انتشر خبر العفو عنه فتوافد الناس على داره مهئين ، وكان
في مقدمتهم الفقيه الشاعر عمارة اليمى ، والفقيه الجندى عيسى الهكارى
إمام أسد الدين شيركوه .

وبينا هو فى داره يرحب بمهنييه ، ويتجاذب وإياهم أطراف
الحديث إذ أقبل عليه صديقه الجيمان : الفقيه زين الدين والشيخ أبو
الحسن ، فأسرع إليهما الفاضل محيا ومرحبا ، وتقدم فأحتضن زين
الدين وهو يقول :

— أهلا بالصديق العزيز . . . أهلا وسهلا

— أهلا بك أنت يا عبد الرحيم - حمد الله على سلامتك وألف
حمد . وشكراً له أن دالت دولة الظلم .

ثم التفت عبد الرحيم إلى أبى الحسن وقال :

— مرحباً . . . مرحباً يا أبا الحسن . . . إنك صديق الجميع الوفى .
كيف أطفال مكتبك . . . ألا زالوا مجدين فى حفظ القرآن . إن لك
عند الله أجراً عظيماً ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول
« من كان لله كان الله له . . . » . . . تفضلاً . . . تفضلاً .

وجلس الرجلان يعيدان التهنئة لصديقهما عبد الرحيم ويشاركهما
فى ذلك الحاضرون إلى أن قال القاضى الفاضل وأشار إلى رجل يرتدى
ملابس الجند وعمامة الفقهاء .

— هذا صديق الفقيه عيسى الهكاري يازين الدين وكان يحدثنا قبل
مجيئك عن البطل نور الدين وشدة إيمانه بالله . . .
ثم التفت إلى الفقيه عيسى وقال :

— والآن زدني من حديثك الشهى يا عيسى . . . إنه يحى موات
نفوسنا ونحن في بلد لا يفكر أحد من رجال الدولة فيها في الله سبحانه
وتعالى . . . واستأنف عيسى حديثه فقا :

— والله إن هذا الرجل أهل لكل خير فهو لا يعيش إلا للإسلام
والجهاد في سبيله وسلاحه القوى في جهاده إيمانه بالله سبحانه وتعالى .
وإني لأذكر أن نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ست وخمسين وخمسمائة
— أى منذ ثلاث سنوات — ففضى الله بانهمام عسكر المسلمين ، وبقى
الملك العادل مع شزيمة قليلة وطائفة يسيرة واقفاً على تل يقال له تل
حيش ، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالته المسلمين مع
رجال الكفار فوقف الملك العادل بحذائهم مولياً وجهه إلى قبلة الدعاء
حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه يقول « يارب العباد وأنا العبد الضعيف
ملكنتى هذه الولاية وأعطينى هذه النسيابة عمرت بلادك ونصحت
عبادك وأمرتهم بما أمرتنى به ونهيتهم عما نهيتنى عنه فرفعت المنكرات
من بينهم وأظهرت شعار دينك في بلادهم وقد انهزم المسلمون وأنا
لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونيك محمد صلى الله
عليه وسلم ولا أملك إلا نفسى هذه وقد سلمتها اليهم ذاباً عن دينك
وناصراً لنيك . . »

ثم سكت الفقيه عيسى لحظة وقال :

— فاستجاب الله تعالى دعاءه وأوقع في قلوب أعدائه الرعب وأرسل عليهم الخذلان فوقفوا في مواضعهم وما جسروا على الأقدام عليه وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة وأن عسكر المسلمين في الكمين فإن أقدموا عليه يخرج العسكر من الكمين فوقفوا وما أقدموا فقان القاضي الفاضل :

— مرحى ، مرحى إن هذا رجل الإسلام وبطله والله لسكان هذا إلهام من الله سبحانه وتعالى ولولا ذلك لهزم المسلمون وأسروا وقال أبو الحسن :

صدق رسول الله .. « من كان لله كان الله له » إن هذا هو الذي يستحق أن يكون الله له يا صديقي عبد الرحيم لا أبو الحسن الرجل الفقير الذي يعلم الصبيان القرآن .

ومال زين الدين على صديقه أبا الحسن وهمس في أذنه .

— والله إنى لأتمنى في نفسى لو أن رجال هذه الدولة كانوا حاضرين هذا الحديث .

وبدا الفرخ على الفقيه عيسى وانفرجت أسارير وجهه وملكت نشوة السرور عليه نفسه وكأنه تليذ بار يستمع لتقريظ الناس لأستاذه وراح يزيدهم من أخبار نور الدين فقال :

— إن هذا صديقنا الفاضل عبد الرحيم سجنه ضرغام تسعة أشهر وهو برىء ، لا شيء إلا لأن الكامل بن شاور كان يختص به ،

ولكن استمعوا كيف يعامل نور الدين الفقهاء والعلماء والفقراء في ملكته ... قال لنور الدين مرة نفر من أصحابه : « إن لك في بلادك إدارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها الآن لكان أمثل » فغضب نور الدين وقال : « والله إنى لأرجو بأولئك النصر فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلوات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطيء وأصرفها إلى من يقاتل عنى إذا رأيت بسهام قد تخطيء وتصيب ، ثم إن هؤلاء القوم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم كيف أعطيه غيرهم ... ؟ »

فصاح الحاضرون فقد كانوا جميعاً فقهاء .

— الله أكبر ... الله أكبر ...

وقال الفقيه عمارة :

— إن هذا الرجل العظيم يعيد سيرة الصحابة والخلفاء الأولين

زاده الله عزاً ومجداً .

في معسكر أسد الدين

كان أسد الدين شيركوه يروح في خيمته ويغدو نائراً محنقاً كالأسد
حبس في قفص ، وحوله كبار رجال جيشه صامتين رهبة واحتراما ،
وجلس أسد الدين على كرسى هناك وأمسك بسيف أمامه وضرب به
المنضدة في عنف وقوة وقال :

— أرأيتم كيف غدر بنا هذا الكلب شاور ؟

فقال شهاب الدين الحارمي :

— وهل جاءت رسله بالرد ؟

— أجل جاءت الرسل .. جاءت .. جاءت .

فقال قائد آخر :

— فهل يسمح مولانا الأمير فيطلعنا على رأى هذا الرجل

لنتدبر الأمر .

فاعتدل أسد الدين في جلسته وقال :

— لقد لجأ هذا الرجل المماكر إلى الملك العادل نور الدين واستنجد

به ضد عدوه ضرغام فأغاث نور الدين لهفته ، وأمرنا أن نسير بجيشنا

لنساعده حتى يعود إلى الوزارة ، وقد بذلنا كل جهدنا ، وضحينا بالمال

والرجال حتى حققنا له رغبته ، وقد مضى الآن شهر ونحن نعسكر

خارج القاهرة ننتظر أن يفي هذا الغادر بوعده لنور الدين فما وفي ،

وأرسلت إليه رسولا يذكره بوعوده ويقول له أن مقامنا في الخيم قد طال ، وقد ضجر العسكر من الحر والغبار ..

ثم سكت لحظة وقال في صوت المتذمر الساخط :

— أتعرفون ماذا كان جوابه ؟! لقد أرسل إلى ثلاثين ألف

دينار وقال « إنك تستطيع أن ترحل في أمن الله ودعته » ، أجل ..

أستطيع أن أرحل في أمن الله ودعته .. هيه .. يحسبنا هذا الرجل

مطايا توصله لبغيته ثم تعود إلى مراتبها !! ..

فقال صلاح الدين :

— لقد صدق ظن أبي وظنى ياعمى .. أن شاور رجل ماكر

لا يسعى إلا للهلاك ، وهو بعد ليس بالرجل — بل ليس بالكلب إن

الكلب يبق وهذا لا وفاء عنده .

— صدقت يا صلاح الدين ، ولسكنى لم أسكت فأرسلت إليه

رسولا آخر يذكره بنص وعده لنور الدين فإنك تذكر أنه وعده

بثلث خراج مصر وأن يدين له بالولاء .

— فماذا كان جوابه ياعمى ؟

— لجأ إلى الكذب ، كذب وهو الوزير ، وقال للرسول « أنا

ما وعدت بشيء مما تقول ، وأنا طلبت نجدة من نور الدين لتحقيق

رغبة خاصة ، وقد حتمقت فلا بد من عودة الجند إلى الشام ، وقد

بعثت لأسد الدين نفقة الجند فليأخذها ولينصرف ، وأنا أستطيع

التفاهم مع نور الدين .»

فزجر القواد وقلوا في صوت حائق :

— ياله من ثعلب ما كر .. أ يصل به السكذب إلى هذا الحد .. !؟

وقال صلاح الدين :

— مرنا بقتله يا عمى نقتله .

وصدق القواد على قوله والغضب يفور في صدورهم :

— أجل مرنا أيها الأمير ، مرنا نأتيك برأسه

فقال أسد الدين :

— صبراً .. صبراً .. واستمعوا إلى بقية الحديث ففيه العجب ،

أرسلت إليه ثلاثة أقول إنني أحمل أمراً من نور الدين ، ولا يمكنني

مخالفته ، ولا أستطيع الانصراف إلا إذا نفذ هذا الأمر . فكان

جوابه أن أمر بإغلاق أبواب القاهرة وأخذ في الاستعداد للحصار .

فوقف الحارمى ساخطاً وهو يقول :

— ولم ننتظر أيها الأمير؟ إن هذا الثعلب الكاذب لا بد أن

ينال جزاءه .

فقال أسد الدين :

— انتظر يا شهاب الدين ، إن الحديث لم يتم بل بقي منه الجزء

المر ، الجزء الذي يثيرني ويؤلمني ويحز في نفسي ، لقد أرسل

شاور بعد ذلك إلى عدونا مرّياً ملك الفرنج بيت المقدس

يستعين به ضدنا ويقول : « خرج معي أسد الدين شيركوه ليعينني على

ضرغام ، فلما وصل إلى مصر بجنده طمع فيها ، ولو أن نور الدين ملك

مصر مضافه إلى الشام لكان هذا إيذاناً بزوال ملكك فاحضر ولك
عن كل مرحلة نرحلها إلى ديار مصر ألف دينار ، وقد أتتني
الجواسيس اليوم تخبر بتحرك مري بجيشه من عسقلان في طريقه إلى
مصر ، ولهذا رأيت أن أجمعكم لتروا رأيكم .
فقال الياروقى :

— الرأى رأيك أيها الأمير ، هذا الرجل يستحق العقاب فلنركب
من الغد لمقاتلته .

فقال أسد الدين وكانت قد هدأت ثأرته بعد أن فرج عن نفسه
بهذا الحديث :

— لتتدبر الأمر في روية . . إننا سنقابل بجيشنا هذا الصغير
قوتين : قوة شاور داخل أسوار القاهرة وقوة الفرنج التي ستفد عن
طريق الحوف الشرقى . . ولهذا رأيت أن يسير صلاح الدين في قطعة
من الجيش إلى بليس لجمع الغلال والأتبان والأحطاب وماتدعو إليه
الحاجة ليكون لنا كل ذلك ذخيرة هناك ، ونبقى نحن هنا نحارب شاور
فإذا حضر الفرنج خرجنا لملاقاتهم عند بليس .

فقال صلاح الدين :

— نعم الرأى رأيك يا عمى ، وسأخرج إلى بليس من الغد إن
شاء الله . .

وصل مري بعد قليل بجيشه إلى فاقوس ، والمسافة بين عسقلان
وبينها سبع وعشرون مرحلة فأرسل إليه شاور سبعة وعشرين ألف

دينار ، وأسرع أسد الدين فسار بجيشه إلى بلبس ، وخرج شاور
فلحق بجيش الفرنج ، وبدأت الحرب بين الجيشين وأسد الدين يدافع
بجنده عن المدينة دفاع الأبطال وجيشه يتناقص كل يوم ، والذخيرة
تقل والضيق يشتد به وبقواده فقد انقطعت سبل الاتصال بينه وبين
نور الدين .

وفي ذات يوم بعد انقضاء نحو ثمانية أشهر من بدء الحرب بيننا
هو في خيمته يعرض الأمر على كبار قواده كالمعتاد ويسألهم الرأي
والمخرج من هذا المأزق إذا بالحاجب يدخل فيقول :

— سيدى القائد ، رسول من قبل الملك العادل نور الدين .

فدهش الجميع وبدا الفرح على وجوههم ، وقالوا جميعاً في
صوت واحد :

— رسول من نور الدين ؟ ! .

وقال أسد الدين :

— أدخله . . أدخله في الحال .

ودخل الرسول تبدو عليه آثار التعب واضحة ، والعقر يعلو
ملابسه ووجهه ، يحمل عمية ثقيلة وضعها أمام أسد الدين ، وقبل الأرض
محياً ، فقال أسد الدين :

— ما وراءك أيها الرسول ؟ وكيف تركت مولانا الملك العادل ؟

لعله في خير وصحة .

— إن مولاي الملك العادل متمتع بنعم الله عليه من صحة ونصر
ولله الحمد ، غير أنه في قلق مستمر على قائده العظيم أسد الدين وجنده
البواسل في مصر فقد وصلتته رسالتك منذ أشهر ، وعلم منها خبر النزاع
بينكم وبين شاور ، وعزم الفرنج على المسير إلى مصر ثم إنقطعت
أخباركم عنه فقلق أشد القلق وخاصة بعد أن علم بوصول الفرنج إلى
بليس وإشتباكم معهم في الحرب .
فقال أسد الدين :

— إذن لم تصل رسائنا الأخيرة إلى الملك العادل ؟ !

— لم تصل ياسيدي ، ولكن مولانا الملك العادل كان طول هذه
المدة يناوش الفرنج ويناضلهم في كل مكان ، وكان النصر حليفه فافتتح
بانياس ، وأغار على طبرية وقد جمع أعلام الفرنج وأمرني أن أحملها
إلى سيدي القائد لنشرها على أسوار بليس كي يفتم ذلك في أعضاء
العدو ، ويدخل الوهن على قلوبهم
فقال أسد الدين :

حفظ الله مولانا السلطان الملك العادل وكتب له النصر دائما . .

وشكرا له على ما فعل في سبيل الإسلام وسبيل جنده .

وألقى للنجاب سرّة فيها مائة دينار وقال :

— خذ هذه مكافأة لك ، واذهب فأزل عنك غبار السفر .

— الشكر لسيدي القائد .

وفي صباح الغد الباكر نشرت أعلام الفرنج على أسوار بلبيس
وأمر أسد الدين جنده وقواده بالاستعداد للقتال ، وكان يمر بينهم
متفقداً أحوالهم وهو في قلق شديد ينتظر ما سيكون لهذه الأعلام
من أثر في نفوس أعدائه ، ولما طال به الانتظار أمر حراس الأسوار
أن يرقبوا معسكر العدو في عنابة ، وإتجه إلى خيمته الخاصة ، ونادى
إبن أخيه صلاح الدين فلما حضر قال :

ترى ماذا سيكون موقف مرى وجيشه يا صلاح الدين ؟

فأجاب صلاح الدين قائلاً :

— سيصيهم الهلع والفرع دون شك ، وسيقرررون الانسحاب .

— وهذا الرجل شاور ؟

— لست أدري أى قرار سيتخذ ، ولكنكم آتمنى لو إستطعت

القبض عليه وقتله ، فإن وزيراً هذه أخلاقه لا يمكن أن تصلح البلاد
تحت حكمه .

— لقد بت أرى يا ابن أخي أنه لا بد لنا من الاستيلاء على هذا

البلد لصالح الإسلام وصالح أهله ، لقد كنت أحسب عند ما كلفني نور
الدين بهذه الغزاة أن في مصر قوة فأقدمت وأنا أخشى أشياء كثيرة :
كنت أخشى قوة الجيش المصرى فوجدته ضعيفاً لا يقوى على النضال
بعد أن أفنى ضرغام خيرة رجاله ، وكنت أخشى الخليفة ورجال القصر
حواله فقد كان في ظنى أنهم قوة لها خطرهما فإذا نبى أجد الخليفة صيباً

لا حول له ولا قوة يتحكم الوزراء في شؤونه الخاصة والعامة ، وليس له من الملك إلا الاسم فقط .

ثم سكت أسد الدين لحظات كمن يتردد في الافضاء بسر في نفسه يخشى أن يذيع ، ونظر إلى صلاح الدين نظرة طويلة قوية وقال :

— وكنت أخشى بعد ذلك أهل مصر فقد كنت أحسبهم يدينون كخلفائهم بمذهب الشيعة فلا بد أن يثوروا اذا أصاب خليفتهم أو وزيرهم مكروه ، ولكنني وجدت هذا الشعب الطيب يئن ويتألم تحت نير هؤلاء الخلفاء والوزراء الذين أهملوه في سبيل ملاذهم ولهوهم ودسائسهم ونضالهم . أتعرف من الذي نقل إلى خبر استعداد شاور لمحاربتنا ، وخبر إستنجاهه بمرى ملك بيت المقدس ؟
— إنهم الجواسيس دون شك يا عمي .

— نعم إن من ينقل الينا مثل هذه الاخبار يسمى جاسوسا .

ولكن الذي فعل هذا رجل من أهل مصر .

— رجل من أهل مصر؟! وكيف؟

وهنا دخل الحاجب يستأذن لقائد حرس الأسوار فأذن له ، ودخل فحيا القائد وقال .

— مولاي لقد ظلت عيون الحراس يقظة لكل حركة تبدو من جيش العدو فوجدنا الجنود تقف في صفوفها مستعدة للنضال ، وقذف النبال ، وأعدت المجانيق لضرب الأسوار . ولكنهم ما لبثوا أن رأوا

أعلامهم نطل من فوق أسوارنا فما ل كل إلى رفيقه واضطربت أمورهم
واختل نظامهم وأسرع بعضهم إلى خيمة مليكهم فرأيناه يسرع على
جواده بعد لحظات ليرى الأعلام بنفسه فلما رآها علت السكابة وجهه
ووجم قواده فانسحبوا جميعاً إلى خيمته .

هذا ما لاحظناه ننقله إلى سيدي القائد اتباعاً لأمره .

— أحسنت وأحسن جنودك أيها القائد ، اذهب فبلغهم رضائي
ومرهم أن يكونوا عيوناً يواظبوا على ترقب كل شاردة وواردة في معسكر
العدو طول يومنا هذا .

— سمعا وطاعة يا مولاي .

وعاد أسد الدين يستأنف حديثه مع ابن أخيه ، ومسح جبهته بيده
كمن يتذكر أين وقف به الحديث وقال :

— أين انتهى بنا الحديث يا صلاح الدين ؟

— كنت تقول يا عمي إن رجلاً من أهل مصر نقل إليك أخبار شاور

— صحيح . . . أتذكر ذلك الشيخ المصري المسن الذي قبض عليه

جنودي ذات يوم وأحضره إلى خيمتي لأنه كان يحوم حول المعسكر
ونحن نقيم خارج القاهرة .

— أجل أذكره جيداً . . . الشيخ أبو الحسن ، لقد حدثني عنه

الفقيه عيسى الهكاري وقال إنه قابله مرة في منزل صديقه القاضي الفاضل
وأثنى عليه ثناء جماً .

— أيعرفه إذن الفقيه عيسى ؟

— أجل يعرفه .

— لقد طلب ذلك الشيخ يومذاك أن يخلو بي فلما أصبحنا على انفراد أفرغ ما في جعبته من أخبار ، ونقل إلى حديث شاور وما اعتزمه من نضالنا وأنبأني بمضمون الرسائل التي أرسلها يطلب النجدة من مرى ، ولكن الأهم من هذا كله أنه حدثني كثيرا عن آلام الناس في مصر وما يحسون من ضيق يكاد يكتم أنفاسهم تحت حكم هذا الخليفة ووزرائه المتلاحقين المتناضلين .

علمت منه أن الناس في مصر عراة جياع مظلومون ، وهؤلاء الحكام يعيشون عيشة البذخ والترف والأبهة ، علمت منه أن طائفة كبيرة من أهل مصر سنيون ، ولكنهم لا يستطيعون المجاهرة بما يدينون به ل هول ما يلقى الفرد منهم إذا أصرح برأى يخالف المذهب الشيعي .

— إذن لماذا لا يثور عامة المصريين ضد حكاهم هؤلاء يا عمي ؟!

— أنتظر من الجائع أن يثور يا صلاح الدين ؟ أنتتظر من

الرجل الأعزل أن يثور ؟ أطمعهم وجندهم وأعطهم سلاحا وانظر ماذا يفعلون ، إن أهل مصر رجال أشداء فإنني كنت ألمح الفرد منهم تلوح عليه مظاهر القوة والعزة ولكنهم مغلوبون على أمرهم ، إنهم يبدلون في فلاح الأرض وزرعها مجهودا يبد مجهود الجنود في ميادين القتال ، لأن مجهودهم متصل مستمر ، ومجهد الجندي ينتهي بانتهاء المعركة .

— إن هذا حديث عجيب يا عمي، لقد أصبحت أرى أنه من الواجب علينا إنقاذ أهل مصر من هؤلاء الحكام فهم مسلمون يلقون ضيراً ، وماذا نفعل نحن الشام ؟ وماذا يفعل سلطاننا نور الدين ؟ إننا نناضل الفرنج من أجل المسلمين وبلاد المسلمين .

— أجل وبلاد المسلمين ، وهل في بلاد المسلمين خير من مصر ، لو كنت أعلم هذا كله قبل مجيئي لطلبت من نور الدين جيشاً قوياً ، ولكان لي شأن غير هذا . . . هيه . . . من يدري يا صلاح الدين ماذا تتمكنه لنا الأقدار غداً ، بل بعد لحظات ؟ ! والآن اذهب لتشرف على جند الأسوار ، وسأذهب أنا للاشراف على بقية الجند فإني أرى أن يكونوا على استعداد طول اليوم حتى نرى قرار العدو بعد هذه المفاجأة ، ولتوافق هنا بعد صلاة العصر فقد يجد جديد .

الصلح

خرج أسد الدين فر بين صفوف الجند يتفقد شؤونهم ، ويبعث
الطمأنينة في قلوبهم ، ويصدر أوامره بأعداد المجانيق ، وأن يكون
الجميع على استعداد تام ، وبيننا هو في ذلك إذ بجندى يعدو على جواده
ويقف أمامه ويقول :

— مولاي : لقد أمسكنا بشحاذ مسكين مهلهل الملابس يحوم
حول السور ويشير بعصاه للحرس ، وهو يصير على مقابلة سيدى القائد .
— شحاذ يريد مقابلتي ؟ غريب هذا . . . وليكن مصر بلد
العجائب !!

وقال أحد القواد :

احترس يا مولاي فقد تكون له نية سيئة ، وقد يكون يخفي سلاحاً
ويريد غدرآ .

فقال الجندى :

— لقد فقتشناه يا مولاي فلم نجد معه إلا عصاه التي يتوكأ عليها .
وهو رجل مسن ضعيف .
فقال أسد الدين :

— أحضره إلى خيمتي ، وسأذهب إلى هناك .
ثم نادى صلاح الدين ليتبعه إلى الخيمة ، وجلس أسد الدين في

خيمته ، ومعه صلاح الدين ، وبعد قليل دخل أحد الجنود يقود شيخاً مسناً ذا لحية بيضاء ، وعلى عينيه عصابة تخفيهما ويده عصا يتوكأ عليها ، وملابسه رثة ولكنها نظيفة ، وفي قدميه خفان عتيقان ، فقال
أسد الدين :

— تقدم يا شيخ . هل لك من حاجة فنقضها ؟

— لازلت ملاذ كل فقير ، ونصير كل ضعيف يا مولاي ،

حفظك الله ونصرك وأكرمك .

فأحس أسد الدين كأنه سمع هذا الصوت من قبل وراح يعين النظر إلى ملامح هذا الرجل ، ويبحث في ذاكرته . . . أين رأى هذا الوجه ، وأين سمع هذا الصوت ؟؟
وقال :

يخيّل إليّ أنني سمعت هذا الصوت من قبل يا شيخ ، فمن تكون ؟
فرفع الرجل العصابة عن عينيه ، واعتدل قليلاً في وقفته بعد أن كان منحنيّاً وقال :

— أجل ، لقد سبق أن تشرفت أنا بمقابلة القائد البطل أسد الدين فصاح أسد الدين دهشاً ، وقام فمد يده للرجل محيياً ، وقال :

— أبو الحسن !! أهلاً . . . أهلاً . . . تفضل فاجلس إننا ندين لك بالكثير يا صديق . . . أين كنت طول هذا الوقت ؟ ولم لم تتفضل بزيارتنا ؟؟

— شكر آ يا سيدي شكراً . . . لست أهلا لكل هذا الإكرام؟
— وما هذه الملابس يا أبا الحسن؟ صانك الله من كل ضيم .
— أنا في خير والحمد لله يا مولاي . ولكن لولا هذه الملابس
لما وصلت إلى هنا ، ثم تلفت حوله وسأل أسد الدين :

— هل هناك من يسمعنا؟

— لا يا أبا الحسن ، اطمئن فالجنود جميعاً في المصف استعداداً
للقتال ، فما ورائك؟

— لقد جئتك بالبشرى أيها القائد العظيم فقد دعر الفرنج اليوم
لما رأوا أعلامهم على أسوار بلييس ، وخافوا على أملاكهم في الشام
لأنهم اعتقدوا أن نور الدين قد سلبهم إياها فتحدثوا إلى شاور في
ضرورة الانسحاب والعودة إلى الشام ، ولا تسلم عن مبلغ هلعه
وخوفه عند ذلك فانه سألهم أن يمهلوه ثلاثة أيام ليتدبر في أمره .
— حمد الله يا أبا الحسن . لقد كنت أتوقع هذا . وماذا ترى
شاور فاعلا الآن؟

— لقد سمعت ياسيدي أنه سيعرض عليكم الصلح .

فنظر أسد الدين إلى ابن أخيه وقال :

— أ رأيت يا صلاح الدين لقد نجحت خطة سلطاننا نور الدين .
فأرأيتك الآن !

فنظر صلاح الدين إلى عمه ثم إلى أبي الحسن ، وتردد قليلا .
فقال أسد الدين :

تكلم ياصلاح الدين ولا تخف فلقد عدا أبو الحسن فرداً منا فهو
يسعى لنصرنا .

— رأيي يا عمي أن نناضل هذا الرجل بعد سفر الفرنج حتى نقتله
ونخلص البلد من ظلمه .

وهنا دخل الحاجب وقال :

— مولاي ، حضر الآن إلى المعسكر الأمير شمس الخلافة
المصرى رسولاً من قبل الوزير شاور .

فارتبك أبو الحسن قليلاً وهمس في أذن أسد الدين :

— لقد حضر يعرض شروط الصلح ياسيدي ، ولا بد لي من
الخروج من هنا الآن لئلا يراني فهو يعرفني حق المعرفة .

فسأل أسد الدين الحاجب :

— وأين هو الآن ؟

— إنه ينتظر في خيمة عند باب المعسكر ،

— إذن اصحب ضيفنا هذا إلى الخيمة المجاورة ، ومهد له سبيل

الراحة كلها ، ثم ارسل أحد الجنود ليصحب الأمير شمس الخلافة إلى هنا .

وخرج أبو الحسن في صحبة الجندي ، وبعد قليل حضر شمس

الخلافة ودخل فخياً وقال :

— سلام الله على القائد العظيم أسد الدين ، وعلى الشاب البطل

صلاح الدين .

فقال أسد الدين :

— السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تفضل فاجلس ، كيف حال شاور ؟ لعله في خير ولعله مطمئن إلى صحبة أصدقائه الفرنج ؟!
— إن شاور حمّاني السلام إلى القائد العظيم أسد الدين ، وهو يقول إن قوى المسلمين في جيشينا ناهما الوهن فمن الخير أن نضع حداً لهذا القتال .

— وهل أنا الذي بدأت القتال يا شمس الخلافة ؟

— في الحق إن لشاور بعض العذر . . ورغم .

فقاطعه أسد الدين غاضبا وقال :

— أي عذر لشاور ؟ أله العذر ألا يفي بوعدده لنور الدين ويعزر

بي ؟ أله العذر أن يستنجد بجند أعدائنا الفرنج ليحاربنا بعد أن أعناه وأغشاه وأعدناه للملكة وقضينا على عدوه . . أي عذر جئت تلمس لسيدك ؟ !

وقال صلاح الدين :

— لقد جازانا شاور جزاء سنهار يا شمس الخلافة .

فارتبك شمس الخلافة قليلا وقال :

— لقد كنت أريد أن أقول ياسيدى القائد بعض ما لم تعلمنا من

أمر شاور : لقد كان في مسلكه — رغم كل ما حدث — بعض

الخير . . إنه يعلم أن جيش الفرنج قوى وكثير العدد والعدة ، وكان

في قدرتهم التغلب على جيشكم ، ولكن شاور كان يعلم أن في نصره

الفرنج هزيمة لجندكم المسلمين ، ثم إنه كان يخشى أن يفتح الفرنج بلبيس

فيطمعوا فيها وفي البلاد بحجة أنهم فتحوها بالسيف ولهذا كان يثنى
عزمهم عن القتال دائماً . . وما من يوم كان يمضى إلا وينفذ إلى كبار
الفرنج الجملة من المال ويسألهم أن يدفعوا الملك عن الزحف والقتال ،
فهو بهذا قد أدى لجيشكم خدمة كبيرة .

فقال صلاح الدين :

— هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول .

وقال أسد الدين :

وبعد ، إننا نعلم كل ما تريد أن تقول ، ولاداعي ليكل هذه المقدمات
وهذا المن علينا ولا من ، إن صاحبك يطالب الصلح . . أليس كذلك ؟
— إنه يريد حقن دماء المسلمين من الجيشين .

فقال أسد الدين في تهكم مرير .

— حقن دماء المسلمين ؟ هيه . . ومتى كان شاور يفكر في دماء

المسلمين ؟ ، قل كلاماً غير هذا . .

— لقد سعى شاور حتى أقنع الفرنج بالرحيل ، ولكنهم اشترطوا

لرحيلهم أن يرحل جيشكم أيضاً .

— ثم ماذا ؟

— وهو يقدم للقائد أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى نفقة لجنده .

— أيحسبنا شاور أطفالاً نخدعنا الأعميه ؟ أو ممن يغريهم

بريق المال ؟

— لا يا سيدي القائد ، إن شاور لا يقصد إلى هذا ، إن جنود

المسلمين يقتلون كل يوم من جيشنا وجيشكم ، وفي هذا تقوية للفرنج فان كان القائد العظيم أسد الدين بطل الإسلام المخلص الأمين لا يقبل قول شاور فإني أتوسل إليه أن ينظر إلى صالح المسلمين وصالح الإسلام وأن يتناسى حقه على شاور في سبيل هذا الصالح .

وكأن شمس الخلافة كان يضرب على الوتر الحساس . ويحدث ناحية الضعف بل ناحية القوة في أسد الدين تخفت حدته قليلا ، وأخذ يفكر في موقفه ، وموقف جيشه في مصر ، فوجد أن جيشه لم يعد في قوة تمكنه من النضال وخشى إن هو رفض شروط الصلح أن يعدل الفرنج عن الرحيل ويهاجموه في عنف لتنتهى مهمتهم في سرعة ليعودوا إلى بلادهم ، ورأى أخيرا أن من الخير أن يقبل هذا الصلح وينسحب من مصر ، ولكن ليعود إليها أوفر سلاحا وأكثر جندا ، وأقوى عدة .

فالتفت إلى شمس الخلافة وقال :

- لصالح المسلمين قبلت الصلح لا لشاور . ولكن لي شروطا
- فإني أخشى الغدر ، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .
- مر يا مولاي .
- إني أشرت أن يسافر الفرنج أولا ثم أتبعهم أنا بجيشي .
- وهل ينفذ سيدي القائد ما يقول ؟
- فأجاب أسد الدين في سخرية لاذعة .

لست بشاور يا شمس الخلافة . . . أنا أسد الدين ، وإذا وعدت
فإني أفي ولو كلفني الوفاء جيشي ونفسي .

وفي اليوم التالي أذن أسد الدين لجنده بالراحة والنزهة أنى شاءوا
فخرجوا جماعات وانبثوا في أنحاء المنطقة المجاورة واختلطوا بجند
الفرنج يتسابقون ويتبارون ويتحدثون ، وخرج أسد الدين على
جواده مستروحاً وبيده لت من حديد ومعه بعض قواده والمسلمون
والفرنج يرمقونه بأنظارهم إعجاباً وتقديراً فتقدم إليه جندي من
الفرنج وقال :

— أيها القائد العظيم : أما تخاف هؤلاء الفرنج وهم يحيطون بك
وبجندك ولو أقدموا الآن لقبضوا عليكم .

فنظر إليه أسد الدين نظرة المعتر بشجاعته وقوته وقال :

— ليتهم يفعلون فإني والله كنت أضع السيف فيهم فلا أقتل
حتى أقتل رجلاً ، ثم يقصدهم الملك العادل نور الدين فيفني من بقي
منهم . والله لو طواعني هذا الرجل شاور لخرجت اليهم فأفنيهم جميعاً .
فذعر الفرنجي وخاف وصلب على وجهه وقال :

— والله لقد كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في
وصفكم والآن قد عذرناهم ، ونظر الجندي إلى رفاقه وقال :

— هلوا بنا . . .

فابتسم أسد الدين ونظر اليه نظرة الرجل الكبير إلى الطفل
المغلوب على أمره .

* * *

وبعد أيام خرج الفرنج مسرعين إلى بلاد الساحل، ورحل أسد
الدين بجيشه بعدهم بثلاثة أيام وقد عقد الأمل على العودة سريعاً إلى
مصر لتأديب شاور، ورفع الظلم عن كاهل أهل مصر ومملكها . أجل
وملك مصر فقد كان أسد الدين طموحاً ذا نفس عالية لا ترضى
بالدون ولا تقنع بالقليل .

عبد الرحمن يحذر

انقضى عام وبعض العام بعد خروج الجيش وشاور فرح مغتبط
فقد عادت اليه السلطة كلها كما كانت فاستبد بها وجعل كل همه تتبع كل
من علم أنه قد كان بينه وبين أسد الدين صلة أو معرفة أو صحبة، فقتل
نفرأ منهم وشرد نفرأ آخرين وأصبح أهل مصر في خوف من عيون
شاور وجنده لا يكاد واحد منهم يتحدث عن أسد الدين أو رجاله
إلا في اقتصاد وسر وكتمان .

وفي ضحى يوم بينا أبو الحسن جالس في داره بالفسطاط وأمامه
تلاميذه من صبيان المدينة يحفظون القرآن إذ دخل عليه صديقه
عبد الرحمن القوصى وقال :

— السلام عليك يا أبا الحسن :

— وعليك سلام الله ورحماته وبركاته . . . كيف حالك

يا عبد الرحمن ؟ تفضل .

وجلس عبد الرحمن وراح الرجلان يطرقان بحديثهما كل ناحية .
والحديث ذو شجون ، كل هذا وأبو الحسن منتبه لصيانه كلها خطأ
أحدهم أو تلثم رده إلى الصواب . فلما حل موعد الظهر ختم كل صبي
المقرر عليه وتقدم إلى شيخه فقبل يده وحمل لوحه وانصرف .

فلما خلا المكان بالرجلين . قال عبد الرحمن :

— جئتك اليوم محذراً يا أبا الحسن .

فضحك أبو الحسن وقال :

مخدراً !! ومن يا بني فليست من رجال الدولة حتى يكون
لى أعداء .

— لقد غدوت من رجال الدولة يا صاحبي ما بل من أخطر
رجالها . . .

— وكيف ؟

— أتذكر إذ كنا جلوساً فى سوق الوراقين منذ أسبوع تساووم
ذلك السكتي لشراء كتاب « فضائل مصر » لابن زولاق .

— أجل أذكر ذلك جيداً وأنه رفض بيعه بعشرة دنانير ، وقد
أخبرتني أنت أنك اشتريته منه بعد يومين باثني عشر ديناراً .

— ليس هذا موضوع حديثي يا أبا الحسن . . أتذكر ذلك القائد
الكردي الذى حضر ونحن جلوس فسلم على ، وتقدم لشراء بعض
السكتب ؟

— أجل أذكره . . فقد لفت نظري بلكوته الصفراء على رأسه
بغير عمامة ، وذؤابة شعره الطويل مرخاة تحتها وملابسه الكردية ،
وذلك لكثرة ما رأيت جند أسد الدين واختلطت بهم — فهذه
ملابسهم — وقد عرفت يومذاك أن هذا القائد ممن استفسدهم شاور
من رجال أسد الدين .

— هذا صحيح يا أبا الحسن وإن لهذا الرجل قصة .

— ومن من الرجال ليس له قصه يا عبد الرحمن . . هات ما عندك ؟

— هذا القائد اسمه خشترين الكردي وهو كما تقول ممن استفسد هم
شاور من رجال أسد الدين ، وقد أقطعه شطنوف . ولكن لنتركة
قليلا لأبدأ لك القصة من طرف آخر . . . أنت تعرف أنني أنسخ
الكتب منذ ذلك اليوم المشؤم الذي خرجت فيه . للأمير شمس
الخلافة ، ولهذا الأمير ولع شديد بالكتب واقتنائها وله مكتبة كبيرة
تضم كل طريف وتليد وعجيب ، وقد وجدت في هذا العمل أكبر لذة
لأنني ما هاجرت من قوص إلا طلباً للعلم ، فكنت أقضى يومي كله في
المكتبة أنسخ وأقرأ ، واطمأن الأمير إليّ وإلى عملي وأعجبه خطي
ونقلي فزاد في أجرى وحمدت الله على ذلك .

— أعرف هذا كله يا عبد الرحمن ، فماذا وراءه .

— وراءه إن للامير بنتاً صغيرة تبلغ من العمر نحو الثلاثة عشر
أو الأربعة عشر عاماً .

— وأظنها ذات جمال باهر ساحر يا عبد الرحمن .

— إنها كذلك وتمتاز أيضاً بعقل راجح وذكاء نادر ولكن

دعنا من هذا . . ففي ذات يوم .

فضحك أبو الحسن وقال ملاطفاً :

— أنا أستطيع أن أكمل لك القصة . . وفي ذات يوم رأيتها

وحدثتها فأعجبتك و . .

فاحمر وجه عبد الرحمن خجلاً وثار قائلاً :

— لا يا أبا الحسن . . لست أريد أن أقول هذا . . دعني أكمل

قصتي . . في ذات يوم جاء الأمير شمس الخلافة لينظر في بعض الكتب .
فرآني متكباً على عملي فحدثني عن رغبته في أن أتولى تفقيه ابنته هذه
في دينها بعد أن حفظت القرآن فترددت أولاً - ثم قبلت بعد إلحاح .
— اقول لك الحق يا صديقي . . أنا لا أعرف صلة بين قصتك
هذه وبين تحذيري الذي جئت من أجله .

فضحك عبد الرحمن وقال :

— ما لصبرك ينفذ بهذه السرعة يا أبا الحسن . هل أقول كما قال
صاحب موسى « أنك لن تستطيع معي صبراً » . . لا بد من هذه
المقدمات لأصل إلى ما أريد قوله الآن
— قل ياسيدي :

— وفي قصر الخليفة جارية رائعة الجمال ، بارعة في الغناء والعزف .
على العود ، إسمها ريحانة وهي تحضر دائماً إلى قصر الأمير لتعلم بنته
الغناء والموسيقى . . وهذه الجارية أيضاً تحب الكتب وتقرأها فكانت
إذا حضرت ورأتني أدرس لفاطمة بنت الأمير جلست عن قرب
تستمع إلى درسي حتى ينتهي . فتصحبها إلى غرفة أخرى حيث تبدأ
درسها وإن لها صوتاً حلواً كان يصل إلي وأنا أنسخ أو أقرأ فيشغلني
قليلاً عن عملي وإن كان يرفه عني ويخفف بعض ما أحسن من ضيق .
فغضب أبو الحسن وصاح في رفيقه :

— والله لو كنت أيوباً لنفد صبري

فضحك عبد الرحمن وقال :

— انتهينا يا أبا الحسن . . وصلنا إلى بيت القصيد :

وهذا القائد الكردي خشنين كما رأيت . شغف بالكتب ،
يحبها ويقضى معها وقتلا طويلا ، وكان لصداقته الأكيذة مع الأمير
شمس الخلاقة . يتردد على مكتبته فيختار بعض الكتب أو ينتجى
ناحية فيقرأ ، وفي هذا المكان رأى ريحانة وسمع صوتها ، وأغلب
ظنى أنها أعجبتة وأنه أحبها فقد كثر حضوره إلى المكتبة عن ذى
قبل كما طالت مدة إقامته بها .

فقال أبو الحسن :

— ومالى أنا ياسيدى ولهذه الجارية ومن يحبها . قم بنا نصلى
الظهر ثم نتناول غداءنا فقد بلغ منى الجوع مبلغه
— انتظر قليلا يا أبا الحسن . .

ومنذ يومين جلس إلى هذا القائد يتجاذب وإيأى اطراف الحديث
عن الكتب قديمها وحديثها ثم سألتنى :

— من هذا الشيخ المسن الذى كان يجلس معك عند الوراق

ياشيخ عبد الرحمن ؟

فعجبت وقلت :

— إنه رجل يدعى أبو الحسن ، وهو رجل طيب كريم النفس
والقلب .

فردته كما :

— يبدو عليه هذا . . ثم استأذن وانصرف .

وبالأمس عند الأصيل جاءني رسول من قصر الخليفة يطلبني
لمقابلة القاضي الفاضل في ديوان الإنشاء ، فذهبت وأنا خائف أن
يكون في الأمر شيء فأنت تعلم كثرة الوشائيات والدسائس هذه
الأيام وكيف تؤدي بالأبرياء

— أجل أعرف يا عبد الرحمن ، وتأكد أن لا بد لهذا الظلم
من آخر . ولماذا كان يريدك القاضي الفاضل ؟

— كان في حضرته بعض الكتاب فمظاهر أمامهم أنه يكلفني
بنسخ ديوان شعر كان بيده لاستاذه ابن قادوس الدمياطي رحمه الله ،
ورأيته يدس في الكتاب ورقة صغيرة وينظر إلى فلها خرجت تصفحت
الديوان وقرأت الورقة فاذا بها : حذر صديقك أبا الحسن فان خشتين
قد وشى به لدى الوزير شاور ، وأخبر أنه رآه أكثر من مرة في معسكر
أسد الدين . وقد جئتك اليوم محذراً

فربت أبو الحسن على كتف جليسه وضحك طويلاً ولحيته تهتز
مع ضحكاته وقال :

— لقد « حاونت » روجي يا عبد الرحمن . . وكنت أظن الأمر
أخطر من هذا . . أتحدرنى من شاور !!

— أجل انه لرجل غادر وإذا صح لديه ما بلغه فسيأخذك
بالعقاب شديد.

— وماذا تراه يفعل ؟

- أنه لا يعرف غير القتل والسجن والتشريد :
- وماذا بقي لي في الحياة يا عبد الرحمن أحرص عليه ، لقد بلونا الأيام حلوها ومرها يا بني فلنشرب الكأس حتى الثالثة . .
- ولكن الله سبحانه وتعالى قال « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فما دمت تعلم مصدر الخطر فيجب أن تتباعد عنه
- وبماذا تشير يا عبد الرحمن ؟
- الرأي عندي أن تختفي في منزل أحد أصدقائك حتى تنجلى الغمة
- لا يا صديقي فأنا لا أخشى شاور ، والآن دعنا من هذا
- هيا بنا نصلي الظهر لئلا يفوتنا . ثم نأكل لقمة ، ألم تشعر بالجوع يا أخي .

وبدأ أبو الحسن الأذان في صوت خفيض ولم يكده ينتهي منه ويبدأ الصلاة وخلفه عبد الرحمن مؤتما به حتى سمعت جلبة وقعقة سلاح ثم دق قوى على الباب فلما لم يجد الطارقون مجيبا حركوا الباب فانفتح في سهولة ودخلوا فاذا بهم بعض جند شاور . وراعهم أن وجدوا المكان قفرا وبه حصير وقف عليها الشيخ الذي جاءوا للقبض عليه يصلي وخلفه شاب من ذوى العأمم وكان الشيخ يقرأ في صوت يتهدج من فعل السنين وضعف الشيخوخة قوله تعالى « إن في إختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض آيات لقوم يتقون . إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين

آمنوا و عملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الأنهار
في جنات النعيم . دعويهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر
دعواهم أن الحمد لله رب العالمين . ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم
بالخير لقضى اليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم
يعمّهون . وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما
كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره كذلك زين للسرفين
ما كانوا يعملون ، ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم
رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم
جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون . . .
— الله أكبر

قالها الشيخ في صوت قوى فيه كل معاني الإيمان بالله وكأنه كان
يقول للقوم وهو لا يحس بهم ، لتأت جنود شاور كلهم . وليأت
شاور نفسه . . . فهل يستطيع أن يقربني وأنا بين يدي الله القوى
المتعال ، المعز المذل الجبار . . . إذهبوا لو كان في قلوبكم أثارة من
إيمان بالله فقولوا لسيدكم إن أبا الحسن بين يدي ربه . . .

ولكن الجند كانوا في عجب مما وجدوا ينظر الواحد إلى الآخر
ولا يتكلمون ، ويستمعون إلى ذلك الصوت الضعيف الجميل رغم
ضعفه وهو يتلو آي الله وحكمه نخشعت قلوبهم لحظات ووقفوا
ينتظرون حتى ركع المصلين وسجدا ثم وقفوا ، وقرأ أبو الحسن الفاتحة

بصوت أكثر إرتفاعا ثم بدأ يتلو بقية صورة يونس من حيث وقف وأطالى القراءة هذه المرة وكأنه يقول للجنود . . . استمعوا للكلام الله خير لكم من أوامر شاور وانتظروا ولو طال بكم الانتظار حتى الغد حتى أنتهى من مقابلة ربي فهو ربي وربكم ورب وزيركم شاور، إنه أعلى يدا ، وأعز مقاما ؟

— « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون . إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيدت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ، والله يدعوا الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم : الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . . . »

الله أكبر

وركع أبو الحسن وركع عبد الرحمن وانتهيا من الصلاة

فالتفت أحد الجند وقال :

— يا أبا الحسن هل لك أن تصحبنا فإن الوزير يطلبك

فلبس خفيه ، وقال :

— هيا ياسادة .

ولسكن عبد الرحمن التفت لواحد من الجند وقال :

— لا حول ولا قوة إلا بالله . . . هلا انتظرتم قليلا فإن الرجل

لم يطعم بعد

فقال أبو الحسن :

— لا يا عبد الرحمن لقد اغتذيت وشبعت . إنني أحس بفيض

من السرور يملاً على جوانحي ونفسي فهذه خير صلاة صليتها في حياتي ..

ألست تعلم أن التقوى هي خير زاد للمؤمن . . والله أنى لأحس

وكأنني أكلت خروفا الآن . .

وخرج أبو الحسن فأقفل داره وأعطى مفتاحها لعبد الرحمن وقال :

— اجتفظ به يا صديقي معك فإن كان في العمر بقية وعدت أخذته

منك وإن كان من حظي أن ألقى الله سريعا فوزع ما في الدار

على الفقراء . .

فتألم عبد الرحمن وبكى ومد يده لصديقه محبياً ، ووقف يرمقه

بنظره مودعاً وهو يسير بين الجند فلما توارى عن ناظره أحس كأن

قلبه قد إنفطر وأحس في عقله نشاطاً قوياً كأنه صحا من غفوة طويلة

فرأى أن يقصد في الحال إلى القاضي الفاضل فيروى له ما حدث لعله

يجد لصديقه مخرجا أو لعله يشفع له عند شاور

بين شاور وأبي الحسن .

كان شاور وحيداً في غرفته بدار الوزارة يفكر تائراً كيف
يجرأ هذا الرجل الصعلوك . . معلم الصبيان — على الاتصال بأسد
الدين . . . ويسأل نفسه . . . ترى لماذا كان يذهب هذا الرجل إلى
معسكر أسد الدين ، ويقابله في خيمته الخاصة على انفراد أكثر
من مرة ؟

لا بد أنه كان ينقل إليه أخبارنا . . ونظر من النافذة المطلة على
القصرين والميدان بينهما . . . ترى ما الذي أخرج الجند — أيكون
الرجل قد فر فهم يبحثون عنه .

وهكذا كان شاور يضطرب بين أفكاره وقد أقلقه الانتظار
وضايقه . وبعد مدة رأى الجند يتقدمون نحو الدار وبينهم شيخ
طويل وقور انحنت هامته قليلاً يمشى في تودة وهوادة واطمئنان
يجلس على أريكة في صدر الغرفة ينتظر قدومهم . وبعد لحظات دخل
أبو الحسن يجرسه الجند الذين قبلوا الأرض بين يدي الوزير
وانصرفوا .

وقال أبو الحسن :

— السلام عليك أيها الوزير .

فقال شاور محتدأ :

— لا سلم الله عليك ، أيها الرجل الخائن .

فقال أبو الحسن في هدوئه المعتاد .

— ليست هذه تحية الاسلام أيها الوزير — قال الله سبحانه وتعالى

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » .

— لست أهلاً للتحية — أتخوننا وتريد لنا السلام . قل لي

أصحيح أنك كنت تزور أسد الدين في معسكره .

— صحيح .

— وتعترف أيضاً . والله لأذيقنك من العذاب ألواناً . ولماذا

كنت تذهب إلى هناك ؟

— كان لي أصدقاء كنت أذهب لزيارتهم .

— ما شاء الله . . . رجل عظيم . . . صعلوك . معلم صيدان ، له

أصدقاء في جند أسد الدين . . . بل أسد الدين نفسه صديقه يقابله في

خيمته على انفراد .

فرفع أبو الحسن رأسه شامخاً بأنفه وقال في ازدراء :

— أما وقد وصل بنا الحديث إلى هذا الحد فاسمع يا شاور . . .

أنت الذي تقدر الناس حق قدرهم . . . إن أكرمكم عند الله

أتقاكم . . . هذا ميزان الرجال عند الله سبحانه وتعالى . فقل لي من

تكون إذن .

فاحتم شاور غيظاً وتقدم نحو الشيخ أبي الحسن مهدداً وعيناه

تنطقان بالشر .

— لقد زدت عن حدك يا شيخ النحس . . . والله لأمرن بقتلك
ولتكونن جيفة تنهشها الكلاب .

فضحك أبو الحسن وقال :

— لست أبالي إن أتى الموت كيف أكون ولا أين تلقى رفاقي .

— لست تبالي . . . ستري — لأذيقنكم العذاب ألواناً حتى

تعرف من شاور .

— أنا أعرفك جيداً يا شاور ، وكل مصرى يعرفك . . . وكم

من برىء ذاق طعم ذلك ، وكم من مسكين قضيت عليه بظلمك وغدرك

أنت هنا في سياج من القصور والجند والشيعه الذين لا يردون اليك

ولا يصدرون عنك إلا وألسنتهم تلهج بآيات حمدك ومدحك . . . تخط

هذا السياج وأزح عنك هذه الملابس التي تميزك ، وابعد عنك هذا

الجند الذي يرهب ويرعب وامش في الأسواق وتحدث إلى الناس

واستمع اليهم تعرف من أنت . . . إن أهل مصر يثنون من ظلمك

وظلم أهلك وجندك . إنهم ينزلون عليك السخط ليلهم ونهارهم لأنك

استنجدت بالفرنجة أعداء دينهم وجرأتهم على بلادهم . هؤلاء أهل

مصر وهذا أنت يا شاور .

وهكذا أحس أبو الحسن في نفسه قوة غريبة تناسب في عروقه

فاندفع في مهاجمة شاور بهذا الكلام الجريء فكان يهدر كالجمل ويلقى

بالجملة بعد الجملة وكأنها السهام تنفذ إلى صدر شاور حتى بهت الرجل

وفغر فاه ، ونظر إلى الشيخ مشدوهاً وكتباته تتراحم في رأسه وترسم

له صورة من سخط العامة المكبوت ، فلما رآه أبو الحسن صامتاً لا يريم راح يكلم حديثه أكثر عنفاً واستهتاراً من قبل .

— ثم تلومني لاتصالى بأسد الدين . . . وما جريرة أسد الدين ؟ هل هو كافر من الكفار ؟ هل هو عدو من الأعداء . ؟ . أليس هو الذى سار بجيشه وحارب وضحى بالكثير ليعيدك إلى دست الوزارة فلما عدت إليها غدرت به واستنجدت بأعدائه وأعداء بلادك ودينك ضده . ؟ !

وهنا غلا الدم فى عروق شاور وأحس كأن هذا الشيخ الضعيف يكشف عنه ملابسه قطعة قطعة ، ويظهر سوءاته للناس أجمعين . . . فصرخ فيه صرخة الأسد :

— اسكت . . . اسكت يا أشأم الشيوخ وألغهم . . . لقد تجرأت على مقامى ومقام الوزارة .
وهم بإشهار سيفه وقال :

— والله لا يسكتك إلا هذا السيف ، يطير بهذه الرأس إلى الجحيم . . . إلى سقر . . . إلى أسوأ المواطن وشر الأماكن .
وهنا دخل الحاجب يستأذن لكاتب الانشاء القاضى الفاضل ، فأذن له .

ودخل القاضى الفاضل ويده بعض الأوراق فرأى ما أفزعه . . . رأى شاور كالأسد الثائر يرغى ويزبد ، ويشتم ويلعن ، وقد أشهر سيفه فى يده ، وفى آخر الغرفة عند الباب الشيخ أبو الحسن واقف فى وقاره

المعهود ، وهدوئه المؤلف وعلى فمه ابتسامة فاترة تنطق بكل معاني الاستخفاف والازدراء والسخرية فعلم أن الأمر جد خطير وقال :
— سيدى الوزير لعلى جئت فى وقت غير مناسب — أو لعلى
جئت فى الوقت المناسب . . . هل يتكرم مولاي الوزير فيخبرنى عن
سر غضبه .

فقال شاور وصدرة لا يزال يعلو ويهبط من أثر الغيظ .
— إن هذا الشيخ اللئيم بلغت منه الوقاحة أن يهاجمنى بكلمات
بذيئة فيتهمنى بالظلم والغدر .
فقال القاضى الفاضل :

— هدىء من نأثرتك أيها الوزير . . . إن هذا شيخ كبير
وللكبار دالة على الصغار فهم يعتبرونهم كأبنائهم . وقد تكور
للسان زلات .

— إنك لم تسمع ما قاله يا عبد الرحيم . . . أننى أفكر فى أشر
الوسائل لتعذيبه ، فالقتل عقاب هين .
فقال أبو الحسن :

— هل كلمات الحق تغضبك إلى هذا الحد أيها الوزير . . . أنا لم
أعود لسانى غير الصدق . هل كان جميلا لديك أن أكيل لك المديح
أصنافاً وأواناً لأستدر عطفك وأنال عفوك . . . لو كانت لى بغيه فى
الحياة لفعلت ، غير أنى شيخ عجوز خربت الحياة ، وذقت عندها وعلقمها
وطعمت خيرها وشرها ، فوجدت أن الخير لا يزور إلا للمامأ ، وأن

الشر إذا زار لا يترك المرء إلا حطاماً ، فإن كنت تريد قتلي فقد
انقضت حياتي ، ولم يبق من العمر قدر ما سلف ولست أحرص على ما بقى .

فنظر القاضي الفاضل إلى أبي الحسن كمن يقول له صه ، وقال لشاور

— أيها الوزير العظيم .. أنت أهل لكل مكرمة ، وأبو الحسن

لا يريد كما يقول إلا النصح ، وقد تكون الألفاظ خائفة ، فهو لم يعتد

معاشرة الملوك والوزراء والتحدث إليهم ، فدع هذا الأمر الآن حتى

تخف حدة غضبك ، فإني جئت في أمر هام .

— وما هو يا عبد الرحيم ؟

— أتى رسول من ملك الفرنج ، يحمل رسالة محتومة هذه هي .

وقدم ورقة ملفوفة إلى الوزير .

فقال شاور :

— رسالة من ملك الفرنج — ولم لم تخبرني منذ حضرت .

ونادى الحاجب فقال له :

— خذ هذا الرجل وألق به في السجن حتى أطلبه .

نفرج أبو الحسن وهو يقول :

« رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » .

ونزع شاور الختم وبدأ يقرأ الرسالة في لهفة وسرعان ما بدت

علامات الغضب على وجهه وألقى الرسالة إلى جانبه وقال :

— أرأيت . أرأيت يا عبد الرحيم ... ها هو أسد الدين قد أعد

جيشاً جديداً وخرج من دمشق ، وسيأتي عن قريب لغزو مصر ومقابلتنا

في حضرة الخليفة

نسى شاور أباً الحسن منذ قرأ خطاب ملك الفرنجة ، ونسى كل شيء إلا أسد الدين فقد غدا شبهاً مخيفاً مفزعاً يبدو له في نومه ويقظته لا يفكر إلا فيه وفي جيشه الذي خرج من الشام ليزيحه عن دست الوزارة . عن مجد السلطان ، وعن الملك الذي ناضل من أجله رجالاً وجيوشاً . . الذي كافح في سبيله رزيق بن الصالح ، وضرغاماً ، وأسد الدين نفسه ، وقد ظن أن أسد الدين قد قنع من الغنيمة بالإياب ، فلم يعد يفكر في مصر ، ولكن هذا الخطاب جاء مكذباً لظنونه ، مخيباً لآماله ، فراح يفكر في سبيل ينجيه من هذا المأزق . إن جيشه في مصر ضعيف لا يصمد أمام أبطال أسد الدين ، إنه يذكر الآن وقد وقف أسد الدين إلى جانبه عند بلبيس ينظر إلى جند ضرغام المحتشد في كثرة وأسد الدين يعاتبه بقوله :

« لقد أرهقتنا يا شاور ، وغررت بنا ، وقلت إنه ليس في مصر عساكر جثتنا في هذه الشرذمة القليلة . »

فقال له وهو الخبير بهؤلاء الجند

« لا يهولنك ما تشاهد فهؤلاء يجمعهم الطبل ، وتفرقهم العصا . »

ولقد شاهد أسد الدين بنفسه صدق هذا القول ، ولهذا طمع في

مصر وأتى إليها ثانية .

تذكر شاور هذا كله فرأى أن لا بد له من التفكير في طريقة

أخرى غير الاعتماد على جنده . . . فكر في أن يسعى لصداقة أسد الدين ، ويرسل إليه مالا ، ولكنه رأى بثاقب فكره أن أسد الدين لم ينس له غدره وحشته بوعده ، وهو إن كان قد قبل الصلح منذ عامين وانسحب من مصر فليس هذا إلا ليعود إليها أكثر استعداداً فلا يمكن إذن أن يقنع بما سيعرض عليه . . ليس أمامه إذن إلا الفرنج فهم حتى الآن أصدقاؤه ، وإن أتوا ونصروه فلا يمكن أن يفكروا في البقاء في مصر لأنهم يخافون على بلادهم من نور الدين . ولهذا أرسل إلى مري يشكره على خطابه ، ويطلب منه النجدة ، ويعدده بدفع المال ثمناً لمساعدته .

وفرح مري بهذا الطلب — فقد كانت هذه بغيته — بل كان هذا عزمه وإن لم يطلبه شاور لأنه كان يخشى دائماً أن تتغلب جند نور الدين على مصر فتكون النتيجة طرد الفرنج من الشام ، وسار بجيشه حتى وصل إلى الفسطاط ، وانضم إلى جيش شاور ، أما أسد الدين فقد خرج من الشام في نحو ألف جندي ، وعبر صحراء سيناء إلى صحراء مصر الشرقية حتى وصل إلى أظفيح ، وهناك عبر بجنده إلى الشاطئ الغربي واتجه بهم شمالاً حتى وصل إلى الجيزة ، وعسكر هناك والتيل يفصل بين معسكره وبين معسكر شاور وحلفائه .

ورغب مري هذه المرة أن يكون للتحالف بينه وبين مصر صبغة رسمية خوفاً من غدر شاور ، فأصر على أن تعقد معاهدة بينه وبين المصريين يوقعها ويحلف عليها الخليفة العاضد نفسه ، ولهذا اختير

قائدان من كبار قواده وصحبهما الوزير شاور بنفسه إلى القصر الكبير
وسار الرسولان في ممرات كثيرة خفية ، واجتازا أبواباً عديدة ،
والحراس من أقوياء السودان يحيونهما حتى وصلا بهواً متسعاً غير
مستقوف وحوله أقيية مقامة على عمد من الرخام ، ثم تقدما إل مكان
ذى سقف مزخرف مرصع بالذهب مزين بأبداع الألوان وكانت
تخطف بأبصارهم آيات الجمال الفنى المنبثة في كل مكان من القصر إذ كانا
يمران على تماثيل رائعة للحيوانات المختلفة ، ونافورات منمقة تطرد
الماء رذاذاً ليعود سيرته الأولى ، وحوها الطيور الجميلة الريش
والأصوات ، والأرض قد صنعت من قطع الفسيفساء الصغيرة وقد
اتخذت أشكالاً ورسوماً هندسية فائقة الحسن رائعة تسر الناظرين ،
وأخيراً انتهى بهما السير إلى غرفة العرش فسمعا الحرس يعلنون
قدومهما في صوت وجلبة قويتين ، ثم تقدم الوزير وخلع سيفه ، وقبل
الأرض ثلاث مرات فأسفرت الستائر فجأة وهي تلعب بما يزينها من
ذهب ولؤلؤ عن الخليفة في ملابسه الزاهية الأخاذة ، وهو قى في
الرابعة عشرة من عمره أسمر اللون فتقدم شاور ، ووصف في صوت
منخفض ما وصلت إليه البلاد من ضعف ، وأشاد بذكر صديقه ملك
بيت المقدس العظيم ، وطلب من الخليفة أن يوافق على المعاهدة بينه
وبين صديقه على أن يعطيه مائة ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة ثمناً
لصداقتهم ومساعدتهم ، ومد زعيم الرسولين يده للخليفة دليلاً على صدق
عهده ، فتردد الخليفة ثم مد يده بعد قليل يغطيها قفاز ، فقال الرسول :

— « مولاي إن الحق لا غطاء له . وإن كل شيء مكشوف في عهود الأمراء » .

فابتسم الخليفة ابتسامة الغاضب وخلع قفازه ومد يده إلى الرسول ، وحلف اليمين أن ينفذ المعاهدة في صدق وإخلاص .

* * *

وعاد شاور إلى معسكره ومعسكر الفرنجة ، وهو يفرك يديه من الفرح — الخليفة في يده ، ومصر تحت سلطانه بقرة حلوب تدر عليه المال الذي يساعده على بسط سلطانه ، والتغلب على عدوه ، والفرنجة تحت أمره .. فليات إذن أسد الدين فلن تكون له الغلبة ، وبينما هو يفكر في هذا وقد ملك عليه الغرور نفسه وعقله . إذ بأحد الجند يستأذن لرسول من قبل أسد الدين جاء يحمل رسالة لشاور ، فضحك شاور وقال لصديقه مرى ..

— لقد أحسن الرجل بقوتنا دون شك فجاء يطلب صلحا ، ولما نلتقى ، هات الرسول يا جندي ..

ودخل الرسول فحى ، وقدم الرسالة فأخذها شاور وبدأ يقرأ بصوت منخفض أولا ، ثم رفع صوته ليسمع جلسائه من قواده وقواد الفرنج .

« وأنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه أنني لا أقيم ببلاد مصر ، ولا أعود إليها أبداً ولا أمكن أحداً من التعرض إليها ، ومن عارضك فيها كنت معك إلماً

عليه ، وما أوّمل منك إلا نصر الاسلام فقط ، وقد حصل العدو بهذه البلاد ، والنجدة عنه بعيدة ، وخلصه عسر ، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت — عليه ، وننتهز هذه الفرصة التي قد أمكنت ، والغنيمة التي قد كتبت فنستأصل شأفته ونحمد ثأرتة وما أظن أنه يعود للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً .

وما أن انتهى من تلاوة الرسالة حتى رماها بعنف إلى الأرض والتفت إلى مري وقواده وقال :

— ألم أقل لكم ، لقد أحس أسد الدين بضعفه ، والله لنديقنه الهزيمة . ولنشتت جيشه .

ثم التفت إلى الرسول وقال :

— إن سيدك لا يدرى « ما هؤلاء الفرنج هؤلاء الفرنج » أما ردى على الرسالة فهو قتلك أولاً ، وما سيراه أسد الدين في الميدان ثانياً . ونادى واحداً من جنده فجذب الرسول من يديه ، وهو يستغيث ، ولا سميع .

نضال

أقام أسد الدين بجيشه في الجيزة مدة يلتمس أن تواتيه الظروف ليعبر إلى البر الشرقي لمهاجمة القسطنطينية والقاهرة، وانضم جيش الفرنج إلى جيش شاور فغدا الجيشان قوه عظيمة لا قبل لأسد الدين بها، وحفر الخنادق حول العاصمتين وحصنت الأسوار وأقيمت الستائر والمجانيق ووسائل الدفاع المختلفة.

وأدرك أسد الدين ما يعترضه من صعوبات، وأعوزه المال يصرف منه مرتبات الجند، وكانت المسافة بينه وبين نور الدين في الشام بعيدة، فجمع قواده ليستشيرهم ويسألهم النصيحة، وانتهى به وبهم الرأي أن يرسل ابن أخيه صلاح الدين بجزء من الجيش إلى الإسكندرية وأوصاه أن يستميل عرب البحيرة ليمدوه بالمؤن، وأن يذهب أسد الدين ببقية الجيش إلى الصعيد يرتاد بلاده ويجمع خراجه والمؤنة لجيشه.

انتهى المسير بأسد الدين وجيشه إلى قوص عاصمة الصعيد فاتخذها مقراً، وأستطاع أثناء سيره وإقامته أن يسترضى الأهليين، فانضم إلى جيشه عدد كبير من أهالي الصعيد، ومن أعراب الصحراء، وجمعت له المؤن السكثيرة وجيبت له الأموال الوفيرة.

أما مرى فقد أتى هذه المرة وفي نيته الاستيلاء نهائياً على مصر،

ولهذا أتمهن فرصة تحالفه مع شاور وبث رجاله وعيونه في الفسطاط
وفي أنحاء الصعيد يجوبون الأسواق والقرى يرسمون معالمها ويصورون
مداخلها ومخارجها ومساكنها، ويكتبون أسماء القرى جميعاً، ومبلغ
خراج كل منها. ثم اجتمع بشاور ليتفقا على الخطة التي يجب اتباعها
للقضاء على أسد الدين وجيشه، فاتفقا على أن يترك جيش الصعيد
قليلاً ويتجه إلى الاسكندرية لمحاصرتها فإذا انتهيا من القضاء على قوة
صلاح الدين كان من اليسير عليهما أن يجهزا على جيش أسد الدين.

وقضى صلاح الدين ثلاثة شهور في الاسكندرية وهو محاصر بها،

تحاصره قوى شاور ومرى في البر وسفن الفرنج في البحر، وقاسى
الرجل في الدفاع عنها، وقدم له القاضي الرشيد بن الزبير متولى ديوانها
كل مساعدة ممكنة، وجاد أهل الاسكندرية بكل غال وعزيز لديهم،
ودافعوا معه عن مدينتهم دفاع الأبطال وهم صامدون لا تلين لهم قناة،
ولا تضعف لهم شوكة ولكنه أيقن في النهاية أن ليس في استطاعته رغم
هذه المساعدات أن يتغلب على هذه القوى جميعاً فأرسل يستنجد بعمه
في الصعيد، وأدرك أسد الدين حرج الموقف فأسرع بالعودة حتى
وصل إلى القاهرة، وبدأ يحاصرها.

وكان الوقت قد طال بالفرنج وهم يحاصرون الاسكندرية دون
طائل، فبدأوا يتدمرون، ووصلتهم أخبار وصول أسد الدين إلى
القاهرة، وحصاره لها فخافوا أن يستولى عليها ثم يأتهم من الجنوب

فيصبحون في مأزق حرج تحصرهم قوة صلاح الدين من الشمال وقوة
أسد الدين من الجنوب ، فرغبوا إلى شاور أن يضع حداً للحرب ،
وأن يعقد صلحاً مع أسد الدين ، ولكن شاور كان يرى أن الفرصة
مواتية ، وأن أسد الدين خطر عليه وعلى حياته فلا بد أن ينزل به
وبجيشه هزيمة نكراء تودى به أو تردعه فلا يعود يفكر في مصر ،
فطل يماطل الفرنج ويراوغهم ويمدحهم بالمال كسباً للوقت ، ولكن المملوك
كان قد بلغ بهم منتهاه ، كما كان الخوف على بلادهم من نور الدين يملك
عليهم أفئدتهم ويقض مضاجعهم فلا يحسون طعم الراحة في إقامتهم في
مصر فاضطر شاور أن يذعن ، وسارت الرسل بين المعسكرين تعرض
شروط الصلح وتتناولها بالتعديل والتبديل حتى اتفق الفريقان أن
يرحلا عن مصر على أن يقدم شاور لأسد الدين جميع ما غرمه في هذه
الحملة وثلاثين ألف دينار أخرى وأن يقدم ملك الفرنج لصلاح الدين
السفن لتحمل الضعفاء من جنده عبر البحر إلى الشام .

أما الفرنج فتركوا حامية منهم في القاهرة وحرساً على أبوابها وقبل
شاور أن يدفع لهم جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار .

رلم ينس أسد الدين صديقه أبا الحسن فعلق تنفيذ شروط الصلح
وخروجه من مصر على الافراج عنه ، فلما أطلق سراحه وأرسل اليه
رحب به وطيب خاطره ، وعرض عليه أن يصحبه إلى الشام فوافق .

وبهذا خرج الجيشان مرة أخرى من مصر وفي نفس قائديهما أمور كثيرة تجول وتصول - أما ملك الفرنج فقد زاد علما بمصر بما آتاه به رجاله الذين بشهم في أنحاء البلاد وأطرافها من معلومات جعلته يفكر في مصر ويطيل التفكير فهو لم يخرج اليوم إلا ليخرج أسد الدين معه ثم يعود إلى مصر وهي خالية من أية قوة تعارضه ، ولهذا أبقى حاميته وحرسه بالقاهرة لتمده بالأخبار ولتمهد له سبيل العودة القريبة .

أما أسد الدين فلم يكن يتوقع أن يسبقه الفرنج إلى مصر وأن يلتقي منهم هذه المقاومة لأنه كتم خبر حملته كتماناً شديداً ولهذا سار إلى مصر في عدد قليل - في أثنى جندي - ولقد لقي هذه المرة من أعدائه مقاومة عنيفة غير أنه لقي من عطف المصريين ومعونتهم في الصعيد والاسكندرية ما أفعم نفسه سروراً ، وما زاده أملاً في الاستلاء على مصر .

لقد تنقل في المرة السالفة بين الفسطاط والخوف الشرقى ولكنه ذرع مصر في هذه المرة وجابها جنوباً وشمالاً ورأى من جمالها وخيراتها ما لم ير من قبل وأحس ما يعانیه المصريون أكثر مما أحس نخرج وهو أشد إيماناً بوجود فتحها وإزاحة شاور عن ملكها فإنه لا يمكن أن يغفر له الاستعانة بالفرنج ضده ولا يمكن أن يغفر له قتله رسوله ورفضه ما عرض عليه من تعاون ضد أعداء الاسلام ، ولكنه لم

يتمكن من إقناع نور الدين بضرورة المسير إلى مصر هذه المرة إلا
بعد رأى وتعب — ترى أيرضى مرة أخرى أن يزوده بجيش جديد
بعد أن عاد إليه في المرتين وقد ضحى مالا ورجالا ومصر كما هي لشاور
يعبث فيها فسادا .

كان أسد الدين يفكر في هذا كله وهو على جواده يتقدم جيشه
العائد إلى الشام ولكنه آمن والايمان لا يعرف المستحيل ... سيسعى
جهده وعلى الله التوفيق .

مرى يعود

اتخذ أسد الدين أبا الحسن جليسا له وسميرا فكان يصحبه معه كلما انتقل من مكان إلى مكان وكان يخلو اليه كلما خلا بنفسه بعد غزاة أو نضال ضد الفرنج وكان يرتاح دائما إلى وجوده ويأنس إلى حديثه وأخباره ، وكان أبو الحسن يتهز كل فرصة فيسهب في وصف مصر وغناها وما يعانیه أهلها من ظلم شاور وعسفه ويحرض أسد الدين على المسير نالته لملكها ، وإنقاذها وإنقاذ أهلها ، وأسد الدين يزداد كل يوم اقتناعا بما يقول أبو الحسن فيخاؤ بنور الدين ويعيد عليه الرجاء مرات ومرات أن يمده بجيش ثالث ويعده ألا يعود هذه المرة إلا بعد فتحها ، ونور الدين لا يقتنع بقول أسد الدين ويحاول أن يثنى عزمه عن التفكير فيها فيهبه حمص وأعمالها زيادة عما تحت يده من « إقطاعات » وشاور قد بث العيون في الشام تنقل إليه أخبار أسد الدين وأفكاره وكان يرسل إلى نور الدين الهدايا والرسائل يعده بمال يدفعه مسانحة حتى لا يوافق أسد الدين على رغبته

أما ملك الفرنج فكان لا يثني عن التفكير في مصر فأخذ يزيد في جيشه ووعده ، والرسائل ترد اليه تباعا من جنده في مصر تحرضه على العودة فجمع في صفر سنة ٥٦٤ قواده وأمراء جيشه وكبار رجال الاستبارة ليستشيرهم في الرأى فاختلفوا بين محبذ ومعارض ورأى

أن يعرض عليهم مزايا المشروع ومضاره ويبين لهم ما قد يعترض
سبيلهم من عقبات ليتأكد من اقتناعهم بفكرته وولايتهم له إذا عمل
على تنفيذها ، فقال :

« أيها الأمراء — الرأى عندى بعد أن سمعت أقوالكم أن لا تقصد
مصر فهي طعمة لنا وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين ،
وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحها
لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها
لنور الدين ولئن أخذها نور الدين وصار له فيها مثل أسد الدين فهو
هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام »

وما كاد ينتهي من حديثه حتى علت أصوات القواد والأمراء
تعارضه في شدة وقال كبير الاستتارية :

— أيها الملك : إننا لانعيا بمن في مصر من جنود ، وسيكون لنا النصر
عليهم ، أما ما يرد اليك من مال مصر فهو قليل من كثير ولأن تحوز
الكثير خير من أن تحوز القليل ، وإن أنت لم تسر لملك مصر ، فوالله
لنسيرن نحن إليها قبل أن يقصدها أسد الدين مرة أخرى ،
وأخذ كل أمير يتكلم بدوره فيؤيد هذا الرأى في حماسة وقوة
ففرح مرى وقال :

— والله لأتم الرجال ، فقد سرنى هذا الشعور ، وهذه الغيرة في
سبيل المسيحية . سأسير بكم قريباً ، وسنملك مصر بإسم المسيح وقوته
ونفى هؤلاء (الكفار) ونبيدهم .

وخرج مرى بجيشه الجديد فى عدد وفير وعدة وسلاح ووصلت
العيون إلى شاور تعلمه بخبر هذه الحملة الجديدة فاضطرب، ولم يكذب
يصدق، وجمع أمراءه وقواده، وأطلعهم على ما وصل إليه وطلب
منهم الرأى فيما يفعلون... ولكنهم وجموا هذه المرة وسكتوا وطال
سكوتهم، إذ كان كل منهم يفكر، ولا يستطيع الكلام..

كان كل أمير يفكر فى هذه الولايات التى يجلبها شاور عليهم وعلى
مصر؛ إنهم يعتقدون أن أى جيش خارجى لا بد أن ينتصر عليهم،
فقد أفنت المنازعات المتتابعة قواد جيشهم فلم يعد يستطيع الوقوف
وحده ضد أى هجوم أجنبى — وقد اتصلا بجيش الفرنجة وحاربوا
معهم. واتصلا بجيش أسد الدين وحاربوا ضده، والجيشان أشجع
جنوداً وقواداً، وأكثر عدة وسلاحاً وأمهر حرباً ونضالاً ولقد
هاجمهم أسد الدين بالأمس فاستعانوا بالفرنج.. فماذا يفعلون اليوم
وقد هاجمهم الفرنجة أصدقاء الأمس — الرأى أن يستعينوا بنور الدين
أى بأسد الدين وجيشه — ولكن هل يقبل شاور هذا الرأى — أنه
يرضى بالموت ولا يرضى أن يستعين بأسد الدين..

فلما طال سكوتهم صاح شاور :

— ما هذا الصمت .. لقد دعوتكم لتساعدونى بأرائكم

فتنحى الأمير شمس الخلافة وقال :

— وهل نبدى آراءنا فى صراحة ؟

— أجل قولوا كل ما يعن لكم

— إذن رأى عندي أيها الوزير أن نلجأ إلى نور الدين ..

فصاح شاور كمن لدغته عقرب :

— تعنى أسد الدين . إن وجود هذا الرجل في مصر معناه موتي ..

إنه طامع في ملك مصر ..

فقال شمس الخلافة :

— ومرى هو الذي لا يطمع فيها .. أرأيت الآن صحة رأيي . لقد

نصحتك يوم أن أرسل اليك أسد الدين يطلب أن تتحالفا ضد الفرنجة
أن تجيبه إلى طلبه ، فقد كان مخلصا في دعوته فلم توافقني وفعلت ما فعلت .

فغضب شاور لهذا الحديث لكرهه الشديد لأسد الدين ، ولكنه

كتم غضبه إذ كان يعز شمس الخلافة ويعتمد عليه في كثير من
أزمائه ، وقال :

— لقد كانت بيني وبين الملك مرى صداقة وود ، وفي رأي أن

نرسل إليه رسولا يذكره بهذه العلاقة القديمة ، ويسأله عن غرضه
وما يقصد إليه فقد نستطيع أن نصده ببعض المال .

فوافق الحاضرون كارهين ، وخرجوا واجمين ، إذ كانوا يعلمون

أن هذا سعى فاشل .

ووصل رسول شاور إلى الداروم حيث وصل مرى بجيشه وقابل

الملك ، وبلغه الرسالة ، فحدثه مرى حديث الأفعى ، وما زال به يستميله
ويغريه حتى قبل الرسول أن يقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يقنع

شاور أنه لم يأت إلى مصر معاديا ، غازيا وإنما جاء خادماً ، أو مساعداً
كما فعل في الماضي .

لم يقتنع شاور بهذا الرأي ، ونادى الأمير شمس الخلافة وأنبأه
أنه يشك في إخلاص رسوله إلى مري ، ورغب إليه أن يسير هو إلى
الملك فيسأله عما يريد .

ووصل شمس الخلافة إلى معسكر الفرنج ، ودخل على الملك
فرحب به ، وقال :

— مرحباً بصديق شمس الخلافة ، وأهلاً وسهلاً ..

فقال شمس الخلافة :

— مرحباً بالملك الغدار ..

— لا لست غادراً يا شمس الخلافة ..

— إذن لماذا أتيت في هذا الجيش .

— لقد أتيت بقصد الخدمة كالمعتاد ، وقبض ما قررتم لي من عطاء .

— إننا نحتاج لخدمتك إذا دهمنا عدو ، أمامع خلو الببال من

الأعداء فلا حاجة لنا اليك ..

فسكت مري لحظة ، ثم قال :

— إن هناك أسباباً أخرى دفعتني إلى السير اليكم ..

— وما هي ..

— قد تكون أسباباً سرية .

— وهل بيننا من أسرار — أبن عنها ، فقد تكون غير صحيحة .

— لقد نبي إلى أن الفقيه عيسى الهكاري سعى بدهائه حتى جمع
بينكم وبين بيت بني أيوب ، فزوج بنت شاور من صلاح الدين ، كما
زوج الكامل بن شاور من أخت صلاح الدين .

فضحك شمس الخلافة لغرابة الخبر وقال :

— وهل تظن هذا صحيحاً ؟

— هذا ما بلغني .

— وهبه صحيحاً فما العلاقة بينه وبين مجيئكم في هذا الجيش

الجب .

— لو تم هذا الزواج لكان معناه اتفاقيكم مع أسد الدين ضدنا ،

فكان لا بد لي من اتخاذ الحيطة والحذر .

— أيها الملك ، أنت أول من يعلم مبلغ الكره بين صلاح الدين

وعمه ، وبين شاور وأنه من المستحيل أن يتم هذا المشروع — قد

تكون هذه فكرة الفقيه عيسى ، ولكن تأكد أن شيئاً من هذا لم

يصل إلى علم شاور .

— لقد كان هذا رأي أيضاً فقلت لمن نقل إلى الخبر إن ما بين

شاور وأسد الدين من عداو لا يمكن أن يسمح للفقيه بإتمام هذا المشروع

— إذن لا تخفي عنى شيئاً ودع هذه التعلات وأصدقني القول ،

ما الذي دفعك إلى المجيء ؟

— أقول لك الحق ، وأنت صديقي ، إن قوماً من الفرنج وفدوا

إلى بلادنا من وراء البحار ، وغلبونا على آرائنا ، وقالوا إنهم أتوا

راغبين في الخروج إلى مصر وملكها، نخفنا أن يسيروا إليكم فلا يكون لكم قبل بهم ولا تستطيعون ردهم ، وفضلنا أن نحضر بأنفسنا لتوسط بينكم وبينهم .

— وماذا يطلبون ليعدلوا عن رأيهم ؟

— يطلبون ستمائة ألف دينار .

فغضب شمس الخلافة ، وأخذ يلوم شاور في نفسه لأنه أذاق هؤلاء الفرائج طعم المال ألوفاً ، فراحوا يطلبون المزيد بسبب وبغير سبب ، وعلم في نفس الوقت أن هذا الحديث الملتوى ينبيء عن كذب الملك الصريح ، وأنه في الواقع لم يأت إلا طمعاً في مصر ذاتها ؛ فأراد أن يلجأ إلى أسلوب التهديد عليه يوهن من عزم هذا الملك الغادر فقال :

— ولكنك تعلم أيها الملك أن المصريين قد أرهقوا بالمكوس

التي تفرض عليهم كل يوم ، فمن أين يأتي اليكم شاور بالمال . تذكر كم أتلف ضرغام من ألوف الدنانير حتى اضطر إلى اغتصاب أموال اليتامى قبيل مصرعه مما أدى إلى ثورة العامة ضده ، وتذكر كم ألفاً دفع شاور اليك ، وإلى أسد الدين في المرتين السالفتين . إن أهل مصر لا يطيقون دفع أكثر مما دفعوا وإن لصبرهم حداً ، وأخشى إذا طالبهم شاور بمال جديد ليرضيك أن يشوروا ضده وضدكم وهنا ينتهز أسد الدين الفرصة فيأتي إلى مصر ويهاجم نور الدين بلادكم .

ولكن مرى أتى هذه المرة ويده الوثائق الصحيحة التي زوده بها رجاله وحاميته التي تركها في القاهرة ، فلم يعر هذا الكلام اهتماماً ، وقال :

— أنا أعلم صدق قولك ونصيحتك يا صديقي ، وقد طلب
القوم مبلغاً أكبر من هذا فما زلت بهم أقنعهم حتى جعلوه خمسمائة
ألف دينار فأعرض الأمر على صديقنا شاور لعله يجد مخرجا .
— سأفعل ، ولكنني أرجو ألا يتقدم جيشك خطوة أخرى
حتى يأتيك الرد .
— سأنتظر إكراماً لك — ولكن أرجو ألا يتأخر الرد .

فاطمة

استيقظت فاطمة بنت الأمير شمس الخلافة مبكرة ، ولبثت في فراشها تتمطى وتتأهب في تراخ وكسل ، ثم راحت تفكر في أشياء كثيرة مختلفة ؛ لقد كانت تنام من قبل ملاً عينها فلا تستيقظ إلا وقت الضحى ، ولكن حالها تغير منذ شهر ، فهي لا تكاد تنام حتى تزاحم عليها الأحلام بعضها مزعج مفرع ، وبعضها جميل لذيد ، ثم هي تستيقظ الآن عند الفجر فتلم بها الأفكار متشعبة متفرقة ، ولكنها تجتمع كلها حول موضوع واحد ، أو حول شخص واحد . . . مدرستها عبد الرحمن ؛ لقد عدت تفكر فيه كثيراً ، وإنها لتبذل الجهد كل الجهد لتبعد صورته عنها . فترى نفسها غارقة من جديد في التفكير فيه .

وقد ظنت أول الأمر أن السبب في هذا غيابها عنها بعد أن اعتادت أن تلقاه كل يومين أو ثلاثة ، ولكن ها قد مضى شهر كامل وهو كاف لأن ينسيها ، ثم هي ترى نفسها تزداد تعلقاً بالتفكير فيه يوماً بعد يوم — إنها تذكره الآن وهو جالس إليها في المكتبة بقامته المعتدلة ، ووجهه الأسمر الوسيم ؛ هي تقرأ ، وهو يفسر ، وأغلب ما ينظر إلى الكتاب في يده ، وقد تتلاقى عيناه وعيناها ، وهو يشرح لها آية قرآنية ، أو حديثاً نبوياً ، أو حادثاً تاريخياً ، فيسرع ويغض

من بصره في خجل وحياء ، وما كانت تحس شيئاً غريباً في كل مرة من هذه المرات ، ولكنها تذكر الآن أن قلبها حفق خفقاناً شديداً ، وأن أطرافها كانت ترتعش وهو ينظر إليها ، ويمد يده محياً قبيل سفره إلى بلده قوص ، وأن هذا الشعور ليعاودها الآن كلما فكرت فيه ، وكانت تذكر صوته وهجته حديثه وتستعيد ما كان يزودها به من آراء غريبة تبين عن قوة شخصيته . وسعة تفكيره .

وقد رغبت أن تحدث أحداً من الناس عن هذا الشعور لتستفسره كنهه ومعناه ، ولكنها كانت تتردد كثيراً لأنها لم تجد فيمن حولها من تأتمنه على هذا السر ، إن أباه مشغول بأمور الدولة ، وقد كثر تغيبه عن القصر هذه الأيام ، وزوج أبيها قد تسيء تفسير هذا الشعور فكثرت في صديقتها ريحانة التي تدرس لها الغناء والموسيقى ، غير أنها كلها همت بالافضاء إليها ترددت ، ثم أجفلت وأعرضت ، وما أن وصل بها التفكير إلى ريحانة حتى تذكرت الأبيات التي أعجبتها بالأمس وهي تقرأ ، فاختارتها ووضعت لها لحناً أخذت تغنيه وتردده إلى ساعة متأخرة من ليلة أمس فقامت من فراشها ، وأمسكت بعودها واحتضنته ، وأخذت تستعيد لحن الأمس وتغني :

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا	وأظلم اليوم مذ بتم فما شمسا
ما طبت نفساً ولا استحسنت بعدكم	شيئاً نفيساً ولا استعذبت لي نفساً
قلبي وصبري وعمضي والشباب وما	ألقت من نشاطي كله خلساً
لما هدت نار شوقي ضيف طيفكم	قريته بالكري إذ زار مقتبساً

ورمت تأنيسه حتى وهبت له إنسان عيني أفديه فما أنسا
أنا الخيال نحو لا فالخيال إذا ما زارني كيف يلقي من به التبسا
لهفي على زمن قضيته طرباً إذ لم أكن من صروف الدهر محترسا
ولما وصلت إلى البيت الأخير أحست كأن الشعر شعرها ، أو
كأنه على الأقل يعبر عن شعورها فراحت تردده ، وتعيده ، وتفنن
في إخراج ألحانه ، فتقصرها ، وتمدها ، وترفعها ، وتخفضها ، وترعشها
ثم تسكرها فتلحمها ، وبدرت منها التفاتة فرأت وجه ريحانة يطل عليها
من باب الغرفة مشرقاً مبتسماً ، تبدو عليه علامات الغبطة والفرح ،
نفجلت واحمر وجهها ، وتركت العود من يدها ، وقامت لترحب
بضيقتها وقالت :

— أهلا ريحانة — لقد تأخرت بالأمس ، ولما لم تأت شغلت
نفسى بالقراءة وقد أعجبتني هذه الأبيات للعقاد الكاتب ، فوضعت لها
هذا اللحن ، لعله أعجبك .

فاحتضنتها ريحانة ، وقبلتها ، وقالت :

— إنه لحن جميل ، جميل ، جميل . . أعيديه عليّ مرة أخرى .

— ليس إلى هذا الحد ، إن هذه محاولة تليذنة .

— لا والله . . إنني أقول الحق لقد تفوقت على .

ثم أطالت النظر إليها تعجب بجمالها ، وقد وقفت كالزهرة
المتفتحة وزادها الحياء حسناً ورواء ، وقالت :

- ولكن ما هذه الهالة الزرقاء حول عينيك - أسهرت
طويلاً بالأمس .

- كلا ، لقد نمت مبكرة ، ولكن اعتراني أرق غريب ، فلم
يزرني النوم إلا لماماً .

فضحكت ريحانة ضحكة ماكرة وسألتها :

- ألم يعد الشيخ عبد الرحمن من قوص بعد ؟

فصبغت الحمره وجه فاطمة حتى بدت وجنتها في لون التفاح الجميل
وأطرقت قليلاً . وعجبت في نفسها وتساءلت ، ما الذي جعل ريحانة
تنقل الحديث مباشرة إلى السؤال عن عبد الرحمن ، وتقرن هذا
بعدم نومها . . لقد فضح الشعر سرها . . ولكنها تما لكيت نفسها
وأجابت على السؤال حتى لا تزيد في شكوك ريحانة وقالت :

- لا . . لم يعد . . هداً الله سره - لقد وصلت أخبار أن أباه
مريض فأسرع بالسفر منذ شهر

ثم أرادت أن تنقل الحديث إلى موضوع آخر لتنجو بنفسها من
هذا الحرج ، فقالت :

- ولكن ما الذي أخرجك عن الحضور أمس ؟

فتنهت ريحانة وقالت :

- هيه . لقد أصبحت حياتنا في يد الأقدار يا فاطمة . . ومن

يدري فقد نقتل ، وقد نؤسر ، ويتحكم في حياتنا وأنفسنا وشرفنا
الفرنج الكفار .

فذعرت فاطمة ، وقالت :

— قد نقتل ، وقد نؤسر . . وكيف . . ولم ؟

— كيف . . ولم . . ألم تسمعي بمجيء الفرنج إلى مصر .

أجل . . قد سمعت ، وقد كان لهذا الحادث أثر كبير في حياتنا .

فقد كثر سفر والدي ، وتغيبه عن القصر ، وقد زاره الوزير شاور

بنفسه هنا في الأسبوع الماضي أكثر من مرة .

فعضت ريحانة نابها وقالت :

— أجل . الوزير شاور إنه رأس البلايا . . إن القصر هذه

الأيام في هرج ومرج ، فالخليفة قلق لا يستقر ، ساخط على شاور ،

ورجال القصر ونساؤه يشاركونه هذا السخط ، ولكنهم لا يستطيعون

شيئا ؟ فالجيش تحت إمرته ، لقد جرأ هذا الوزير الفرنج واستنجد بهم

ضد أسد الدين في المرتين السالفتين حتى اطلعوا على خفايا البلد

وعوراتها ، فأتوا إلينا غازين هذه المرة ، وقد وصلوا إلى بليس ،

وافتحوها ، وأسروا معظم أهلها ، وهم يتأهبون للمسير إلى القاهرة

والفسطاط .

— وماذا فعل شاور ؟

— إن هذا الرجل لازال يركب رأسه فهو يصر على أن يتولى

الدفاع عن مصر وحده رغم ضعف جيشه . ولقد علمت أن الأمراء ،

وعلى رأسهم أبوك عرضوا عليه أن يستعين بنور الدين فقال لهم

إنه يفضل أن يحرق البلد ويحترق معها على أن يفكر في هذه

الاستعانة ، إنه رجل حقود ، يؤثر هلاك مصر والمصريين على أن يرى عدوه أسد الدين في مصر .

وكانت فاطمة تستمع إلى ريحانة ، وهي شاردة الذهن تفكر في حرج الموقف وغرابته ، وتعجب كيف وصلت هذه الأخبار إلى صديقتها ، ولكنها عادت فتذكرت أن لا بد وأن يكون خشتين هو الذي نقل إليها هذه الأخبار لصلته بها ، ثم تذكرت أيضا كيف كاز عبد الرحمن يعرض بشاور وأعماله وأخطائه في كلام ملفوف مستور كلما عرضت مناسبة في درسه ، وطال بها الصمت والتفكير ، وكانت قد زالت حمرة الحياء ، وعاد إليها لونها الباهت من أثر السهر فخافت ريحانة أن تكون قد أفرعتها بهذا الحديث فتظاهرت بعدم الاهتمام وضحكت ، ثم قالت :

— مالك ساهمة ، شاردة العقل . . فيم تفكرين . . إن الفرنج لا زالوا بعيدين عنا ، والله يساعد من يدهم الأمر حتى يصدوهم عنا . . هاتي العود وأسمعي لحنك الجديد ، فإني مضطرة إلى العودة السريعة اليوم فقالت فاطمة :

— اعفني الآن ، فإني أشعر ببعض الضيق ، وسأسمعك إياه المرة الآتية إن شاء الله ، فإني أكون قد أجدته وجودته .

خرجت ريحانه ، وتركت فاطمة لتخلو بأفكارها ولكنها لم تلبث قليلا حتى سمعت صوت رجل غريب يدخل غرفة أبيها المجاورة للكتابة

والخادم يرحب به ويدعوه للانتظار حتى يحضر الأمير ، فنادت الخادم
وسألت من يكون الرجل فقال :

— إنه مولانا القاضي الفاضل كاتب ديوان الإنشاء يريد مقابلة
مولاي الأمير شمس الخلافة فأخبرته أنه خرج وسيعود بعد قليل
فطلب أن ينتظره وقد أجلسته في غرفة سيدي الأمير .

فعجبت فاطمة ودهشت ، إنها سمعت عن القاضي الفاضل كثيراً ،
وخاصة من عبد الرحمن فإنه كان يمتدحه أمامها دائماً ، ويثنى عليه حتى
لقد قال لها مرة

— إن القاضي الفاضل هو الرجل الوحيد في هذه الدولة .

ولكن لم يسبق له أن زار أباه في قصره قبل الآن — ترى ما الذي
جاء به . . وبينما هي في هذا التفكير تبدأ وتعيد إذ سمعت صوت أبيها
يدخل غرفته محمياً ومرحبا بضيفه فانزوت في ركن من أركان المكتبة
وتظاهرت بالقراءة ، وبدأ الحديث بين الرجلين فقال القاضي الفاضل .
— إنك تعلم أيها الأمير خطورة الموقف الآن . وقد سمعت أنك

أشرت على شاور أن يستنجد بنور الدين فأبى ولذلك أتيت أنا الآن
أؤيد رأيك وأرجوك أن تتلسس سبيلا آخر لتنفيذ هذا الرأي قبل أن
يداهمنا الفرنج فلا نستطيع شيئاً .

— لكم أشرت بهذا الرأي على شاور ، ولكنه لا يرضى ،
ولا يرضخ ، ويخيل إلى أنه يفضل أن يسلم البلد إلى الفرنج على أن يكتب
إلى نور الدين ولست أدري كيف أقنعه . . .

- إن اقناعه من المستحيل فأنحاول ولنسعى سعينا من طريق آخر
— وما هو يا عبد الرحيم ؟
— إنى أرى أن تسعى لإقناع الخليفة نفسه أن يكتب هو إلى
نور الدين ليستنجد به
فضحك شمس الخلافة ، وعجب كيف لم يفكر في هذا من قبل وهو
طريق ميسور وقال :
— أجل هذا هو الطريق — إنك دائما خلال المعضلات
يا عبد الرحيم . وإننى لأعجب لم لم أفكر أنا في هذا الحل قبل الآن مع
قربه وسهولته .
— إن خطورة الموقف تنسى المرء دائما البسائط وتدفعه إلى التفكير
في البعيد الصعب .
— هذا صحيح . . . ولكننى أخشى إن أنا ذهبت لمقابلة الخليفة أن
يعلم شاور — ورجاله ينبشون في كل ركن من أركان القصر — وينقلون
إليه كل صغيرة وكبيرة وإذا علم فإنه يسعى لإحباط المشروع
— لقد فكرت في هذا أيضا ووجدت له الحل
— يبدو لى يا صديق أنك تفكر في كل شيء وأن لديك لكل مشكلة
حليها . ليت لك الأمر — وإن كنت من أرباب القلم — دون هذا الرجل
شاور . وما هو هذا الحل ؟
— أنت تعلم أن الكامل بن شاور ناظم على الفرنج منذ ذلك الحادث
بينه وبين قائد حامية الفرنج في القاهرة ، ولقد تحدثت إليه فعرفت أنه

يميل إلى الكتابة إلى نور الدين فلو أنك استملتته إليك، وأقنعتته بصواب
هذا الرأي فإنه يستطيع أن ينقله إلى الخليفة العاضد دون أن يشتر ريباً
أو شكاً لدى رجال القصر.

— بوركت يا صديقي وبارك الله لك في هذا الرأس المفكر .
وسأبعث في طلب الكامل في الحال ، بل سأذهب إليه بنفسى وأدعوه
لزيارتي لنتحدث في الأمر هنا في منزلى ، والله يوفقنا جميعاً .

الخلافة يستنجد بنور الدين

خرج القاضي الفاضل ، وخرج الأمير شمس الخلافة ، وبقيت فاطمة وحدها في المكتبة تفكر وقد اتعت أمامها ميادين التفكير : إن مصر تضرب بالحوادث في الخارج فالفرنج في بلبيس ، وشاور يستعد لصددهم ، ورجال الدولة يتقاربون ويتشاورون عليهم يبدون مخرجا أو عوناً ؛ وهي وسائر نساء مصر حبيسات الجدران والقصور كأنهن في سجن اختياري لا يدرين من الأمر شيئاً ، ولا يشتركن في التفكير في مستقبل البلاد .

ألسن مصريات وهذا وطنهن كما هو وطن رجالهن من آباء وإخوة وأزواج وأبناء ؟! ألا يخضعن للهزيمة كما سيخضع لها رجال مصر ؟ . ألن يؤسرن كما يؤسر المصريون إذا تغلب العدو — لا قدر الله — ؟! وإذا انتصر المصريون ألا يفرحن لهذا النصر ؟! لم إذن يقرن في البيوت محتجبات كالسائمة لا يفقهن شيئاً ولا يعلمن شيئاً ، ولا يشتركن في الدفاع عن البلاد بالقدر الذي يستطعن ؟! هل في الدين ما يمنعهن عن القيام بهذا الواجب الشريف ؟ كلا ، إنها تذكر أن مدرستها عبد الرحمن قد حدثها أكثر من مرة عن نساء المسلمين اللاتي كن يخرجن مع جيوش النبي لمحاربة الكفار فيحرضن الجنود على القتال ويسقين الماء ويضمدن الجرحى .

وإنها لتذكر أنها كانت تشتعل حماساً وهي تستمع لمثل هذا

الحديث فتمنى لو أن الزمن تقدم بها فكانت إحدى هؤلاء النساء لتفعل فعلهن ، وتضحى كما ضحين . وإن هذا الشعور نفسه لم يعاودها الآن فتحس أن كل جزء من جسمها يناديها للحركة والعمل . . عمل أى شيء تستطيعه لتساهم في الدفاع عن وطنها مصر ، وعن دينها الاسلام ضد هذا العدو المخير . ولكن كيف يتاح لها هذا وهي لا تغادر القصر إلا بحجة مرات معدودات في السنة للنزهة في حدائق الروضة أو في حراقة أبيها الخاصة يوم الاحتفال بوفاء النيل ؟

فكرت فاطمة في هذا طويلا ، وشعورها القوي ، وأملها الجامع يدفعانها ، والحقيقة الواقعة المؤلمة ترددها ، وإذا بأحد الخدم يدخل فيقول :
— الشيخ عبد الرحمن حضر ويريد مقابلة مولاتي .

فأحست فاطمة بالفرح الشديد يغمرها ، وأخذ قلبها ينبض في سرعة غريبة ، وأخذت تنظر إلى الخادم مشدوهة مدة طويلة وهي لا تكاد تصدق ما يقول ، ثم نهضت واقفة وقالت :

— وأين هو ؟

— في المنظرة تحت .

— أدعه إلى هنا ، وسأذهب لأغير ملابسى وأوافيه .

وخرجت فاطمة إلى غرفتها وظلت تقلب ملابسها وهي حيرى : أيها تختار ، وأطرافها باردة ترتعد لا تكاد تمسك ثوبا حتى يسقط منها ، وأخيراً انتقت ثوباً أبيض بسيطاً ، وارتدت فوقه قباءعاً واسعة إذا يكام طويلة أخضر اللون مزركشاً بالذهب مطرز الأطراف

باللون الأبيض وتناولت منديلا من نفس القماش واللون فتلثمت به ،
ونظرت إلى المرأة ، وأطالت النظر ثم ذهبت إلى المكتبة فلم تسكد
ترى عبد الرحمن حتى اندفع الدم إلى وجهها فصبغه بحمرة في لون الخمر
جميلة ، وأطرقت إلى الأرض حياء ، ثم مدت يدها إليه تحميه وهي تقول :
— حمد الله على السلامة ، كيف قوص ، وكيف صحة السيد الوالد ؟
— أحمد الله وأشكره ، كانت قد أصابته حمى وعانى منها كثيرا ،
ولكنه قارب الشفاء الآن .

— الحمد لله ، أكل الله له الشفاء ، ورزقه الصحة والعافية التامة .
وسكنت وسكنت عبد الرحمن وهو ينظر إليها ويعجب بجمال
وجهها المستطيل ذى العينين السوداوين والأنف الدقيق ، والقمم
الصغير ، والطرحه الخضراء تحيط به كما تحيط الهالة بالقمر ، ثم قال :
— لقد وجدت أمامي هنا هذه السكراسة فقلبتها فإذا بها أبيات
من الشعر رائعة تدل على ذوق جميل وحسن اختيار .
فأفرح هذا التقريظ فاطمة وقالت تجميه :

— لقد شغلت نفسي أثناء غياب سيدى الأستاذ بقراءة بعض
الدواوين ، وكنت أختار ما يعجبني من الشعر فأدونه في هذه السكراسة .
— ولكننى لاحظت أن كرامتك تحوى نوعين من الشعر فقط :
الشعر الذى يتحدث عن مصر ، والشعر الذى يتحدث عن القلب . . .
بما دلنى على أنك كنت ملهمة فى اختيارك .
— إننى لم أضع لنفسى خطة معينه عند الاختيار ، ولكن هذا

أمر طبعي ، فمن من الناس يحيا بلا وطن ، ومن من الناس يحيا بلا قلب ؟!

وهنا سمع المدرس وتليذته صوت الأمير شمس الخلافة يدخل غرفته المجاورة ومعه ضيف فقال عبد الرحمن :

— هذا صوت الأمير — ألا اذهب لأسلم عليه ؟
فقال فاطمة في همس :

— لا ، بل ابق قليلا فإني أظنه مشغولا مع ضيفه في أمر هام ،
ولا ترفع صوتك لئلا يسمعنا .

— إذن اسمحي لي أن أنتظر في المنظرة تحت فإننا نسمع حديثهما
واضحاً جلياً .

— بل إنني أريدك أن تسمعه فهو حديث مهمك .

— ولكن هذا ليس من الخلق الطيب فقد لا يريد الأمير أن
نسمع حديثه .

— إن الامر لكما تقول ، ولكن هذا الحديث يتعلق بمستقبل
البلد ، وواجب عليك كمصري أن تعرفه وإني لا أخشى أن تنقله إلى
أحد فانك يا سيدي خير من يؤتمن على الاسرار .

فقال عبد الرحمن في دهشة :

— ما هذا ؟! إن هذا صوت الكامل بن شاور .

— نعم إنه هو . . استمع الآن للحديث .

وهنا سمع الأمير شمس الخلافة يقول لضيفه :

— يا كامل : إن عندي أمر لا يمكنني أن أفضى إليك به إلا إذا أقسمت أنك لا تطلع أباك عليه .

— أقسم بالله أن لا أفضى إليه به . قل — ما هو .

— أنت تعلم أن أباك عقد النية على الصبر والمكافأة وحده ضد الفرنج ، وأنت تعلم أيضاً أنه لا يقوى على هذا الكفاح ويبدو إلى أنه سيسلم البلد أخيراً للأعداء ، ولا يكاتب نور الدين .

— أعلم هذا .

— وأظنك تدرك معي أن هذا رأى خاطيء .

— أو افقك .

— إذن لا مخرج لنا إلا الكتابة إلى نور الدين ، ولهذا أرجو أن تذهب بنفسك إلى الخليفة فتطلب منه أن يكتب هو إلى نور الدين يطلب النجدة .

أطرق الكامل طويلاً ، وأنشأ يفكر ، وتنازعت عواطف كثيرة ، واحتدمت المعركة في نفسه ، إن هذا الذي يطلبه شمس الخلافة يوافق هوى في نفسه ، فهو يؤمن معه بخاطر الفرنج على البلد ، وهو يؤمن معه أن جيش أبيه قد لا يصمد طويلاً أمام جيش الفرنج ، فإذا انهزم كان لهزيمة نتائج جد خطيرة ، وضاعت مصر حصن الإسلام القوي ، وانتقلت إلى أيدي الفرنج ، ولكنه يعلم في نفس الوقت أن أباه يكره أسد الدين كرها شديداً ، ويأبى كل الإباء أن يستعين بنور الدين ، لأنه أدرك تماماً — من التجربتين السابقتين — أن أسد الدين يطمع في

ملك مصر ، وأنه إذا أتى هذه المرة وجد تعضيدا من المصريين وثر حيبا من الخليفة ، وتأييدا من رجال الدولة .

وإذا أتى أسد الدين وملك مصر ، أليس في هذا نهاية لدولة أبيه وضياح مجده ومجد أسرته ؟ وماذا يكون مصير أبيه ومصير أسرته ، بل ومصيره هو ؟ أقرب الظن أن يكون مصيرهم جميعاً الأسر إن لم يكن القتل فإن أسد الدين لا يمكن أن يكون قد نسي لأبيه غدره المتكرر وحثه في وعوده .

جالت كل هذه الأفكار بخاطر الكامل ، وقامت في نفسه ثورة عنيفة ، أيقبل ما عرضه عليه شمس الخلافة ويشترك معه في تنفيذ خطته فيكون في هذا خيانة لأبيه وأسرته وقضاء على مجدهما ومجده وإن كان يؤدي بذلك خدمة لمصر وللإسلام ، أم يعتذر ويترك الأمور تجري في أعنتها فيكون بذلك وفيها لأبيه ؟ أيهما أحق أن يتبع ، وأيهما أحق أن يفوز بولائه ووفائه . ١٩ .

طال بالكامل التفكير ولج به الألم واشتد به الحرج ، ولكنه كان رجلا مؤمنا شديد الإيمان فأثر أن يوافق شمس الخلافة على رأيه ، راجيا أن يقدر له أسد الدين سعيه هذا إذا جاء فيعفو عن أبيه ، ولم يشأ أن يفضى لمحدثه بما جاش في نفسه ، وإنما رفع رأسه بعد قليل وقال :

— إن أبي يخشى أن يملك أسد الدين مصر إذا حضر هذه المرة ، ولكنه نى أفضل أن يملك البلد المسلمون على أن يملكها الفرنج .. سأذهب

أيها الأمير ، وفي يقيني أن الخليفة سيرحب بهذا الرأي فهو أشد كرها
للفرنج منا . . . ولكن . . .

— ولكن ماذا ؟

— من الذى سيحمل الكتب إلى الشام ؟ !

سمعت فاطمة هذا الحديث كما سمعه عبد الرحمن ، أما هى فكانت
تعلم مقدماته فلم تعجب له ، أما عبد الرحمن فقد أخذته الدهشة فكان يتابع
الحديث بجميع حواسه ، ولم يكذب يسمع هذا السؤال الأخير حتى وقف
ونظر إلى فاطمة ، وهمّ بالكلام غير أن فاطمة سبقته فقالت :

— لقد كنت أذكر قبل حضورك كلامك عن نساء المسلمين فى

عهد النبي ، وما كن يؤدبته من خدمات فى الحروب وكنت أتمنى أن
تتاح لى فرصة أودى فيها خدمة لدينى فى هذه الظروف العصيبة ، وهذا
أبى يريد من يحمل رسالة الخليفة إلى نور الدين ، وكم أتمنى لو كنت
أنا هذا الرسول فىنى أجد ركوب الخيل ويمكننى أن اتنكر فى زى شاب .

فضحك عبد الرحمن معجبا بهذه الروح الوثابة وقال :

— بارك الله فىك وفى هذه الروح القوية ، لست كل نساء المسلمين

كن فاطمة ، إننى أنفر بك الآن . . . ولكن هذه رحلة طويلة شاقة ،
ولقد هممت إذ وفقت الآن أن أذهب أنا للأمير فأعرض عليه نفسى
لا أكون رسوله إلى الشام . . . أتأذنين لى . . . ؟ ؟

وتركها وطرق باب الغرفة المجاورة ودخل محييا ، فدهش الأمير

شمس الخلافة وقال :

— أهلاً . . . بالشيخ عبد الرحمن ، متى وصلت ؟ حمداً لله على
السلامة ، وكيف صحة الوالد ؟
فقال عبد الرحمن :

— شكراً جزيلاً أيها الأمير ، والحمد لله فقد منّ على والدي
بالشفاء بعد أن قاسى آلام الحمى مدة ليست بالقصيرة ؛ ولكن ليغفر
لي سيدي الأمير جزأتي فإني أعتقد أنني جئت في وقت غير مناسب ؛
وليغفر لي جزأتي مرة ثانية لأنني تطلعت فسمعت حديثك الآن وأنا
في المكتبة وقد جئت أعرض نفسي على سيدي الأمير لأكون حامل
رسالة الخليفة إلى نور الدين .

فعجب الكامل ونظر إلى هذا الشيخ الجريء ، ونظر إلى شمس
الخلافة مستفهماً فقال شمس الخلافة .

— هذا الشيخ عبد الرحمن معلم ابنتي فاطمة وهو من أفضل
الناس علماً ودينياً وشهامة وها أنت ذا تراه يقدم نفسه لهذه السفارة
الخطيرة في الوقت الذي يتردد فيه كبار رجال الجيش عن القيام بها
لو سألتهم ذلك .

ثم التفت إلى عبد الرحمن وقال :

— إنني أثق بك يا شيخ عبد الرحمن ، وأعلم مبلغ إخلاصك ،
وستكون سفيرنا إلى نور الدين إن لم نجد سفيراً .

وذهب الكامل بن شاور في اليوم التالي إلى القصر الكبير وطلب
الإذن لمقابلة الخليفة فلما مثل بين يديه خلع سيفه وقبل الأرض ثلاثاً

ثم أفضى إليه برغبته فوجد منه أذناً صاغية ، ولكنه تردد قليلاً قبل أن يعلن موافقته فقد تسرب الشك إلى نفسه ، وأخذ يتساءل : أحق ما يقول الكامل ؟ أجاد هو في عرضه ؟ ألا يمكن أن تكون هذه خدعة من شاور أراد بها أن يتعرف رأيه فيه ، وحقيقة ميوله نحو أسد الدين ؟ لقد كان من الممكن أن يتقدم إليه بهذا الاقتراح أى رجل من رجالات الدولة غير الكامل بن شاور أما أن يتقدم هو فهذا أمر يشير الشكوك .

لقد كانت هذه رغبته ، ولقد بات ليلته يفكر فيها ويلتمس السبيل إلى تنفيذها وخاصة بعد أن أحس نساء القصر معه بالحيرة والقلق ، وبعد أن شاهد في أعينهم علامم الألم المسكبوت وصور الاستغاثة الصامتة كلها تحدث اليهن ، غير أن حرصه وشكه دفعاه إلى إنكار هذا الاقتراح أولاً ليعرف مبلغ صدق محدثه ، فنظر إلى الكامل نظرة طويلة ثم قال :

— قد يكون لهذا الاقتراح وجاهته ، بل لعله الحل العملي الوحيد ، ولكنى لا أستطيع الموافقة عليه ، فأنت تعلم أن دولتنا قامت لتدعو إلى المذهب الشيعى وتدافع عنه ، وقد بذل جدودى الجهود المضنية فى هذا السبيل فهل أتقدم أنا الآن إلى الاستعانة بنور الدين وهو رجل سنى مغال فى سنيته يدين بالولاء لمنافسى الخليفة العباسى . إن معنى هذا زوال مذهبنا بل ودولتنا .

وسكت العاضد قليلاً ثم تنهد طويلاً وقال يخاطب نفسه — رباه

هل قدر لي أن أهدم بيدي ما بناه أبناء فاطمة في هذه القرون الطويلة؟
وأدرك الكامل صدق دعواه وخرج موقفه، فإنه كان يعاني نفس
الخرج والضيق — وإن اختلفت الأسباب .. ولكنه أراد أن يقنعه
بصواب رأيه فقال :

— إن مولاي أمير المؤمنين مسلم قبل أن يكون شيعيا وإنه ليعلم
أن الفرنج قد قدموا هذه المرة في عدة وعتاد لا قبل لنا بهما ، فهل
يؤثر أن تنتقل مصر إلى أيدي المسيحيين محافظة على المذهب وهل
يحافظ المسيحيون على المذهب إذا هم ملكوا مصر ؟ أما أسد الدين
فقائد من قواد الإسلام ، فهو إن انتصر كان في نصره العزة والمجد
للإسلام ، ولا أظن أنه يسعى لتغيير المذهب ، ثم إنكم يا مولاي
تستطيعون أن تصطنعوه وتقربوه إليكم بشيء من المال والجاه .
عجب العاصد من هذا الحماس وهذا الصدق يشيعان في حديث
الكامل فأراد أن يتأكد من إخلاصه ، فسأله :

— وهل حدثت أباك في هذا الموضوع ؟

— لا يا مولاي ، فأنا أعلم مبلغ الكره الذي بينه وبين أسد الدين
وأنه يرى الاتفاق مع الفرنج خيراً من الاستنجاد بنور الدين .
فاشدد العجب بالخليفة وسأل الكامل مرة ثانية .

— ألا ترى أن في انتصار أسد الدين .. لو قدم . خطرا على

أبيك .

فأجاب الكامل بقوله :

— مولاي — لقد فكرت في هذا الأمر طويلا ، وترددت في الإقدام كثيراً ، وعانيت من نزاع نفسي وثورتها الشيء الكثير ولكنني فضلت في النهاية سلامة الإسلام والدولة على سلامة أبي ، ومن يدرى فقد نستطيع في المستقبل أن نزيل ما بين أبي وبين أسد الدين من أسباب العداة .

عند ذلك أدرك العاضد صدق محدثه وإخلاصه ، وأكبر فيه هذه الروح الطيبة ، فأعلن اليه موافقته ، ولكنه عاد يسأله :

— ولكن ، أترى نور الدين يلي نداءنا ، ويغيث لهفتنا ؟

— على المرء أن يسعى يا مولاي ، وليس عليه تحقيق الأمل .

— صدقت — على المرء أن يسعى ، وليس عليه تحقيق الأمل .

سأنادى القاضي الفاضل ليكتب الخطاب ، والله أسأل أن يكتب لنا التوفيق .

واستأذن الكامل وخرج ، وترك الخليفة الشاب في لجنة من أحزانه ، وغمرة من آلامه ، يستعيد في نفسه هذا الحديث ، ويدرس الموقف وملابساته ، لقد قرأ تاريخ أجداده ، ورأى في هذا التاريخ صفحات المجد واضحة جليلة ، إنه ليذكر الآن ما قرأه عن حياة جده الأعلى مؤسس الأسرة عميد الله المهدي ، وإنه ليستعيد أمام ناظره صور النضال القوي الذي خاض غماره حتى استطاع أن يضع أول لبنة في هذا الصرح المشيد ، فلما نجح وأقام دولته في المغرب لم يهدأ له بال حتى أسس لدولته عاصمة جديدة — هي المهديّة — وأفطن في

تحصينها فأحاطها بالأسوار القوية والقلاع المتينة ، فلما تم له ذلك قال
قولته المأثورة : « الآن آمنت على الفاطميات » — أجل الفاطميات ،
بناته وزوجاته ونساء أسرته ، إن من خلق العربي أن يفتخر دائماً
بحمانيته لوطنه وحرمة . وقد ورث هو ذلك الفاطميين ، وفي حماه
الآن فاطميات يهددهن خطر داهم — انه خطر مسيحي ، ومن واجبه
أن يحمين ويدافع عنهن ، ولكن هذا الرجل شاور يملك قوى البلد
فليس أمامه إذن إلا أن يستنجد بنور الدين ، ولعله يستطيع أن
يضرب شاور بأسد الدين ، فإذا تخلص منه أمكنه — كما يقول الكامل
أن يصطنع أسد الدين ويقربه إليه .

وقد يستطيع أن يغيره حتى ينقلب داعية لدولته ويحارب به نور
الدين والخليفة العباسي ، إن في تاريخ أسلافه سابقة مشابهة ، فقد
استطاع الخليفة المستنصر الفاطمي أن يستميل إليه البساسيري أحد
قواد العباسيين بالمال والعطاء حتى انقلب الرجل داعية له ، ودخل
بغداد عاصمة العباسيين وخطب له فيها .

وهكذا انفسحت الآمال أمامه ، وهدأت في نفسه ثورة النزاع
فنادى قهرمانه القصر وطلب إليها أن تأتيه بذوائب من شعور نساءه .
وأرسل فاستدعى القاضي الفاضل ، وأمره فكتب له الرسائل
إلى نور الدين بأسلوبه البليغ ، وسخم أعاليها بالمداد الأسود ، ثم أخرج
العاضد ذوائب الشعر ونظر إليها قليلاً ، ولبث لحظة يحاول أن يمد
يده بها إلى الفاضل ثم يحجم ، وتندت عيناه بالدموع ، ولكنه أسرع
فقدمها إليه ، وهو يقول :

— خذ يا عبد الرحيم هذه فارقها بالرسائل ، هكذا أراد الله ولا راد لقضائه .

وحمل القاضي الفاضل الرسائل إلى شمس الخلافة في داره ؛ وانفق الرجلان على أن يكون عبد الرحمن هو رسولهما إلى نور الدين .
وكان عبد الرحمن في المكتبة مع تلميذته فاطمة فساده الأمير شمس الخلافة وقال :

يا شيخ عبد الرحمن ، إني لا أشك في إخلاصك لوطنك ودينك ولهذا وافقت على أن تكون أنت حامل الرسائل إلى نور الدين ، وهذه هي ، وليكنك تعرف جيداً أن مستقبل هذا البلد وأهليه يتوقف على نجاحك ووصول هذه الكتب إلى نور الدين نفسه فسكن حريصاً عليها حرصك على حياتك .

— لا تخف أيها الأمير . . . سأجعلها في ثنايا قيصي اللاصق بجسمي ، وسأصونها من أي معتد إلى أن أسلمها لنور الدين بيدي ، والله يوفقنا جميعاً لما فيه خير مصر والاسلام .

فقال شمس الخلافة :

— سر على بركة الله ، وسأخرج أنا على جوادى إلى صحراء عين شمس وانتظر حتى توافيني فأعطيك الجواد لتبدأ رحلتك محروساً بعناية الله ورعايته .

حريق الفسطاط

كان شاور يعتقد أنه يستطيع أن يخرج الفرنج من مصر وحده إذ كان يطمع أن يغرى ملكهم بالمال فأرسل جباته وجهاذته إلى الأقاليم يجمعون المال من الفلاحين والتجار ، واستعمل هؤلاء كل صنوف القسوة وألوان العذاب حتى سخط الشعب عليهم وعلى شاور غير أن مُرى لم تخدعه رسائل شاور المتتابعة ، ووعوده المتتالية فتقدم بجيشه ، وعسكر عند بركة الحبش قبلى الفسطاط ، واتخذ الأهبة للمهاجمة العاصمتين : القديمة والجديدة ، فذعر شاور وقرز أن يحرق الفسطاط بما فيها كي لا يملكها العدو ، فأرسل المنادين يجوبون خطتها وحواريها وأزقتها يندرون سكانها كي يحملوا متاعهم ويسرعوا بإخراجها .

ارتاع سكان الفسطاط وبلغ الذعر في نفوسهم أقصاه فكان كل منهم يحمل ماخف وزنه ، وغلا ثمنه ، ويحاول أن يفر بنفسه وأولاده وزاد الاقبال على الدواب لحمل الناس والمتاع حتى بلغت أجرة الحمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً ، وتشقت الناس أيدي سبا فرحل البعض إلى القاهرة والبعض إلى الصعيد أو إلى مدن الدلتا وقرراها وهم سيكون مساكنهم ومتاعهم ومدينتهم الجميلة بأسواقها ومساجدها ، الغنية بتجارها وصناعتها ، العظيمة بآثارها ودور عليها .

وفي اليوم التاسع من صفر سنة ٤٦٥ فرق شاور رجاله ومعهم

عشرون ألف قارورة نפט وعشرة آلاف مشعل ، فأشعلوا النار في جميع أنحاء المدينة .

ووقف شاوور على جبل المقطم يرقب مدينة عمرو بن العاص العظيمة وهي تحترق والنار تأكلها وتأكل معها تراثا جليلا ظل المصريون يقيمون صرحه ويشيدون أركانه وبينون عمدته خمسة قرون ونصف قرن ، وكان كل لسان من ألسنة النيران يتصاعد مترنحاً ويندلع في صوت صارخ أجش يبكي المدينة الجميلة ويلعن شاوور .

وفي الوقت نفسه كان الفقيه زين الدين المصرى يقف إلى جانب القاضى الفاضل فى داره التى هاجر إليها بالقاهرة ليشرفا من إحدى النوافذ على هذه المدينة الاثيرة لديهما ، العزيزة إلى نفسيهما ، وبيكيان فيها أوقاتاً جميلة قضياها فى المسجد الجامع ، أو فى داريهما ، أو دور أصحابهما ، وينقمان على هذا الرجل شاوور فعلته السكراء ، ويرثيان لسكان المدينة ، ويأسفان لما حل بهم من ذعر وخوف وضياح أنفس وأموال ؛ وكان الرجلان يدعوان الله مخلصين له الدعاء بقلبين عامرين بالايمان أن يدفع عن أهل مصر هذا البلاء ، ويغيثهم برحمة من عنده ، ولم يلبثا أن وجدا شوارع القاهرة تزدحم بالفقراء من الناس وقد علا عويلهم واشتد بكاءهم . . فقال القاضى الفاضل : — لا حول ولا قوة إلا بالله . . لا حول ولا قوة إلا بالله .

أنظر . . أنظر يا زين الدين .

ثم غطى عينيه بيده لئلا يرى ، ونظر زين الدين فرأى فقراء

الفسطاط ومعوزيها الذين لم يجدوا أجر الدابة التي تحملهم ، وقد طاردتهم النار فلجأوا إلى القاهرة يتدافعون بالمناكب في حال تبكي أقسى القلوب وأغلظها . . فهذا شاب مسكين يحمل أباه المريض على ظهره ، وخلفه زوجه وأولاده يتعلقون بأذياله ؛ وهذه صبية شاردة تبكي وتصرخ صراخاً يقطع نياط القلوب تنادى أمها ولا يجيب ؛ وهذه امرأة ضعيفة لا رجل لها تحمل طفلها الرضيع وتتبعها ولدان وطفلة ، وخلفها عجوز تحمل حصيراً بالية وقلة ماء هما كل ما تملك من حطام الدنيا ، وهي تتعثر في مشيتها تكبو ثم تقف لتكبو ثانية . والجميع يتزاحمون ويتدافعون لا يجدون دوراً ترويههم أو رجلاً يطعمهم رأى زين الدين هذا كله فترك النافذة وهو يقول :

— اللهم الطف بعبادك ، وأغثهم برحمتك .

وخرج القاضى الفاضل فدعى جماعة من هؤلاء اللاجئين إلى داره وأعطاهم بعض الطعام ، وترك صديقه زين الدين ليعنى بأمرهم ، وخرج على بعلمته فالتفت الناس حوله وهم يصرخون ويولولون ويطلبون منه العون والنجدة فطيب خاطرهم ووعدهم أنه سيسعى لدى الخليفة والأمراء ليوجدوا لهم مأوى وطعاماً ، فصاحوا جميعاً يميونه ويدعون له ، وتقدم شابان عن الجميع فأخذا بزمام البغلة يشقان للقاضى الطريق وسط الزحام الشديد إلى أن وصل إلى قصر الخليفة فطلب الاذن ودخل فقال :

— يا أمير المؤمنين . . . لقد مس شعبك الضر والجوع بعد أن
أشعل الوزير شاور النار في الفسطاط ، وهام سكان المدينة الفقراء
يملاًون شوارع القاهرة وأزقتها لا تكاد تغطيهم الملابس البالية ، ولا
بكاد يمسك جوعهم شيء وهم يئنون ويبكون ويضعجون بالعويل
والصراخ . . . وأتم يا مولاي ملاذ الجميع وكهفهم ونصيرهم فجد لهم
بما يطعمهم من جوع ، وما يكسيهم من عرى ، وهؤلاء أمراء الدولة
قد امتلأت خزائنتهم بالمال والطعام فليأمرهم مولاي أمير المؤمنين أن
يفسحوا لهؤلاء اللاجئين الضالين أمكنة في دورهم ، ويعنوا بأمرهم .
أغشنا يا مولاي من هذا الفرع الأكبر . . . أغشنا .

فتأثر الخليفة العاضد ، وتندت عيناه بالدموع ، ولا غرو فهو شاب
في السابعة عشرة من عمره ، أقيمت إليه مقاليد الأمور في بلد تعقدت
أمورها ، فهاجمها العدو واستبد بها رجل لا يسعى إلا لمجده وإن جاع
الناس واحترقت البلد . ومسح الخليفة الدموع من عينيه وقال :

— أيها القاضي ، مر المشرفين على مطبخ القصر أن يوزعوا
ما عندهم من طعام على هؤلاء المساكين ، وسأدعو الأمراء الآن
وأحثهم على العناية باللاجئين وإيوائهم وإطعامهم . . . والله يقويننا على
فعل الخير ، ويؤيدنا بروح من عنده ، وينقذنا من هذا الشر الذي
يحيط بنا من كل مكان .

وذهب القاضي الفاضل إلى مطبخ القصر فجمع ما به من طعام
وحمله مع الحاملين ، وخرج لتوزيعه على أولئك الفقراء المساكين
فإنكالبوا عليه وعلى من معه يتدافعون ويخطفون ما يقدم اليهم ،
ويضجون فرحاً وسروراً ، ويهتفون في صوت واحد .

— حفظ الله سيدنا القاضي - نصر الله مولانا القاضي ، فتركهم
وأخذ يشق طريقه إلى منزله ، وعيونه تملأها العبرات وهو يناجي ربه
في سريره أن يغيث هذا الشعب المسكين وينقذه من أيدي
ظالميه وأعدائه .

صلاح الدين يخرج الى مصر كارها

ظل أسد الدين مدة بعد عودته من مصر يطلب من نور الدين أن يزوده بجيش جديد ليعود إليها فيملكها ، ونور الدين يزهد فيها ، ويزيد في إقطاعه ليرده عنها ، فلما لم يجد فائدة من الرجاء ذهب إلى إقطاعه حمص في شمال الشام ومعه أبو الحسن الذي لم ين عن قصده لحظة ، فكان لا يفتأ يذكر صديقه أسد الدين بمصر ، وبما يقاسيه أهلها من مكروه .

وكان نور الدين وقتذاك في حلب يخرج للغزو والجهاد ثم يعود إليها ، وهناك وصلته الأخبار بمسير الفرنج إلى مصر فندم أن لم يوافق أسد الدين على رأيه ، وأخذ يعيد التفكير في مصر من جديد ، ويستشير قواد جيشه عليه يصل إلى رأى أخير يطمئن إليه .

وفي أحد أيام ربيع الأول كان نور الدين يجلس في قلعة حلب ، ومعه خاصته ورجال دولته يعرض عليهم ما وصله من أخبار مصر فدخل أحد الجنود يطلب الإذن لرجل غريب يريد المقابلة .

وكان القادم الشيخ عبد الرحمن فحى الملك العادل وقال :

— لقد جئت من مصر أحمل رسالة الخليفة العاضد إلى مولانا

الملك العادل نور الدين فذهبت إلى دمشق واسكنني علمت بوجود مولاي في حلب فجئت إليها مسرعا .

فقال نور الدين :

— وكيف حال مصر ؟ لعلها في خير فإننا في هم شديد من أجلها .

— إن مصر يا مولاي في كرب وبلاء فتداركها بالنجدة قبل أن

يمسكها الفرنج .

— وأين وصل الفرنج الآن ؟

— خرجت من مصر وهم على أبواب الفسطاط .

فصاح نور الدين غاضباً وقال في لهجة النادم :

— على أبواب الفسطاط ؟ لقد تهاوننا ونسينا حق المسلمين

علينا . . أين الرسائل أيها الشيخ ؟

فد عبد الرحمن يده إلى القميص الداخلي ، وأخذ يفتق بعض أجزاءه ، ثم أخرج السكتب من بين ثنايا القميص ، وناولها لنور الدين ففضها وإذا بدوائب الشعر تتساقط من طياتها فالتقطها عبد الرحمن ، وقدمها إليه ، وبدأ نور الدين يقرأ ، والقواد حوله يرقبون حركاته وينظرون إلى وجهه ، وعلائم الغضب والسخط والحمية تتابع على محياه واضحة قوية ؛ وما إن انتهى من القراءة حتى تمدت عيناه بالدموع ونظر إلى خصل الشعر في يده ، وأخذ يردد بعض كلمات وردت في خطاب العاضد :

— (هذه شعور نسائي من قصرى يستعثن بك لتنقذهن من

الفرنج) ، ثم التفت إلى قواده وقال :

— لقد كان أسد الدين أصوب مني رأياً ، لا بد من عمل سريع
لنتدارك ما فاتنا ونصاح خطأنا .

ونظر إلى صلاح الدين وقال :

— اذهب الآن إلى عمك في حمص فاذا كر له خبر هذه الرسائل
وادعه ليأتى على جناح السرعة .

وركب صلاح الدين جواده ، وخرج من حلب مسرعاً نحو حمص
فلم يكذب يعد عن المدينة نحو ميل حتى رأى عمه وبعض رجال يسرعون
نحو حمص ، فياه وبلغه رسالة نور الدين ، فقال أسد الدين :

— لقد وصلتني رسائل مشابهة من مصر فجتت مسرعاً لأعرضها
على مولانا الملك العادل .

وعاد أسد الدين وابن أخيه إلى قلعة حلب ، فقال نور الدين :

— عفوا يا أسد الدين ، لقد أخطأنا في قههم قصدك ، ولم نقدر
رأيك حق قدره ، وكانت النتيجة ما أصاب المسلمين في مصر من ضرر
ومكروه فتجهز واستعد للسير بأقصى ما تستطيع من سرعة .

فقال أسد الدين :

— إنني خرجت في المرتين السالفتين ومعى جند قليل وعتاد أقل ،
ولا يمكنني أن أخرج هذه المرة إلا إذا زودتني بما يضمن النجاح
في مهمتي .

— لك ما تطلب فاختر من جنودك ألفي فارس ، ومن التركان ستة
آلاف ، وسأعطيك مائتي ألف دينار للنفقة ولكل فارس عشرين

دينار نفقة خاصة ، وسأزودك بما تريد من ثياب ودواب وآلات
وأسلحة . . هل هذا يرضيك ؟؟ وتردد أسد الدين ثم قال :

— والقواد ؟ !

— إنك تكثر من الشروط يا أسد الدين ، والله إن تأخرت أنت
عن المسير إلى مصر لأسيرن إليها بنفسى ، فإننا إن أهملنا أمرها
ملكها الفرنج .

— عفوا يامولاي ، إننى لم أقصد إلى هذا ، ولكننى لمست بنفسى
أسباب الفشل فى الغزوتين الماضيتين ، وأريد ألا تتكرر المأساة هذه
المرّة . فقال نور الدين :

— سأبعث معك خير قوادى ، ورجال جيشى ، سيصحبك
عز الدين جرديك ، وغرس الدين قلعج ، وشرف الدين برغش وناصر
الدين خمارتكين ، وعين الدولة بن الياروقى ، وقطب الدين ينال ،
وغيرهم ممن تريد فهل يرضيك هذا ؟

— شكراً جزبلا يامولاي . . فى هؤلاء الكفاية .

ثم نظر إلى ابن أخيه وقال :

— تجهز يا يوسف للمسير معى .

فغضب صلاح الدين وقال :

— والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت

بالاسكندرية من المشاق مالا أنساه أبداً .

فالتفت أسد الدين إلى نور الدين وقال :

— لا بد من مسيره معي يا مولاي .

فنظر نور الدين إليه وقال :

— لا بد من مسيرك مع عمك يا صلاح الدين فهو يريد أن يشد

أزره بك وأنت ابن أخيه .

فقال صلاح الدين :

— لقد قاسيت الشدائد يا مولاي في السفرة الأخيرة من قلة

النفقة والدواب .

— سأزودك بما تريد فاعقد العزم ولا تتردد .

فسكت صلاح الدين لحظة وقال :

— اتركني للغد يا مولاي استخير الله .

وخرج أسد الدين ليعد العدة للمسير العاجل فقابل الشيخ أبا الحسن ،

وأفضى إليه بخبر الحملة الجديدة وذكر له أن ابن أخيه صلاح الدين

لا يريد السفر معه ؛ فقال أبو الحسن :

— عليك بالشاعر حسان العرقلة فهو صديق صدوق لصلاح الدين

وقد اختص به مجالسه وينادمه ، ويمدحه كثيرا بشعره .

فأرسل أسد الدين فدعاه وطلب إليه أن يذهب إلى صلاح الدين

فيحرضه على المسير معه إلى مصر ؛ وأعد العرقلة أبحاثاً في نفسه ،

وذهب إلى دار صلاح الدين .

أما صلاح الدين فقد خرج من لدن نور الدين مهموماً محزوناً

وسار إلى داره فتوضأ وصلى ، وتناول المصحف وفتحته ، وبدأ يقرأ

سورة البقرة ، وقرأ ، وقرأ إلى أن وصل إلى قوله تعالى :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ »

وتابع القراءة إلى أن قرأ :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا

شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »

واطمأنت نفسه ورضيت ، واستمر في القراءة ، ودخل عليه

العرقلة وهو يقرأ قوله تعالى :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، مَنْ ذَا الَّذِي

يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضاً حَسَناً فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيراً وَاللَّهُ يَقْبِضُ

وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

فقال العرقلة :

— صدق الله العظيم : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضاً حَسَناً

فَنُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيراً »

وبدأ ينشد صلاح الدين أبياته حاثاً ومحرضاً :

وهل أخشى من الأنواء بخلا إذا ما يوسف بالمال جادا

فتى للدين لم يبرح صلاحا وللأعداء لم يبرح فسادا

لئن أعطاه نور الدين حصنا فإن الله يعطيه البلادا

إلى كم ذا التوائى فى دمشق
عروس بعلمها أسد هزبر
ألا يا معشر الأجناد سيروا
فما كل امرء صلى مع النسا
وقد جاءكم مصر تهادى
يصيد المعتدين ولن يصادا
وراء لوائه تلقوا رشادا
س مأموما كمن صلى فرادا
فضحك صلاح الدين وقال :

— لقد اطمأنت نفسى يا عرقله بعد قراءة القرآن :

وسأسير إلى مصر .

— وسيكون لك ملكها كما ملكها يوسف بن يعقوب .

— لست أسعى لهذا يا عرقله . إننا نجاهد من أجل المسلمين .

— وإن مُلِّكتها فكم تعطينى .

— والله لئن مُلِّكت مصر لأعطينك ألف دينار .

وأرسل نور الدين الفقيه عيسى الهكاري برسالة الى الخليفة العاضد

يخبره بقرب وصول النجدة ، وسار مع جيش أسد الدين إلى دمشق

ليودعه قبل رحيله إلى مصر .

القلب الذهبي

خرج جيش أسد الدين من دمشق في طريقه إلى مصر، وفي صحبته أبو الحسن وعبد الرحمن، وقد فرح كل منهما بلقاء صاحبه فكانا يقضيان الوقت معاً في حديث مستمر، وأبو الحسن يسأل عن أحوال مصر وأخبارها، وعن أصدقائه واحداً واحداً، وعبد الرحمن يجيب ويسهب في الاجابة، فإذا أمسى المساء، وأناخ الجند للراحة والنوم، جلس عبد الرحمن وحده خارج الخيمة ينظر إلى السماء ويتذكر مصر ويحن إلى من فيها، وصورة فاطمة ترافقه في كل آن وحين، في حله وترحاله، في نومه ويقظته - إنه يتذكر دائماً موقفها أمامه في المكتبة وهي تودعه قبل سفره وتوصيه بنفسه، وبالرسالة خيراً، ووجهها الملائكي ينظر إليه بكله - بعينيه البراقبتين ووجنتيه الحمراء، وأنفها المستقيم الدقيق، وفمها الصغير، ووجهها المشرق، ثم يذكر كيف مدت يدها إليه تقدم له القلب الذهبي المسطور عليه آية الكرسي، وتطلب منه أن يحمله معه في سفره ليكون رقية تحفظه من كل شر وسوء، وتسأله أن يحتفظ به، ويحسن حراسته فهو أعز ما تملك في الحياة، فيمد يده إلى جيب يلاصق قلبه فيخرج القلب، وينظر إليه طويلاً ثم يقبله قبلة خافتة وهو يتلفح حوله، ويعيده إلى مكانه الأمين لئلا يلاصق قلبه .

وكان كلما قرب الجيش من مصر زاد جنينه إلى وطنه ، واشتد فرحه لقرب رؤيته لفاطمة ، فلما وصلوا إلى بلبس دخل على القائد أسد الدين وطلب الاذن منه لیسرع هو إلى القاهرة ليحمل إلى من فيها البشرى بقرب محي النجدة ، فأذن له وامتطى صهوة جواده يسابق الريح ، وهو يحس أن قلبه يكاد يقفز من صدره فيسبقه إلى القاهرة ، ووصل إلى قصر الأمير شمس الخلافه ، ودخل إلى الحديقة ، فرأى فاطمة في ثوب أحمر فاتح جالسة إلى جانب فسقية هناك ، تلقى فتات الخبز إلى السمك ، فوقف لحظة يتأملها ، ثم خطا نحوها في احتراس ، فلما وقف خلفها قال يخاطب السمك .

— كم أنت سعيد أيها السمك .

خففت فاطمة ، وهمت واقفة وقد وضعت يدها على صدرها من أثر المفاجأة ، وقالت :

— الشيخ عبد الرحمن ... حمداً لله على السلامة - متى وصلت ؟

— الآن فقط ، وكان من حظي أن كنت أول من قابلت .

فأطرقت ، وقالت :

— أرجو أن تكون قد وفقت في رحلتك وسفارتك .

— الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى . فقد كان التوفيق يلازمي

في كل خطوة أخطوها .

ثم سكت لحظة وقال :

— والفضل في ذلك كله لقلبك .

فارتبكت فاطمة ، وقالت :

— قلبي أنا ؟

فأخرج القلب الذهبي من جيبه وقال :

— أجل قلبك الذهبي .

فضحكت فاطمة ووضعت يدها على قلبها ، وقالت :

— لقد أفزعتني ، وطننت أنى كنت أحيانا مدة غيابك

بلا قلب .

فضحك عبد الرحمن ، وقال :

— لا ، لم أعن هذا ، عشت وعاش قلبك ، ولكن مهمتى لم تنته

أين الأمير شمس الخلافة ؟

— إنه فى غرفته .

— سأذهب لأحمل اليه البشرى ، إن جيش أسد الدين فى طريقه

من بلبس إلى هنا .

وأسرع عبد الرحمن فدخل على الأمير شمس الخلافة ، فلم يكده

براه حتى وقف ، وصاح :

عبد الرحمن ، أهلا وسهلا وحمداً لله على سلامتكم .

وتقدم فعانقه ، وقبله ، وقال :

— ما وراءك ؟

— ورأى جيش أسد الدين فى طريقه من بلبس إلى هنا ، وقد

جئت أحمل اليك البشرى .

— الحمد لله . . ياليتنا لم نهادن هذا الملك ، ولكن فليعوضنا الله خيرا في هذه المائة ألف دينار .

— مائة ألف دينار . .

— أجل ، لقد اتفقنا مع الفرنج أن ندفع لهم أربع مائة ألف دينار على أن ينسحبوا من مصر ، وقد دفعنا لهم منها مائة ألف دينار ثم أطرق لحظة ، وقال :

— ولكن البلد خربت ، وأفلست خزانتها ، والله لا يمكن أن أترك هذا المال لهم ، سأحتال حتى أسترده ، والآن سأترك قليلا فانتظرنى حتى أعود لتتناول طعام الغذاء معاً — وسأذهب إلى الخليفة وأبلغه خبر مجيء النجدة — إن القاضى الفاضل سيكون أشدنا فرحاً بهذا النبأ .

وذهب الأمير شمس الخلافة إلى قصر الخليفة ، وأخبره بوصول أسد الدين بجيشه إلى بلبيس ، وبينما هو خارج من باب القصر إذا به يقابل الوزير شاور داخلا ، فحياه وقال :

— أيها الوزير ، إن لدى أنباء سارة تهملك .

فقال شاور

— أخبار سارة ، هاتها فإن الأيام الأخيرة عودتنا ألا نسمع

أنباء سارة .

فانتحى به شمس الخلافة جانبا ، وقال

— لقد وصل أسد الدين بجيشه إلى بلبيس

فأحس شاور كأن عقربا لدغته ، وقال :

— وهل هذه أنباء سارة يا شمس الخلافة ؟

— أجل إنها لسارة ، فإن حضور أسد الدين معناه سرعة خروج

الفرنج من مصر .

— ولكن أسد الدين طامع في ملكها .

— لا أعتقد أنه جاء طامعا ، ولكنه جاء منجدا ومعينا ، وهبه

جاء طامعا يا صديقي ، أليس الخير أيها الوزير أن يملك البلد المسلمون

حتى لا تقع في أيدي الفرنج .

فبهت شاور من هذه الصراحة ، واشتد به الضيق من هذه النعمة

التي يسمعها في كل حين ، ومن كل إنسان . . المسلمون خير من الفرنج

المسلمون خير من الفرنج . . قد يكون هذا صحيحا ، ولكن معناه

زوال مجده هو ، وأقول نجمه ، وماذا يعنيه هو ، بل إنه ليفضل أن

يكون وزيرا والبلد في أيدي الفرنج على أن يملكها المسلمون فيفقد

سلطانه وجبروته ، ولكنه عاد يفكر في أسد الدين ، وما يتطلبه

جيشه من نفقات ، فقال :

— إن أنباءك السارة يا شمس الخلافة ستربك البلد كله ، فأنت تعلم

أننا لانجد المال الذي انفقنا على تقديمه للفرنج كي يسرعوا الخروج

من مصر ، فأني لنا مال جديد ندفعه لأسد الدين وجيشه .

فقال شمس الخلافة :

— دع هذا لي فأني سأدبر المال بنفسى .

— وكيف ؟

— سأذهب فأطلب من الملك مرى بعض مادفعنا له من مال .

فضحك شاور ضحكا عاليا ، وقال :

— تطلب مالا من ملك الفرنج . . إننا لم ندفع له إلا ربع ماطلب

فهل يعطيك ما أخذ ، وهو يلح كل يوم فى طلب مابقى له لدينا .

فقال شمس الخلافة :

— إنها فكرتى وسأعمل على تنفيذها ، والله يوقنى .

ثم استأذن منه ، وخرج من القصر ، ثم من القاهرة متجها إلى

معسكر الفرنج جنوب القسطنطينية ، وما أن رآه ملك الفرنج حتى

ابتدره قائلا :

— مالك واجما ، مقطب الجبين أيها الأمير ، فليس هذا عهدنا بك

فقال شمس الخلافة :

— إننا فى أزمة شديدة ، وموقف حرج أيها الملك .

— وماذا عساه أن يكون ذلك الموقف الحرج يا شمس الخلافة ،

لقد اتفقنا على الهدنة وهما نحن أولاء نحزم أمتعتنا ، ونتأهب للعودة

فماذا يحزنكم بعد ؟

— لقد قل عندنا المال أيها الملك فنحن فى حاجة إلى من يعيننا ببعضه

فدهش الملك ، وأعتقد أن وراء هذا الكلام حادثا خطيرا فقال :

— لقد غدونا أصدقاء كما كنا ، فأطلب ما تشاء أعطك

فعجب شمس الخلافة من هذا العرض ، ولسكنه خشى إن طلب

كل المبلغ الذى دفع أن يرفض طلبه ، فقال :

— لقد قلت حقا أيها الملك الحكيم ، فإننى لم أفكر أن أجد
لأحد غيرك لما بيننا من ود وإخاء — وإنى لأشتهى أن تهب لنا نصف
ما أخذت

فقال مرى :

— لقد فعلنا

فازداد العجب بشمس الخلافة فقد أجابه الملك إلى طلبه دون لجاج ،
أو نقاش ، وخشى أن يكون وراء هذه الموافقة السريعة الكريمة شيء ،
فنظر إلى الملك طويلا ، ولم يملك أن يكتف ما فى نفسه فقال :

— أيها الملك ، إننى لأعجب فى نفسى من هذا الكرم ، إذ لم يحدث
أن ملكا فى مثل حالك وقدرتك علينا ، وهب مثل هذه الهبة لقوم
هم فى مثل حالنا
فقال الملك :

— ليس فيما فعلت شيء غريب يشير عجبك ، أو دهشتك ، فأنا أعلم
أنك رجل عاقل حازم ، وأن شاور مثلك ، وأنك ما سألتنى هذا المال
العظيم إلا لأمر قد حدث

فلم ير شمس الخلافة بدا من أن يفضى للملك بسر الموقف ليبر
طلبه أولا ، وليدفع الملك إلى التعجيل بالسفر ثانيا ، فقال :

— صدقت أيها الملك ، فإن أسد الدين فى طريقه إلى القاهرة ،
ولا مال عندنا ، وقد راعينا ما بيننا من ود وصدقة ، فأرسلنى الوزير

شاور لأخبركم أنه « ما بقى لكم مقام » في مصر الآن ، فاختير أن تسرع
بالرحيل ، ونحن باقون على الهدنة محافظون على شروطها ، وسندفع
بعض هذا المال لأسد الدين عند وصوله لنرضيه ، فإذا عاد للشام ،
أرسلنا إليكم ما بقى لكم من مال

كان ملك بيت المقدس قد علم بخروج أسد الدين ، وكان يدرك
انه قد أحيط به ، فرأى من الحكمة أن يوافق على كل ما يطلبه شمس الخلافة
من شروط ، لأنه لم ينس ما لقيه ، وما لقيه جيشه من جند أسد الدين
الأشداء في المرتين المنصرمتين ، فقال :

— أنا راض بما ذكرت ، وإذا احتجتم لمبلغ آخر فاطلبوه أدفعه
لكم حتى يسهل عليكم إقناع هذا الرجل أسد الدين ، وسأعد العدة
للرحيل السريع

فأحس شمس الخلافة بعض ما في نفس الملك من ذعر وخوف ، فأراد
أن يكسب منه أكثر ما يستطيع كسبه ، فقال :

— هذا ما كنت أتوقعه من حزمك وحسن تدبيرك وإصالة
رأيك أيها الملك ، ولكنني أرى أن هناك أشياء صغيرة ، قد يكون
لها أثر خطير ، وقد تسهل لك سبيل العودة الآمنة إلى بلادك
— وما هي ؟

— أرى انك في حاجة لكسب عطف المصريين حتى لا يقيموا
العقبات في طريق عودتك ، فهل ترى مانعا من اطلاق سراح الأسرى
المصريين .

ثم سكت لحظة ، وقال :

— وأظن أنك لو أطلقت سراح طى بن شاور لكان هذا جميلا
تطوق به عنق صديقك الوزير ، يجعله يبذل الجهد لإبعاد أسد الدين
عن مصر ، وأعتقد أن هذا لو تم لكان كسبا عظيما لكم .
فقال الملك :

— ولك هذا أيضاً يا صديقي ، سنطلق سراح طى بن شاور ، وجميع

الأسرى المصريين ، فهل من مزيد؟

— كلا أيها الملك ، لقد كنت دائماً كريما معنا ، إنك ستعود إلى
ملكك ، ولكنني سأذكر دائماً حزم الملك مرّى ، ورجاحة عقله ،
وصداقته وإخلاصه .

شاوور يكرر مكررا

أحسن ملك بيت المقدس ، وقواده بالفزع الأكبر عندما علموا
بمجيء أسد الدين ، ففرضوا عليهم كفه واليوم التالي وهم يحزمون أمتعتهم
ويعدون العدة للرحيل ، فلما تم استعدادهم غادروا المعسكر إلى الصحراء
الشرقية وهم يتجنبون أن يقابلو جيش أسد الدين
ووصل أسد الدين بعد رحيلهم بأيام إلى القاهرة ، فعسكر بأرض
اللوق خارجها ، ووجد شاوور أنه لا سبيل إلى المقاومة ، فأثر أن يصانعه
ويصادقه ، فما كاد يعلم بوصوله حتى أرسل إليه الهدايا والإقامات ، ثم
صحب الأمير شمس الخلافة وذهب في اليوم التالي لزيارته في معسكره
فلما دخل في خيمته ، وقف وحى الأمير شمس الخلافة تحية الصديق
المشوق لرؤية صديقه ، ولكننه تردد في أن يديه لشاوور ، ووقف
الرجلان لحظة ينظر كل منهما لرفيقه نظرة تملأها المعاني المتضاربة
المتعارضة ، ورأى شمس الخلافة حرج الموقف فتقدم لإنقاذ شاوور
وقال :

أيها القائد الجليل القدر ، عفا الله عما ساف ، وقد جاء الوزير
شاوور لزيارتكم بعد أن ترك خلفه الماضي بجميع ما فيه من إحن وخلاف
ثم أخذ بيد كل منهما ، ووضعها في يد الآخر ، وتصافح الرجلان
وتعاهدا على أن ينسى كل منهما ما كان بينهما من أسباب النزاع ، وجلس
الثلاثة يتحدثون حديث ود ووصفاء ومحبة وإخاء ، وأراد شاوور إن

يزيل ما في نفس عدوه بالأمس من أثر سيء ، وأن يبرهن له على صدق توبته فقال :

أن مصر ترحب بكم اليوم بعد أن عانت من الفرنج ما عانت ، وإني لأذكر الآن سابق مشورتكم أن نتحد معا فنهاجم الفرنج هنا لنقضى عليهم ، فهل لديك مانع اليوم من أن نجدد هذا العزم ، فهم لا يزالون في صحراء مصر لم يغادروها بعد؟

فعجب أسد الدين من هذا الرأي ، يتقدم به شاور اليوم ، وقد رفضه بالأمس ، والفرصة سانحة ، فأجابه بلهجة الواثق من نفسه المستخف برأيه ، وقال :

لقد كان هذا رأي أيها الوزير والفرنج على البر الغربي ، وليس لهم وزر ، أما الآن فلا ، لأنهم على البر المتصل ببلادهم ، وقد وصل جندي إلى هنا بعد أن أنهكهم التعب وأكدهم السير ، فوجدنا الله سبحانه وتعالى قد كفانا شرهم ، فنحن اليوم في حاجة إلى الراحة والاستجمام

فانغم شاور لهذا الرد ، وأيقن أن أساليبه الملتوية لا تجدى مع هذا الرجل الصريح ، وأيقن أيضا أن أسد الدين قد أتي هذه المرة ، وفي نيته البقاء في مصر ، وزاد في يقينه ما رآه من كثرة الجند والعتاد وهو مقبل على المعسكر مما لم يره في المرتين السابقتين ، فخرج حزينا كاسف البال ، مضطرب الفكر ، يسمع لشمس الخلافة ، ولا يكاد يجيب إلا بلا أو بنعم ، بل كثر ما استعاد ما ألقى إليه مما لفت نظر رفيقه ، فالتفت إليه وقال :

— لقد انتهى الأمر يا صديقي ، وأصبح النضال أمراً مستحيلاً
وقد يجر عليك شراً كثيراً لو حاولته ، وأسد الدين رجل صريح
وكريم ، فما يضيرك أن تصافيه ، وتهادنه لتحافظ على ما بقي لك من
سلطان ، فذلك خير لك ولبلد ، وها أنت ذا قد لاحظت بنفسك
طيب قلب الرجل ، فإنه صفح وعفا بعد كذبات قليلة قلقتها .

فتظاهر شاور بأنه يوافق شمس الخلافة على رأيه وإن كانت نفسه
حينذاك كالبركان المضطرب تكاد تنفجر فتصيب بحممها وغضبها هذا
القائد الوافد المنذر بزوال ملكه ، وختمام حياته ، فقال :

— صدقت ، يا شمس الخلافة ، إن أسد الدين رجل كريم وطيب
القلب ، وسيكون جيشه الكبير الشجاع خير حصن لمصر يرد عنها
عادية الفرنج إن أزمعوا عودة .
ثم سكت لحظة وقال :

— ولسكني لا أخشى إلا هذا الفتي صلاح الدين ، إن له لنظرات
تفاذة قوية لا أطمئن إليها لأني أحس كلما نظر إلى أنه يكشف خبيثة
نفسى ، ويدرى كل ما يجول فيها ، وكان الرجلان قد قربا من منزل
شمس الخلافة فاستأذن من الوزير ودخل ، واستمر شاور في طريقه
حتى وصل دار الوزارة ، وصعد إلى غرفته الخاصة ، وخلع ملابسه
وأطرق يفكر طويلاً ، ويستعيد ما مر به طول أيام حياته من محن
وخطوب ومن عز ومجد ، ومضت الساعة تلو الساعة ، وخيم الظلام
وهو غارق في أفكاره ، لم ينهه إلا أشعة القمر تدخل من فتحات

النافذة في خيوط متفرقة ، فتنبير بعض ظلام الغرفة ، فترك الأريكة التي يضطجع عليها ، وقام إلى النافذة ينظر من خلالها ، فرأى القمر يشرق بدرًا كالملا ، وقد سطع نوره فملاً الأرجاء وأضفى على قصور القاهرة المتفرقة وحدائقها حلة من نور بهي وضاء ، ونفذ بعض هذا النور إلى نفسه فرفعها قليلاً عن عالم الحكم وشهواته ورأى نفسه إنساناً ضعيفاً لا صديق له يشاركه رأيه أو يحنو عليه في محنته ، وتذكر كيف قضى عمره الطويل في نضال متلاحق في سبيل شهوة زائلة ، ومجد زائف وأخذ يفكر في هذا السكون المتسق العجيب الاتساق ، يولد الناس ويدبون في الحياة يلاحق بعضهم بعضاً يشقون ويسعدون ، وتشملمهم آيات الحزن أحياناً طوالاً ، وقد يمسهم الفرح لحظات فيزيل ما علق بنفوسهم من هذه الآيات ، وساءل نفسه وهو ينظر إلى هذا البدر المنير كم أشرق هذا البدر بنوره على أقوام صفت لهم الأيام فتعموا وقطفوا من أزهار الحياة وثمارها ، وكم أشرق وهو في رحلته أيضاً على أقوام آخرين ، أصابتهم الأقدار بمحنها وويلاتها ، والبدر كما هو يسير سيرته ، ويرتحل رحلته ، يجد فيه البعض لونا من ألوان الجمال ويسامر البعض فيفضون إليه بما يقض مضاجعهم ، ويخز نفوسهم من آلام ، ونظر أيضاً وأطال النظر فوجد سماء مصر الصافية ، وقد انتشرت في جميع أرجائها النجوم اللوامع تحيط بهذا القمر الساطع ، وكأنها الحاشية أو الجند يسرون في حراسته وحمايته يتضاءل نورها إذا سطع بدرًا فلا تلتفت إليها الأنظار ، ويلع ضوءها فتبهاهي إذا

اختفى ، فلا ينير العالم غيرها ؛ وترك هذا العالم إلى نفسه ، وراح يتساءل . . ترى أتكون حياته حياة هذا القمر . . لقد بدأ حياته جندياً صغيراً ، كما بدأ هذا البدر فكان هلالاً . . ثم ارتقى وارتقى حتى أصبح وزيراً فكان ملاً السمع والبصر كما يبدو هذا البدر الآن يجذب إليه الأنفس والأبصار ، وستمضي الأيام فيصبح البدر محاقاً لا يكاد يرضى ، ترى أوصل هو إلى محاقه أم قرب من هذا المحاق .

ولم يكد يصل في تفكيره إلى هذه النهاية حتى اتجه بعقله ونفسه إلى معسكر أسد الدين يستعرض ثانية مجلسه ذلك اليوم هناك ، وما دار بينه وبين أسد الدين أولاً ، وبينه وبين شمس الخلافة ثانياً من حديث ، فعادت إليه الهموم تتكالب ، وما درى أن شخصاً متخفياً كان يدب في ذلك الحين في طريقه إلى معسكر أسد الدين ، فلما وصل قاده الجندي إلى خيمة القائد ، ولشد ما كانت دهشته عندما خلع الزائر رداءه ، وأزال تنكره فإذا به الخليفة العاضد نفسه ذهب ليرحب بأسد الدين فلما استقر به المقام تحدث إليه في شئون كثيرة ، ثم أسر إليه برغبته الشديدة أن يسعى لقتل الوزير شاور لأنه لا يثق به ، ولا يأمنه على نفسه ، وعلى أسد الدين نفسه ، وأبان له أن وجوده بلاء وشر على البلد وأهله ، فمن الخير أن يقضى عليه .

لم يدر شاور من أمر هذه الزيارة شيئاً ، لأنه كان غارقاً في أحلامه وتأملاته التي أفضت مضجعه تلك الليلة ، فلم ينم إلا قبيل الفجر ، ولم

يكن في نومه أحسن حالا منه في يقظته إذ لاحقته الأحلام المزججة
المفرجة فاستيقظ مقبوض النفس ، تعلو وجهه غبرة ، وترهقه قنرة ،
إن حلما من بين الأحلام التي رآها أفزعه وأرعبه . فقد رأى أنه
دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلا وبين يديه دواة الوزارة
وهو يوقع منها بأقلامه ، فسأل عنه ، فقيل هذا رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وهو يعلم علم اليقين أن الأحلام جميعا تحتل أكثر من
تأويل واحد إلا الحلم يظهر فيه رسول الله ، فإنه حلم صادق بظاهرة
وباطنه لا تأويل له ولا تفسير ، وتداعت الذكريات في نفسه فتذكر
حلمه الذي رآه وهو نائم تحت النخيل في العريش . الحلم الذي رأى
فيه الرجل ذا وجه الأسد يزوره في بيعته ثلاث مرات ، فإذا كانت
الزيارة الثالثة انقلب أسدا ثم انقض عليه فصرعه ، تذكر هذا فثارت
به آلامه وشجونته وأحزانه ، وراح يدبر في نفسه أمرا ، ويمكر مكرآ
والله أشد مكرآ ، وأجل تدبيرآ .

قتل شـاور

قضى شاور معظم ليلته ساهراً ، وكذلك فعل أسد الدين ، فقد مكث ساعات بعد خروج العاضد من خيمته ، وهو يفكر في هذا البلد الغريب الذى يستبد به وزير مخاتل مخادع كشاور ظل ست سنوات يستبد بالشعب فيه ويحرم الخليفة السلطة ، فيستأثر بها لنفسه ، ويلعب بقوتين خارجيتين معاديتين : قوته هو أسد الدين ، وقوة الفرنج ، وظل يدبر الأمر فى نفسه ، فهذا البلد خير مهد لقوة عظيمة يعتز بها الاسلام وهو فى نضاله وجهاده ضد الفرنج ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، والأمر فيه فوضى لا يطمئن إنسان لصاحبه ، ولا يثق صديق بصديقه لقد مضى عليه يومان أو ثلاثة منذ نزل بأرض اللوق خارج القاهرة ، ووفود المصريين من سرايهم ، وفقهاهم ، وتجارهم ، تفد على معسكره وحديثها كانه ترحيب به وبقدومه واستغاثة خافته مكتومة من هذا الرجل المستبد بالحكم فيهم ، وفى الليل يأتى خليفتهم متنكرا فيدس لوزيره ، ويطلب منه أن يقتله .

قضى أسد الدين ليله يفكر فى هذا كله . ولكنه لا يجد السبيل إلى الغدر بشاور ، لقد زاره الرجل وصاحبه وصافاه ، فكيف يخون العهد ويفتك به ، لقد غدر به شاور أكثر من مرة ، وناوأه وكافه ، واستعان بالفرنج ضده ، ولكنه اعتذر عن الماضى ، وسعى إليه راغباً فى صداقته .

كان أسد الدين رجل حرب وجهاد ، سريع السكره ، سريع الصفح لا يحمل ضغنا أو كراهية ، ولا يبديت الشر في خفاء ، فهو أبعد الناس عن السياسة ، قضى حياته كلها مشهوراً سيفه في الميادين يجالد عدوه ويناهضه حتى ينتصر عليه ، فإذا أقر العدو بضعفه وطلب الهدنة والأمان هادنه وأمنه ، ولهذا لم يشأ أسد الدين أن يسرع بقتل شاوور بل ترك الآقدار تجري في أعنتها ، وغفر للرجل ما سلف ، وشعر شاوور بصفح أسد الدين فتقرب إليه ودأب على الركوب كل يوم إلى معسكره فيقتضى معه بعض الوقت ، أو يركبان فيسيران سوياً يتجاذبان أطراف الحديث ، فيمد له شاوور بالعود ممدأ ، ويمنيه الأمانى الطيبة فإذا عاد إلى داره خلا بنفسه ، وظل يعمل فيكره ، ويدبر المكيدة للإيقاع بأسد الدين ورجاله ، فهو يرى الخليفة يسبل عليه عطفه كل يوم فيرسل له ولرجاله الخلع والهدايا والإقامات ، وهو يرى جند أسد الدين ينبشون بين الشعب فيلقون حياً واکراماً بينما هو إذا سار هذه الأيام في موكبه لقي وجوماً وإعراضاً ، ولم يحس علامات التجلتة والاحترام التي كان يقابله بها المصريون من قبل ، بل كان كلما مر بينهم سمعهم يهمسون ، ورآهم يشيحون بأوجهم عنه حتى لا يرونه ولا يراهم ، فكان يحس أن دولته قاربت أن تدول ، وأن نجمه كاد يأفل ، فثارت نفسه ورأى أن المعركة الآن أصبحت بينه وبين أسد الدين ، إن أبهة الملك لا تحتملها معاً بل لا بد لأحدهما أن يفسح الطريق للآخر ، واعتقد

أنه إن لم يبادر فيزيل أسد الدين ، فلا بد أن يسعى أسد الدين إلى إزالته ، فقرر أن يدعوه ورجاله إلى وليمة خاصة ليفتك بهم ، وهم في ضيافته ، ولم يجد من خاصته ورجال دولته من يثق به فيفضي إليه بنيته إلا ابنه الكامل فاستدعاه وحدثه حديثا لينا وأطال في الحديث ليمهد للخبر ، وليبين لابنه خطر أسد الدين ، وحكمة هذا القرار الذي يريد تنفيذه ، ولكن الكامل لم يكن ليوافق أباه على رأيه وهو ممن عملوا الحيلة لاستدعاء أسد الدين والاستئجاد به ضد الفرنج فلم يكده يسمع قول أبيه حتى صاح معارضا .

— ما هذا يا أبت ، « والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن

أسد الدين »

فغضب شاور من جرأة ابنة ، ولكنه أراد أن يقنعه ليكسبه إلى

جانبه فقال :

— يا كامل تدبر في الأمر بعين اليقظة « والله لئن لم أفعل هذا

لنقتلن جميعاً »

فلم يبال الكامل بهذا الوعيد وقال :

— صدقت ، و « لان نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين

خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج فليس بينك وبين عود الفرنج

إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى

نور الدين بنفسه لما أجابه ، ولما أرسل إليه فارسا واحدا فيملك

الفرنج البلد ، وتزول دولة الإسلام .

سمع شاور هذا الكلام من ابنه فأيقن أن لافائدة من جداله ،
وقال في نفسه « لئن كان هذا اعتقاد ولدى فكيف يكون اعتقاد غيره
من لا يمتون إلي بصلة » وسكت على مريض إذ وجد أنه لم يعد في
جعبته إلا سهم واحد وذلك أن يصفاني أسد الدين ، ويبدل له الود
ليبقى له بعض ما كان يتمتع به من سلطان ، ولسكن الخليفة العاضد
كان يبعث الرسول بعد الرسول إلى أسد الدين يجرضه أن يسرع
بالقضاء على شاور فوجد أسد الدين أن يجمع رجاله وقواده ليستشيرهم
في الأمر ، فإنه لازال يحس في نفسه التردد ، ولا يستسيغ الإيقاع بالوزير
وانتظم المجلس أسد الدين ، وابن أخيه صلاح الدين ، وجميع قواد
جيشه وعرض عليهم أسد الدين الأمر ، وتطارحوا القول وتبادلوا
المشورة فكان أشدهم مهاجمة لشاور صلاح الدين إذ قال :

— أيها القواد العظام ، لقد شاهدتم غنى هذه البلد وثروتها وعلمتم
أن الفرنج كسفوا عورتها ، وعرفوا مسالكها ، فتأكدوا أننا إذ
خرجنا منها اليوم لأسرعوا إليها في الغد ، وكلكم تعلمون كيف كان
يلعب بنا وبالفرنج ذلك الرجل شاور ، وكيف كان يوقع بيننا وبينهم
ليخلوا له الجو فينفرد بالسلطان فيها ، وقد ضيع أموال مصر في غير
وجهها ، وقوى بها الفرنج علينا وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم
إلى هذه البلاد التي قل رجالها وهلكت أبطاها .

فقال أسد الدين :

— كل ما قلت صحيح ، فماذا ترى ؟

— أرى أن يقتل شاور ، ففي قتله جلاء للهوقف ، واستقرار للامور
فصاح أبو الحسن ، وكان حاضرآ مجلسهم يسمع ولا يتكلم ، وقال :
— سلبت وغنمت ياصلاح الدين - والله لهذا هو الحل ، ولا حل
غيره . . . اقتلوا رجلا تنقذوا شعبا ودينا .

فلم يتمالك عز الدين جرديك أن قال :

— إن صوت الشعب من صوت الله ، وهذا أيها القائد العظيم
مصرى ينطق بصوت المصريين ، وقد استمعت بنفسك لو فودهم التي
جاءت ترحب بك ، وكلهم يشكون هذه الشكوى ، ويبنون ما يجدون .
وكان أسد الدين يحب أن يدافع عن شاور فهو رجل نبيل يقدر
قيمة كلمته التي قالها لشاور ، ووعد أنه ينسى الماضي ، ويبدأ صفحة
جديدة كلها صدق ، وصدقة ، وإخاء ، فقال :

— ولكنني وعدت الرجل .

فقال عز الدين جرديك :

— أترك هذا الأمر لنا .

وقال صلاح الدين :

— أجل أترك هذا الأمر لنا .

وأمن الجمع على هذا الرأي ، واتفقوا على أن يتولى صلاح الدين
وعز الدين جرديك القبض على شاور ، واضطر أسد الدين أن
يخضع لرأيهم .

وكان شاور قد دأب أن يركب كل يوم عند الأصيل في أبهة الملك

والعدة الحسنة ، والآلة الجميلة ، والطبول والأبواق تسبق موكبه ،
فيذهب إلى معسكر أسد الدين ليقضى بعض الوقت في حديث وسمير ،
ومضت على أسد الدين سبعة عشر يوما وهو ينتظر من الخليفة الوفاء
بالوعد ، والخليفة يقر أنه لا يستطيع وفاء وشاور وزير ؛ وشاور
يعد ، ويمنى ويماطل .

وفي اليوم الثامن عشر خرج شاور في موكبه المعتاد وامتطى صهوة
جواده الحبيب الى نفسه (منصور) والطبول أمامه تدق ، والأبواق
تنفخ ، والجنود يحيطون به ويتبعونه ، وكان يحس ضيقا في صدره ،
فتناقل في مشيته ، وأحس الجواد بعض ما يحس سيده من ضيق وقلق
واضطراب ، فمشى الهويناء مطر قاحتي وصل الركب إلى معسكر أسد الدين ،
فخرج صلاح الدين للقائه ، ورحب به ، ودعاه للإقامة حتى يحضر عمه
فقد خرج لزيارة قبر الإمام الشافعي ولما يعد بعد ، فاعتذر شاور وقال
بأنه سيذهب للقاء أسد الدين عند قبر الإمام فنادى صلاح الدين
صديقه عز الدين جرديك ، وقال :

— لقد حضر الوزير لزيارة عمي أسد الدين ، فلها لم يجده رغب
أن يلحق به عند قبر الإمام الشافعي ، فهل لديك مانع أن نصحب
الوزير إلى هناك .

ففهم جرديك رغبة صلاح الدين وقال :

— لا مانع عندي ، إن إكرام الوزير واجب من واجباتنا .
وركب القائدان وسارا إلى جانب الوزير حتى قربا من مقبرة

السيدة نفيسة ، فنظر صلاح الدين إلى الأرض الخالية الممتدة
أمامهم ، وقال :

— إن هذا المكان يصلح ميدانا جميلا للعب ، والله لقد اشتقت للعب
فضحك شاور وقال :

— في الحق إنك لاعب ماهر يا صلاح الدين ، لقد شاهدت لعبك
عند زيارتي للملك العادل نور الدين منذ خمس سنوات ، فأعجبت
به أيما إعجاب .

فقال صلاح الدين :

— إن هذا المكان الفسيح يغرى بالعدو والتسابق فهل تحب أن
تتسابق حتى نصل إلى قبر الامام .

فقال شاور :

— لا مانع عندي .

ووقف الثلاثة في صف واحد ، وأعطى جرديك علامة الابتداء
فانطلق كل منهم يسابق الريح بجواده ، فلما بعدوا عن حرس شاور ،
أشار صلاح الدين لجرديك أن يبطنه قليلا ، وقرب هو بجواده من
شاور وضربه بكتفه ضربة قوية أفقدته توازنه فمال يسارا ، وكاد
يسقط فلحق به عز الدين جرديك ، وألقى عليه جبلا فقيده به كتفيه ،
وجره إلى الأرض ، وترك الجواد يعدو وحده ، وحاول شاور أن
يقاوم ، وصرخ يستنجد ويستغيث تارة ، ويهدد ويتوعد تارة أخرى
ونظر إلى صلاح الدين بعينين يتطاير منهما الشرر وقال :

• — فعلتها يا نعيم

فتقدم صلاح الدين وكمه بمنديل في يده ، وقال :
— اسكت يا غادر ، والله لو لا أنك أسيرى الآن ، ولا تستطيع

الدفاع عن نفسك للطمتمك على فمك هذا الذى يجرؤ على شتمى .

ووقف صلاح الدين يحرس أسيره ، وذهب عز الدين جرديك
فأحضر خيمة أودع فيها شاور ، وأسرع إلى قبر الامام الشافعى فوجد
أسد الدين جالسا يستمع إلى شيخ ذى عمامة كبيرة ، وعينين واسعتين
ولحية طويلة ، فأشار اليه أسد الدين أن ينتظر ، وعجب عز الدين
جرديك ، ترى من يكون ذلك الشيخ الذى يجلس أسد الدين فى
حضرته خاشعا هكذا ، وسأل عنه رجلا يصلى هناك فقال له إنه الشيخ
العابد الصالح نجم الدين الخبوشانى .

فلما انتهى أسد الدين من حديثه نادى عز الدين جرديك فذهب ،
وأسر اليه الخبر ، فدهش أسد الدين ، ونظر إلى الشيخ نجم الدين ، وقال :
— هذا تأويل ما رأيت يامولانا ، وقد صدق تفسيرك .

فسأل جرديك :

— وماذا رأيت

— رأيت ليلة أمس كأن شاور دخل دارى وناولنى سيفه وعمامته
فجئت استفسر مولانا الشيخ عن معنى هذا الحلم فأخبرنى أنى أقبض
على شاور ، وأقتله ، وأكون وزيراً مكانه .

ولم يكذبتم حديثه حتى أقبل عليه جندى من جنود الخليفة مسرعاً

يلهث ، فحيا ، وقبل الأرض ، وقدم رسالة معه لأسد الدين فتحها ،
وقرأها ، ثم نظر إلى صاحبيه ، وقال :

— يخيل إليّ أن أجل هذا الرجل قد حان فهذه رسالة أمير
المؤمنين يحثني على قتل شاور ، وموافاته برأسه .

فبدت الدهشة على وجه عز الدين جرديك ، وقال :
عجيب أمر هذا البلد . . . أبهذه السرعة تصل الأخبار إلى الخليفة
ويأتى رسوله يطلب قتل شاور . لقد قبضنا عليه منذ لحظات ، وأتيت
بعدها مسرعا لأخبر سيدي القائد ، يخيل إليّ أن وراء كل فرد هنا
جاسوسا يحصى عليه خطواته .

ولم يلق أسد الدين بالآل لكلام جرديك ، بل نظر إلى الشيخ نجم
الدين وكأنه يسأله رأيه ، أيجيب دعوة الخليفة فيبادر بقتل شاور ، أم
يكتفي بسجنه .

وفهم الشيخ مقصده فقرأ قوله تعالى :

« وإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون »

فأدرك أسد الدين ما يرمى إليه الشيخ وانتحي بعز الدين جرديك
ناحية ، وأمره أن يذهب فيحتمال هو وصلاح الدين لقتل شاور ، وأن
يصحب معه رسول الخليفة ليحمله رأس القتييل .

وعاد الرسول بعد قليل إلى الخليفة يحمل رأس شاور على طبق من
فضة ، فمأثت نفسه فرحا ، وأحس كأن كابوسا كان يحتم على صدره
فرفع عنه ، وشاع الخبر بين أهل القاهرة وعامة الشعب فخرجوا جماعات

وتجملوا فرحين يحمدون الله أن نجاهم من شر هذا الرجل وظلمه ،
وعاد أسد الدين بعد قليل إلى القاهرة في طريقه إلى المعسكر فرأى
الناس عن بعد وهم يقبلون نحوه جماعات ، فظن أنهم غضبوا لقتل
وزيرهم ، وأنهم يقصدون به شراً ، فقرب منهم ، وقال :

— أمير المؤمنين يأمركم أن تذهبوا فتنهبوا دار شاور .

فعلا صياحهم ، وهملوا فرحين ، وتركوه مسرعين نحو دار شاور

الوزير أسد الدين

تدافع سكان القاهرة مسرعين نحو دار الوزارة، فلما أحس بهم الكامل بن شاور، فر بأهله من باب خلقي، واتجهوا نحو قصر الخليفة في حال شديدة من الذعر، وانقض العامة على دار الوزارة فطموا أبوابها، وانبثوا في حجراتها وأبوابها يسلبون تحفها، وينهبون طرفها ويحملون أثاثها ورياشها، ويزيلون آيات زينتها، ولم يتركوها إلا قاعا صفصفا، وخرجوا في مظاهرة قوية فرحة يشقون شوارع القاهرة حتى وصلوا إلى باب القنطرة، فنفذوا منه متجهين إلى معسكر أسد الدين وهم يهتفون بحياته، ويلوحون بأيديهم التي تحمل مانبها من غنائم كالكراسي الجميلة المطعمة بالأبنوس والعاج، والأرائك المكفنة بالفضة والنحاس، والأواني الخزفية الرائعة المنقوش والملابس والحلي والجواهر... فخرج إليهم أسد الدين على جواده يحيط به قواده وحاشيته فحياهم ورحب بهم:

وكانت الشمس قد مالت نحو المغرب، وبدأ الظلام ينتشر، وزاد الظلام حلوكه طبقات السحب الكثيفة تغطي صفحة السماء من ناحية الغرب، ولم تلبث الأمطار أن تساقطت رذاذا فهلل المتظاهرون واعتبروا ذلك فألا حسناً، ثم تتابع المطر، وانهمر غزيراً فلم يطيقوا وقوفاً، وكروا راجعين، وهم يرقصون ويغنون متخذين من الآوان النحاسية التي في أيديهم دفوفاً وطبولاً.

وكان الحراس قد انتشروا فوق سور القاهرة ، وأبوابها ويدهم المشاعل ، فأرسلوا صيحاتهم عالية تنادى العامة بالاسراع قبل أن تقفل الأبواب ، فلما دخل آخرهم ، صدرت الأوامر للحراس فتعاونوا على جر الأبواب الضخمة ثم جذبوا قضبان الحديد خلفها وأحكوا ارتاجها ، ووقفوا يحرسون هذه المدينة التي آوت إلى فراشها بعد أن أكدها النضال وهدها التعب ، ويرقبونها وهي تغتسل بذلك الماء السماوي من آفات تلك العصبه المتتابعة من الوزراء المتكالبين على الوزارة وكان خمسون حارسا يطوفون في ذلك الحين بقصر الخليفة السكبير وعلى رأسهم أميرهم — سنان الدولة — فلما سمعوا المؤذنين يدعون للصلاة من قاعة الذهب داخل القصر ، وقفوا يرقبون الإشارة بانتهاء الصلاة فلما وصلتهم أخذت الطبول تدق ، والأبواق تنفخ بنغم جميل هادىء كعادتهم كل ليلة تحية للخليفة ، ثم خرج أحد الأستاذين من القصر فتقدم نحو أمير الحرس وقال :

« أمير المؤمنين يرد على سنان الدولة السلام »

فأمر سنان الدولة بغلق أبواب القصر ، ودار حوله سبع دورات ووقف البوابون لحراسة الأبواب ، وصدرت الأوامر بمنع الناس من المرور قرب القصر .

فلما أحس الخليفة بالهدوء ينشر ألويته على القصر والمدينة التف في عبادة وتلثم بمنديل . وخرج إلى فناء القصر . وركب حمارة فصعد بها زلاقة تؤدى إلى بهو في الجهة الخلفية من القصر فاجتازه إلى منظره

تشرف على المدينة فتقدم إلى ذولاب خشبي كبير في الحائط فخلع بعض أجزائه فظهر من خلفه ممر طويل فترك الدابة ودخله ، واجتازه حتى انتهى إلى سلم صغير فنزل فوجد سردابا طويلا فسار فيه مدة وإذا به يرى ضوءا خافتا في نهاية السرداب ، وسمع صوتا يقول :

— من القادم

فنتطق الخليفة بكلمة السر فلها وصل حيث يقف الحارس خلع لثامه فركع الرجل ، وقبل الأرض ثلاثا وقال : —

— السلام على أمير المؤمنين

فرد الخليفة السلام وسأله :

— أين آل شاور؟

— إنهم في الغرفة العاشرة من السرداب التالي يا أمير المؤمنين .

— وأين رئيس السجائين؟

— قائم على حراستهم هناك يا أمير المؤمنين ،

— أذعه لأكله

فلما أتى أسر إليه الخليفة أمراً ثم عاد في طريقه إلى غرفته الخاصة .

ظلت السماء تسكب دموعها غزارا طول الليل حتى خف عنها

هابها ، وأحست بعض الراحة مما كانت تعاني فانقطع وابلها وصفت

وزالت سحجها ، وبدت بعض النجوم في ضوء ضعيف ترنو نحو المدينة

وساكنيها حانية عليها وعليهم ، وكان القمر في نهاية رحلته الشهرية

فأشرق هلالا صغيراً قبل الفجر ، ولم يلبث إلا قليلا حتى مال نحو

الغروب ، وبدت تباشير الفجر أضواءً باهتة ، فنفتح حراس القصر في
الأبواب معلنين نهاية الليل وقرب الصباح ، فانكش حراس المدينة
ناحية يغفون إغفاءة قصيرة تريحهم من عناء السهر ، وأخذت مشاعلمهم
تقلل من نورها بعد أن ظلت الليل كله تحترق لتثبير وتقاوم ما يهب عليها
من ريح الشتاء وما يتساقط عليها من قطرات الماء .

واستمع سكان القاهرة لأبواق القصر تعلن اقتراب الفجر فتقلبوا
في فرشهم وهم يطاردون النوم عن أعينهم ، وسلطان النوم يغلبهم ،
وأجسامهم تتراخي طالبة المزيد من النعاس بعد تعب اليوم السابق .
وخرج المؤذنون — كالأشباح — نحو مساجدهم ، وارتقوا المآذن
يدعون الناس للصلاة ، فتزك الناس دورهم وأسرعوا يجيبون الدعوة
وانتهوا من صلاتهم وعادوا إلى منازلهم ، وقد انتشر نور الصباح ،
وشاع في المدينة ذات القباب والمآذن والقصور .

وأطفأ الحراس مشاعلمهم وتركوا الأبواب لحراس النهار ، وفتحت
الأبواب ليدخل الوافدون ويغادرها الخارجون ، وكان أول الخارجين
من باب القنطرة جنديان من جنود الخليفة يحملان أواني من الفضة
مغطاة بقطع من الحرير .

كانت هذه الأواني تحمل رؤوس الكامل بن شاور وآل بيته هدية
إلى أسد الدين من الخليفة العاضد .

وعند الضحى وصلت رسل آخرون على رأسهم الأمير شمس
الخلافة يحملون إلى أسد الدين خلع الوزارة ، وتقدم شمس الخلافة

يعرض الخلع على أسد الدين ويجلوها إليه قطعة قطعة وهو ينظر إليها مشدوهاً معجباً بجمالها ونفاستها والقواد حوله أشد إعجاباً وأعظم شوقاً لرؤيتها يتدافعون لمشاهدتها ويتبادلونها ويمسكون أطرافها ويمرون بأيديهم على زخارفها ، وشمس الخلافة مشغول بتقديمها ووصفها وهو يقول :

— هذه عمامة الوزير البيضاء المطرزة بالذهب من صنع تينيس —
— وهذا ثوب الوزارة بطرازين من ذهب صنع في ديبق — وهذه جبة تحتها سقلاطون ومعها الطيلسان ، والجميع يزينها طراز دقيق من الذهب ، وقد صنعت أيضاً في ديبق ، وهذا عقد يحلى الوزير به جيدة كله من الجواهر الخالص وقيمته عشرة آلاف دينار ، وهذا سيف الوزارة محلى بجوهر وقيمته خمسة آلاف دينار .

ثم ترك أسد الدين وصحبه فاغرى أفواههم فاتحى أعينهم وبعد قليلاً فقاد فرس الوزير فمشت إلى جانبه تهادى ، وتحنى رأسها ثم ترفعها متعاجبة ، والذهب والجوهر يحلى عدتها وأجزاء جسمها فيخطف للألأوها الأبصار ، وقدمها شمس الخلافة إلى أسد الدين وهو يقول :
— هذه الفرس بما يزينها هدية مولانا أمين المؤمنين إلى وزيره القائد الباسل أسد الدين .

وارتدى أسد الدين ما أرسل إليه من خلع وراح ينظر إلى نفسه معجباً بمبلايسه الجديدة ، وأحس في نفسه بزهو وكبرياء لم يمهدهما من قبل فقال في سريره :

— إني أعذر الآن شاور على تفانيه في سبيل هذه الأبهة والخلاء
وما يتبعهما من عز وسلطان .

وخرج فامتطى الفرس وخلفه صلاح الدين والأمير شمس
الخلافة وقواد الجيش الآخرون ، وسار الموكب مخترقا شوارع القاهرة
وقد اصطف الناس على جانبي الطريق لرؤية الوزير الجديد ، والترحيب
به . ووصل الموكب إلى القصر فدقت الطبول والكوسات ونفخ في
الأبواق ووقف الجند في أجمل زيتهم تلعب سيوفهم ودروعهم لتحية
الوزير الجديد ، ودخل أسد الدين ، وظل يمتاز غرف القصر وأبهاءه
وهو لا يكاد يصدق عينيه : ماهذه الروعة ، وما هذا الجمال ، وما هذه
الزينة ، وما هذا الترف !!؟

وانتهى به السير إلى قاعة الذهب فوجد في صدرها ستور الديباج
تخفي وراءها سرير الملك ، فلما انتظم المسكان جميع الحاضرين تقدم
أحد الأستاذين المحنكين الخواص فوضع دواة الخليفة في مكانها المعد
لها ، ووقف الوزير الجديد أسد الدين — كما جرت العادة أن يقف
كل وزير من قبل — إلى جانب باب المجلس وعن يمينه زمام القصر ،
وعن يساره زمام بيت المال ، وحواليه الأمراء المطوقون أرباب
الخدم الجليلة ، ويليمهم قراء الحضرة ، ثم أشار صاحب المجلس إلى
الأستاذين فرفع كل منهم جابب الستر المذهب الجميل المحلى بنحو ألف
وخمسمائة وستين قطعة جوهر ذات ألوان مختلفة متباينة وظهر الخليفة
جالسا على المرتبة المؤهلة لجلوسه في هيئة جليلة على سرير الملك المذهب

وبدأ قراء الحضرة بقراءة بعض آى القرآن الكريم ، وأحسنوا
الاختيار فقرأوا قوله تعالى :

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن
تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل
شئ قدير . . . »

ثم تقدم الوزير فحيا الخليفة وقبل يديه وتأخر قليلا وجلس على
مخدة مزركشة مذهبة طرحت على الأرض ، ووقف الأمراء فى أما كنهم
المقررة فانتحى صاحب الباب وقائد العساكر ناحيتى الباب يمينا ويساراً
وتلاهم من الخارج عند عتبة الباب زماما الفرقتين الآمرية والحافظية
ثم من دونهم من الأمراء والقواد والأجناد إلى آخر السرداق المؤدى
إلى قاعة الذهب ، وتقدم قاضى القضاة ورفع يده اليمنى مشيراً بسببته
علامة التحية ، وقال بصوت مسموع :

— « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » وتقدم بعده
الأشراف أقارب الخليفة ومعهم زمامهم والأشراف الطالبيون وعلى
رأسهم شيخهم فحياوا الخليفة ثم قدم العاضد منشور الوزارة إلى صاحب
الباب ففضه وبدأ يقرأ :

« هذا عهد لاعهد لوزير بمثله من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد
لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل المنصور سلطان الجيوش ولى
الأئمة مجير الأمير أسد الدين أبى الحارث شيركوه العاضدى عضد الله
به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلبته ،

سلام عليك فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي
على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين
وسلم تسليماً ، تقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها ، فخذ كتاب
أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن إعتزت خدمتك إلى نبوة
النبوة واتخذة سيلاً للفوز سيلاً »

فلما أتم قراءة المنشور أفضه بشرط من حرير وناوله للوزير فقبله
وتقدم فقبل يدي الخليفة العاضد وشكره على هذا الإنعام ووعد أنه
يبدل الجهد في خدمة أمير المؤمنين وخدمة مصر وأهلها والدفاع عن
بلاد الإسلام . ثم تقدم الحاضرون فئة بعد فئة لتمنئة الوزير .

وصدر الأمر للحاضرين بالخروج فخرجوا واحداً بعد الآخر
ووجههم إلى الخليفة حتى يصلوا إلى الباب فيسحنون ثلاثاً ويرفعون
أيديهم إلى رؤوسهم وينصرفون ، وكان آخر الخارجين الوزير أسد
الدين ، فترك القصر وعاد في موكب جليل من جنوده وجنود مصر إلى
أن وصل إلى دار الوزارة ، ولشدها كانت دهشته عندما رأى الدار
خاوية خالية من جميع أثاثها وزينتها حتى أنه لم يعثر على أريكة أو كرسي
يجلس عليه فنظر إلى صحبه وقال :

لقد أطاع العامة الأمر طاعة عمياء فنظفوا الدار من كل ما كان
يشوبها أو يزينها . إن هذا ولا شك فال حسن فلنبداً عهداً جديداً أو
لنعد أثاثاً جديداً .

القاضي الفاضل

استيقظ عبد الرحمن مع الفجر فترك فراشه وقام إلى نافذة غرفته ففتحتها وراح يطل منها على أطلال القسطنطينية حول كوخه الصغير فيحس بعض الوحشة الممزوجة بالحنين ، لقد فر من المدينة عندما احترقت ، ولجأ إلى منزل صديق له بالقاهرة ، ولكنه لم يكد يسمع الوزير أسد الدين يدعو الناس للعودة إلى القسطنطينية حتى كان أول العائدين يدفعه الحنين إلى هذه المدينة الحبيبة إلى نفسه ويسوقه الشوق إليها .

وإنه ليذكر الآن موكب أسد الدين يمر في طرق المدينة وخطتها منذ أيام ليشاهد ما فعات النيران بمبانيها ومساجدها ، وإنه ليذكر أيضا كيف كان يدعو الناس للعودة إلى مساكنهم ، ويشجعهم بالمال يعطيه لهم ، ويعددهم أنه سيعني بإصلاح ما أفسدته النيران ، وما أتلفه النهاية . وعاد مع العائدين صديقه أبو الحسن ، وبدأ حياته القديمة يجلس إلى صبيان المدينة في الصباح يحفظهم القرآن ، ويقصد إلى تاج الجوامع بعد الظهر فيصلى العصر ، ويسقى الماء المزهر ، ويستمتع لو عظ الوعاظ ودروس الفقهاء .

وكان نسيم الربيع المنعش الجميل يهب على وجهه فيحس بالحياة تملأ نواحي نفسه ، والأمل يشيع في جنباتها ، وراح ينظر إلى الدور حوله وقد علاها السواد من أثر الحريق فبدت كالأشباح الحزينة ، واستعاد (١٢٢)

في نفسه صورة المدينة الزاهرة الزاخرة قبل أن تشوه جمالها السنة
النار ، واستعاد ما يحفظ من شعر قاله الشعراء يتغنون بمدحها ويفتنون
في وصفها ، وأخذ يغني بعض هذا الشعر بصوت خفيض ، ويعيد الغناء :

من شاهد الدنيا وأقطارها والناس أنواعا وأجناسا

وما رأى مصر ولا أهلها فما رأى الدنيا ولا الناسا

وبدت تباشير الفجر ، وسمع بعض الديكة تصيح في دار قريبة ثم
سمع صوت المؤذن ينبعث من ناحية مسجد عمرو ويدعو الناس للصلاة
فأسرع فتوضأ ، وخرج يهرول نحو المسجد ، وأدى الفريضة . وفي
عودته قابل صديقه أبا الحسن فصحبه إلى داره ، غير أن عبد الرحمن
لاحظ أن صاحبه يكثر من الصمت والتفكير فسأله :

— مالك مكتئبا يا أبا الحسن ؟

فقال أبو الحسن والدموع تترقرق في عينيه :

— إن أسد الدين يحتضر .

فارتاع عبد الرحمن وذعر لهذا الخبر فقد رأى أسد الدين منذ أيام
قليلة في الفسطاط يجوب انحاءها ، ويتفقد مبانيها ، وتجديد الأجزاء
التي أكلتها النار من مسجد عمرو ، وكان أسد الدين يومذاك صحيحا
قويا ، فلم يصدق عبد الرحمن ما سمع وأعاد جملة أبي الحسن مستفسرا .
— تقول أن أسد الدين يحتضر !؟

— أجل . فقد أصابه الخناق اليليلة فعاده ابن السديد طبيب

الخليفة وأنبأنا أنه لا فائدة من العلاج فسيوافيه الحمام بعد ساعات .

فأحس عبد الرحمن بالحزن يملك عليه نفسه ، ويطنخي على قلبه ، وقال :
— مسكين أسد الدين ، لقد ناضل كثيراً ، ولم يكد يصل إلى
مبتغاه حتى أدركه الموت ، إنه لم يمض عليه في الوزارة غير شهرين .
— ليس المسكين هو أسد الدين فقد أدى واجبه . المسكينه مصر
يا عبد الرحمن ، من يدري كيف تمر بهذه المحنة ؟ والله لو عاد الأمر
للخليفة لتحكم رجال القصر وعادت الفوضى إلى البلد .
وسكت الرجلان وطال بهما السكوت ثم نظر أبو الحسن إلى
صديقه وقال :

— هيا بنا يا عبد الرحمن إلى القاهرة ، إنى لا أطيع الانتظار هنا .
وخرج الصديقان وسارا يسرعان الخطى في طريقهما إلى القاهرة ،
واجتازا باب زويلة وقربا من دار الوزارة وإذا بهما يسمعان صراخا
داويا ، وأصوات الشعى تملأ الجو حولهما ، فوقف أبو الحسن وقال
وعبد الرحمن في صوت باك :

— لا حول ولا قوة إلا بالله — إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقال أبو الحسن :

— رحم الله أسد الدين فلقد كان واقفه عفيفاً ديناً كثير الخير
شجاعاً جلدًا شديدًا على الكفار

وقصدا إلى دار الوزارة فوجدوا الكل يبكون الفقيده بعيون تملأها
الدموع ، وقلوب يملأها الحزن والألم لموت الوزير الشهم والقائد البطل ؛
ولبست المدينة كلها عليه الحداد ، وخرج سكان القاهرة والفسطاط

جميعاً وراء نعشه يودعونه الوداع الأخير ، وكان أشد الناس بكاء عليه
الفقراء والمساكين لما غمهم به من عطف وبر وإحسان .

وُورى الرجل في التراب ، وعاد الناس جماعات يتحدثون عن
فقيدهم البطل ويروون أحاديثه ويعدون مناقبه ويطلبون له المغفرة
والرحمة من ربه ، وعاد معهم القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني وحيدا
يذرف الدمع سخينا على صديقه أسد الدين ، وخلا بنفسه في داره
حزين النفس منقبض الصدر يفكر ويقدر ، ويعيد التفكير والتقدير ،
وتذكر ماضيه البعيد منذ وفد على مصر : تذكر أنه أتاها في عهد الخليفة
الفاطمي الظافر يطلب العلم والعمل والرزق فعمل أول ماعمل في ديوان
الإسكندرية ، واتصل هناك بكاتب الانشاء الرشيد بن الزبير الأسواني ،
وكانت تصل الكتب من الإسكندرية إلى القاهرة مدبجة بيراغه الصناعات
مما أثار نفوس الكتاب بديوان الانشاء في القاهرة فراحوا يدسون له
لدى الخليفة ويتهمون به بالتقصير ، ولما سكن الرشيد بن الزبير دافع عنه في
إخلاص حتى طلب إليه الخليفة الظافر أن يرسله ليكون أحد كتابه .
وتذكر القاضي الفاضل أيضاً أنه اتصل بعد قدومه إلى القاهرة
بكاتب الانشاء الفذان قادوس الدمياطي فتتلمذ عليه وأخذ عنه طريقته ،
وكان يعجب بشعره ونثره ، وظل يردي عمله الحسومي وهو يرقب
الحوادث في مصر دون أن يدلى فيها بدلوه غير أنه كان يتألم أشد الألم
للنزاع الدائب المستمر بين رجال الدولة ووزرائها .

لقد رأى كيف يقتل بعضهم بعضاً في سبيل السيادة فقتل على بن
شاور العادل رزيك ، ثم ملك شاور فأختصه الكامل ابنه بالرعاية وجعله
كاتبه ، وقد جرّت عليه هذه الرعاية الويل والثبور فكانت السبب في
سجنه تسعة أشهر مدة وزارة ضرغام ، فلما عاد شاور أفرج عنه ، غير
أنه ظل يقيم في ديوان الإنشاء بين أشواك من الغيرة والحسد والدسائس
يدبرها له إخوانه من كتاب الديوان فقد كانوا يتألمون لتفوقه عليهم في
فن الكتابة ، ولتقدمه عليهم لدى الخليفة والوزراء ، وكان يحس في
كل لحظة قرب أجله لما كان يراه من قتل شاور لرجال الدولة
وزعمائها لاتصالهم بأسد الدين وجيشه ، ولولا اتصاله بالكامل كانت
قد وافته المنية منذ سنوات ، أجل الكامل ، رحمه الله وغفر له وكتب
له الجنة ، لقد كان نعم الرجل ، لم يكن جشعاً كأبيه . كان أبوه يفضل
الفرنج على المسلمين ولكنه كان يعارض أباه ويناضله كثيراً في سبيل
هذه الفكرة ، وإن القاضي الفاضل ليدكر لهذا الشاب سعيه المجيد معه
للاستنجاد بنور الدين عندما وصل الفرنج إلى جنوب الفسطاط ، وإنه
ليذكر له ما يتناوله الناس من أطراف الحديث الذي دار بينه وبين أبيه
إذ كان أبوه يدبر المكيدة للقضاء على أسد الدين ورجاله ، والكامل
يحذره ألا يفعل وينذره أن يبلغ أسد الدين لو فعل ، ويقول ليقنع
أباه : « لأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن
نقتل وقد ملكها الفرنج » مسكين هذا الشاب ، لقد كان يستحق

كل إكرام وإعزاز ، ولـكن الخليفة جازاه جزاء سنار فقتله وهو
الذى يستحق أن يمجد ويخلد ذكره . . .

كانت هذه الصور تتابع على رأس القاضى الفاضل سريعة يدعو
بعضها البعض الآخر فهى سلسلة تجارينه ومشاهداته ومعرفته بالرجال
منذ وفد إلى هذا البلد الطيب ، وانتهت به الذكريات إلى يوم أن
تولى أسد الدين الوزارة فتذكره وقد استدعاه إلى دار الوزارة ليلا
وجلس يستعرض وإياه أحوال مصر ومشروعات الإصلاح التى
ينوى تنفيذها ، فلما انتهى بهما السمر قال له أسد الدين :

— إننى أقصر لك أيها القاضى الجليل حسن بلاتك فى سبيل مصر
والإسلام ، وقد أطرك عندي كثيراً صديقاً وصديقك الفقيه عيسى
المهكارى ، ولهذا فقد عولت على أن أطلبك من الخليفة لتسكون
كاتب إنشأى .

ولـكنه خشى إن طلبه أسد الدين بالاسم أن يشك الخليفة فى
أمره فيمتنع أو يكيد له فقال :

— أنا شاكر لسيدى القائد حسن ظنه وجميل ثقته غير أننى أرجو
الألتحص على اختيارى بل أطلب من الخليفة كاتباً للإنشاء ، وأنا على
يقين أننى سأكون كاتبك .

وقد صدق ظنه فإن الخليفة أرسل طلب أسد الدين إلى ديوان
الإنشاء ففرح به كتاب الديوان أيما فرح ، وانفقوا جميعاً على اختيار
القاضى الفاضل عبد الرحيم محتجين بأنه أسلسهم عبارة وأبلغهم قولاً

وأجلهم إنشاء ، غير أنهم كانوا يتبادلون القـول سرآ . « ليذهب
عبد الرحيم فإننا لنرى أن أجلى هذا الوزير قصير كأجال الوزراء
الذين سبقوه ولو أنه قتل في الغد لقتل معه كاتب انشائه فنستريح منه
ومن لجأه ومناقشته » .

واليوم قد تحقق ظهم ففضى أسد الدين نجبه ، وإن كان لم يقتل
ولكنه كان يقيم في داره حينذاك على خوف يخشى جيش مصر ورجال
القصر وأن يشوروا بجيش أسد الدين ويستنجدوا ثانية بالفرنج ويخشى
أن يدب النزاع في نفوس جند أسد الدين فيختلفون ويتفرق شملهم
ويخشى دس من يحسدونه ويدبرون له المكائد واستعداد أمام ناظره
صور الرجال في مصر وأخذ يخمن : ترى من يخلف أسد الدين في
الوزارة . . . إن قواد الجيش المصرى معظمهم من العبيد السود ولا
فضل فيهم . . . وقواد أسد الدين كثيرون ، ولكن ليس فيهم غير رجل
واحد هو صلاح الدين فإنه يبشر بمستقبل عظيم فهو شجاع جسور وهو
صريح جرىء وفيه الكثير من صفات وأخلاق أستاذه نور الدين
وعمه أسد الدين ؛ ولكن صلاح الدين شاب وأنداده من القواد
رجال يفوقونه سنا وتجارب فكيف يرضون به وزيراً وزعيماً عليهم .
ظل القاضى الفاضل يفكر ويطيل التفكير في هذه الأمور جميعاً
ولم يوقظه من هذا التفكير إلا صوت جندي جاء يدعوه لمقابلة الخليفة
العاضد فدعر وعاد إليه خوفه ولكنه سرعان ما استعاد شجاعته
وعادت إليه رباطة جأشه وخرج مع الرسول وهو يقول في سريره :

— اللهم أعني بقوة من عندك ووفقني لما فيه الخير لهذا البلد الطيب
ولشد ما طغى السرور على نفسه عند ما أنبأه الخليفة أنه استدعاه
ليستشيره فيمن يراه أهلا لأن يخلف أسد الدين في الوزارة بحكم اتصاله
بجند أسد الدين وقواده الشهرين الفائتين
ولم يتردد القاضي الفاضل في إعلان رأيه بصراحة وتأيدته بقوة
وحرص غريبين فقال :

— يا أمير المؤمنين ، إن هذا الجند الوافد قوتك وعتادك فاركن
اليهم واختر منهم وزيرك وعضدك وكفي ما قابست البلاد من
الوزراء الفائتين ، وفي هذا الجند قواد عظام ذوو بأس وشدة وشجاعة
وحسن رأى وإحكام وتديير ، غير أنني اختار لك ابن أخي أسد الدين :
صلاح الدين . فهو شاب صغير تستطيع أن تصطنعه لنفسك ، وتوحي
إليه برأيك فيكون لك كيميئك تحركها بإرادتك لتنفذ بها رغباتك ،
أما من عداه فرجال مكتملو الرجولة كبار السن معتدون بشجاعتهم
وأبنفسهم ، وما أخشاه إن وزر أحدهم أن يعيد سيرة ضرغام وشاور
فيستبد بالأمور دون مولاي أمير المؤمنين
وحاز هذا القول القبول لدى العاضد ورضى عنه كل الرضاء فقد
وافق رغبات نفسه فقال :

— رأيك الرأى يا عبد الرحيم ، وصلاح الدين هو من كنت أعد
العدة لاختياره .

ثم أطرق لحظة وقال :

— ولكنني أخشى يا عبد الرحيم . . .

وسكت ففطن عبد الرحيم ما يقصده وقال :

— أعلم ما تخشاه يا أمير المؤمنين ، ولكن دع هذا الأمر لي ،

فإني سأستعين برجل من رجالهم لاقتناع قوادهم بأفضلية هذا الاختيار . .

— ومن يكون الرجل ؟

— إنه الفقيه عيسى الهكاري فهو قائد منهم يحبونه لشجاعته

وهو فقيهم وإمام أسد الدين ، فهم يقدرونه لفضله ودينه وتقواه

وإحكام تدبيره

— إنك تحسن اختيار الرجال أيها القاضي — إني أعرف هذا

الرجل ألا تذكر أنه هو الذي حمل رسالة نور الدين إلينا واعداد بإرسال

النجدة الأخيرة . . . إني تحدثت إليه ، واستمعت منه وقدرته منذ ذلك

الحين كل التقدير

ووقف الخليفة إيذاناً بانتهاء المقابلة وقال :

— سأرسل في الغد إلى صلاح الدين فأخاع عليه وأوليه الوزارة

وعليك أنت أن تسعى سعيتك لينجح تدبيرك ، والله يوفقنا ويرعانا

أبو الحسن يعود إلى وكره بعد طول الجهاد

وسعى القاضى الفاضل إلى الفقيه عيسى ، وانفرد به فأسر إليه بما كان بينه وبين الخليفة العاضد فوجد منه أذنا صاغية ونفساً راضية بما تم الاتفاق عليه ، ووعد الفقيه عيسى أن ينفرد بالقواد فى غده قائداً قائداً ليقنع كلا منهم بأحقية صلاح الدين ، وأفضلية اختياره على أن يوافيه فى المساء ليدلى إليه بنتيجة سعيه .

وتركه القاضى الفاضل فذهب إلى داره وظل طول يومه ينتظر صديقه وهو على أحر من الجمر يقدر ، ويأمل ، ويخشى ، فلما انقضى من الليل بعضه دق باب داره وفتح وكان القادم الفقيه عيسى ، فأقبل عليه الفاضل يسأله فى لطفة

— أهلا صديق . ظمأن قلبى ، هل نجحت فى سعيك .

فجاس الفقيه عيسى وقال :

— نجحت والحمد لله ، ولكن . . .

— ولكن ماذا . . . إننى لا أطمئن لهذا اللفظ

— لا . لا تخف . إننى أريد أن أقول إننى نجحت ولكن بعد

مجهود مضمّن متعب

فاعتدل القاضى الفاضل فى جلسته وانفجرت أسارير وجهه وشاع

السرور فى نفسه وبدا فى ضحكة عريضة وقورة ضحكها

وقال :

— لا بد للعسل من إبر النحل يا صديق — ارو لي ما حدث بالتفصيل
— كان المجهود الأكبر هو الذى بذلته لإمتناع صلاح الدين نفسه
فقد أبى أن يلى الوزارة وأصر على إباته لأنه كان يخشى أنداده القواد
وكان يتهيب أن يحمل العبء الذى ناءت به العصبية ذوو البأس من الرجال
قبله ، ولسكنى ما زلت به أحاوره وأداوره حتى رضى واقتنع ، والحق
أقول إن الفضل كل الفضل فى إقناعه يرجع لذلك الرجل الغريب
أبى الحسن المصرى . إن هذا الشيخ غريب الأطوار يحتفى أياما فلا تراه
ثم إذا به كالنجم الثاقب أو البدر المضىء يظهر فى أشد الليالى ظلاما
واعظم الأوقات عسرا فيبدد الظلام وينشر النور ، ويبدل العسر يسرا
فقد وجدته عند صلاح الدين يعزیه فى عمه فلم أتردد أن أدلى للصلاح
برغبة الخليفة وهو موجود لأستعين به ، فلم يكديسمع قولى ، ومعارضة
صلاح الدين حتى انبرى يفند أقواله ويرد حججه ويسوق إليه الدليل
تلو الدليل ، والبرهان اثر البرهان فى حصافة وفصاحة وقوة بيان حتى
لان صلاح الدين وخضع واقتنع وخرجت من لدنه أسعى وقد اتسعت
أمامى آفاق القول بعد ما سمعت فقصدت إلى سيف الدين على بن احمد
ابن المشطوب فقلت له : « أظنك لاتعارض فى أن يكون صلاح الدين
خلفا لعمه فى الوزارة لأننى أعتقد أن هذا الأمر لا يكون لك مع
وجود عين الدولة بن الياروتى ، وشهاب الدين الحارمى . وصلاح الدين
شاب صغير قليل التجارب يقدرك ويملك واظن انه لا يستبد بالأمور

استبداد هذين لو وزير أحدهما « فأعجبه قولي ، ووافقني على رأيي
وتركته إلى شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين وأكثر القواد
أعوانا وأنصارا فذكرت له أن العاضد هو الذي اختار صلاح الدين
ليكون وزيره « وصلاح الدين ابن اختك ، وملكه لك وقد استقام
الأمر له فلا تسكن أول من يسعى في اخراجه عنه فلا يصل إليك »
وما زلت به أناقشه وأقارعه الحججة بالحجة حتى أحضرتة عند صلاح الدين
فخلف له .

وذهبت إلى قطب الدين ينال فهدت له في الحديث تهيدا ليحسن
استقبال رأيي فلما لان قلبه قلت له « لقد دان الجميع بالولاء لصلاح الدين
وحلفوا له ولم يبق إلا أنت وعين الدولة الياروقي ، وأراك لا تنسى
أنك كردى وصلاح الدين كردى مثلك نغير لك أن يكون الوزير من
جنسك حتى لا تنتقل الوزارة إلى قائد من الترك » فصدق على قولي
وأعجبته حتى نفضع وأطاع .

وسكت الفقيه قليلا ، ومد يده إلى وردة جميلة تطل من بين أزهار
مختلفة تضمها زهرية من الصينى المنقوش وضعت على كرسي قريب منه
ورفع الوردة إلى أنفه ، وأنشأ يستنشق شذاها العبق مرات ثم قال :
— لقد اقتنعوا جميعاً ودانوا بانولاء لصلاح الدين إلا ذلك الرجل
المعتد بنفسه وأعوانه :

— ومن هو ؟

— عين الدولة الياروقى ، إنتى طرقت جميع الأبواب ، واستعنت
بجميع الآراء لأكسب هذا الرجل إلى جانبنا ، فهو أكبر الجماعة ،
وأكثرها جمعاً ، ولكنه أبى واستكبر وقال : « أنا لا احترم يوسف
أبداً » فلما قلت له « لقد خضع الجميع وأطاعوا » أجاب
« ليخضعوا وليطيعوا أما أنا فسأعود برجالى إلى نور الدين . »
فقال القاضى الفاضل :

— لقد أحسن صنعنا بهذا العزم لأنه لو بقى ولم يدن لصالح الدين
لأعيدت الرواية القديمة واطل النزاع بين الرجلين ، وقد سئمتنا نزاعا
ونضالا فى سبيل الوزارة

ثم نظر إلى صديقه نظرة كلها إكبار وإجلال وتقدير وقال :
— إن هذه يدك يا عيسى ، وجميل سيذكركه لك المصريون ،
وسيدكره لك الاسلام ، وسيدكره لك صلاح الدين .

فجعل الفقيه عيسى لهذا الاطراء ، وقال فى تواضع الفقهاء :
— استغفر الله ، إنك وأبا الحسن صاحبنا الفضل الأكبر ، فإنه
لولا اختيار العاضد لصالح الدين اتبعا لمشورتك ، ولولا اقناع
أبى الحسن لصالح الدين حتى قبل الوزارة لما كان لمسعى قيمة .

* * *

أرسلت الخلع إلى صلاح الدين ورجاله فى اليوم التالى ، فارتداها
وركب الحجر التى أهدها إياها الخليفة العاضد وهى من مراكبه الخاصة

وقيمتها ثمانية آلاف دينار ، ولم يكن بالديار المصرية أسبق منها ،
وخرج من دار الوزارة في موكب عظيم في مقدمته جنوده وقواده ،
وفي مؤخرته جنود المصريين وقوادهم والجميع يحملون أسلحتهم من
سيوف قواطع ، ودبابيس ، ورماح ، وسهام ، وأصحاب الطبول يدقونها
والمنفرون ينفخون في الأبواق ، وزينت البلد زينة جميلة ، وافتن
الشعب في إظهار فرحه باختيار الوزير الشاب الجديد فزينوا الدور
والدكاكين بالأعلام والأزهار ، واصطفوا على جانبي الطريق لرؤية
الموكب والترحيب بالشاب الصغير الشجاع ، وقد أصبح وزيرا ، ووصل
الموكب إلى القصر الكبير واتجه صلاح الدين وخاصته إلى الديوان
حيث حظى بمقابلة الخليفة العاضد ، وتناول المنشور بتوليته الوزارة
ثم عاد في موكبه وأفراد الشعب يلحون في إعلان فرحهم وسرورهم
وقد انتشروا جماعات يغنون ويرقصون ويلعبون .

وهو ينثر عليهم الدراهم والدنانير ليزيدهم فرحا ويدخل السرور على
قلوبهم بعد أن ران عليها الحزن ، وطال بهم الضنك أياما وسنين ،
ووصل إلى دار الوزارة فجلس يستقبل الوفود والمهتئين ويستمع إليهم
وهو لا يكاد يعي أكثر ما يقولون فقد بهرته أمهات الملوك وزينة الوزارة
وأثر في نفسه أشد التأثير هذا الشعور الفياض الذي قابله به المصريون
وكان يتهيب ما هو مقدم عليه ، وما ألقى على عاتقه من عبء ثقيل ناءت
به رجال ورجال هو دونهم سنا وتجارب ، فإنه الآن شاب في الحادية
والثلاثين من عمره لم يبيل من الحياة إلا بعض نواحيها ولم يخض من

معاركها إلا ما كان صريحا واضحا في الميدان بين الجندى والجندى ،
ولكنه الآن مقبل على معارك أخر من نوع جديد لم يألفه فهي معارك
قوامها السياسة وتدير أمور المملكة ورعاية شعب يستحق الرعاية فأنى
له العلم ببواطن هذا الفن كله ، إن حوله رجالا اشتاتا يختلفون عناصر
وأجناسا ومشارب وغايات ويتباينون نشأة وتربية ونفوسا واستعدادا
وعليه أن يرصهم جميعا ، فالخليفة سيد البلاد وصاحبها وهو شاب صغير
يجتاز دورا خطيرا تحكمه فيه عواطفه وأهواؤه وقد عاش عمره حبيس
جدران القصر يسيطر عليه رجال هذا القصر ويستبد بأمره وزراء
متتابعون متناضلون كانت نكمتهم وتسييرهم أطعمهم البشرية الدنيا ولهذا
الخليفة جيش بعضه من المصريين وأكثره من المغاربة ذوى الصلف
والسودانيين اهوج ، وقد ألقى الوزراء فى نضالهم خيرة رجاله وأبطاله
وتحت أمره جيش من الأتراك والأكراد وفيه قواد بواسل وجنود
أشواس ولكنهم رضوا به اليوم وزيرا على كره منهم فقيهم من يرى
نفسه أحق منه وأولى بهذا المنصب ، ووراء هؤلاء جميعا شعب مكند
كادح يعيش فى أطراف القرى وأقاصى الريف وفى المهدن الكبيرة
يسى لرزقه وينبى حضارته وتاريخه لبننة لبننة قد أضنته الحوادث
الأخيرة وأنهكه الوزراء فسلبوه خيراته وأمواله ، وامتصوا دمه
ودماء حياته فهو عطش إلى جرعة وجرعات من العدل ويتمنى أن
يوفقه الله إلى حاكم بار يرفق به ويزيل هذه الغشاوة عن عينيه ويمهد له
حياة راضية مرضية تسودها الطمأنينة ويشملها الأمن والسلام ليقدّم

له أرواح شبيهة وما يملك من قوة ومال وعتاد وتأيد يقوده نحو النصر والفوز ويسود به فهو يعشق السؤود .

كانت هذه الصور المتباينة تمر أمام صلاح الدين فتشغله عن المجد الذى سعى اليه سعيا وعن وفود المهنيين الذين يكميلون له آى المديح والتهنئة نثرا وشعرا فإذا أفاق من غيبوبته إثر حركة قادم أو خارج وأنصت لبعض ما يقال تبرم به واشتمأز فإنه يعتقد أن هذا الكلام بعينه قيل لعنه أسد الدين منذ نحو شهرين ولا بد أنه قيل لشاور ولضرغام ولرزيك ومن سبقهم من الوزراء لأن رجال الدولة يجيدون القول ويحسنون التعبير ولكنهم لا يخلصون ولا يفون ، إن هذا الشعب الذى يصيح فى الخارج مهتئا فرحا هو أصدق منهم قولا وعواطف وأوفى منهم عهدا لمن يخلص له من الحكام ، وود صلاح الدين حينذاك لو اتاحت له الفرصة فترك هؤلاء القوم من كبار الرجال يلوكون أقوالهم الجوفاء ، وخرج الى هذا الشعب وسار فى مقدمة مواكبه الزاخرة يحدث أفراده ويستسمع إليهم وإلى شكواهم ويعدهم ويمنيهم ، ولكن التقاليد ورسوم الحكم منعه فبقى وأعاد النظر إلى من حوله وخصهم رجلا رجلا فكان يمر بهم من الكرام إذ يجدهم كاخيل المسوقة تزينهم الملابس المزركشة ولا قيمة لهم بدونها إلى أن استقر نظره على جماعة قليلة انزوت فى ركن قصى بعيد من أركان الغرفة يتحدثون فى همس وهم القاضى الفاضل والفقهاء عيسى الهكارى وزين الدين المصرى وأبو الحسن المصرى فعاد إلى نفسه بعض ما فقد من ثقة واطمأن قلبه وعلا السرور

وجهه ، فقد رضى بهذه الفتة من الرجال تعينه على أمره وترشده إذا تشعبت به السبل ، أو أظلم الطريق ، وانتظر حتى انصرف الجمع وعاد إلى الغرفة هدوؤها فأشار على هؤلاء الصاحب بالبقاء ، وانشأ يحدثهم ويستمتع اليهم ، والوقت يمضى وهم لا يحسون به إلى أن قال أبو الحسن :
— سيدى الوزير ، أنا أريد أن أقول وأن أهنيء ولكن السرور

إذا طغى على النفس أصبح اللسان عميا فلا يستطيع بيانا
فنظر إليه صلاح الدين نظرة تنطق بالشكر وقال :

— شكرا يا أبا الحسن . أنا أعلم الناس بقلبك ، وإني أريد أن أفيك بعض حقائقك ، وهيهات أن أستطيع ، فهل لك من رغبة فأقضيها
— أجل يا بنى . . واسمح لى أن أناديك بهذا النداء العزيز لدى
والذى لم أناد به أحدا منذ سنين

وخنفته العبرات فسكت وتساقت دموعتان على خديه وانحدرتا على شعر لحيته فعجب الحاضرون ، وتألم صلاح الدين وقال :
— ما هذا ؟ أتبكي يا أبى الحسن . أرجو ألا أكون قد أسأتك بكلماتى .
ومسح أبو الحسن الدمعتين بيده ومر بأصابعه خلال شعرات
لحيته وقال :

— كلا يا بنى — وإنى لأعيدها فقد ذقت عذوبتها بعد أن حرمت قولها هذه المدة الطويلة — إنك لم تسأنى حفظك الله من كل سوء ،
ولكننى تذكرت فبكيت ، تذكرت ابنا لى مات وهو شاب فى مثل سنك بعد أن كان كالزهرة العبقرة الشميم وخلا لى وحيدا أمضغ حزنى وآكله .

ثم سكت لحظة وقال :

— وتذكرت أيضا عمك البطل أسد الدين وقد قضى بالأمس
أحوج مانكون إليه .

فبكى الحاضرون لبكاء أبي الحسن ، وتندت عينا صلاح الدين
بالدموع وقال :

— ما كنا نعلم شيئا عن حزنك يا أبا الحسن أجرك الله وأحسن
عزاءك ، ولكن ماهذه الحاجة ياوالدى .

— انها حاجة يسيرة : فينى أرجو أن تسمح لى بالسفر إلى بلدى
دمياط لأقضى هناك مابقى لى من أيام فإنك ترى أنى قد وهن منى العظم
واشتعل الرأس شييا ، وأنى أحس أن نهايتى قد قربت ، ولقد تركت
دمياط مسقط رأسى وأنا لاأنوى العودة إليها ، ولكن الله أكرمى
وحقق لى الكثير مما كنت أرجو فشعرت بالحنين ينادىنى أن أعود
إلى بلدى .

— ولكننى فى حاجة إليك ياأبا الحسن وإلى اصالة رأيك وحسن
توجيهك وإخلاصك ، فالبلد بلدك ، أهله أهلك ، وأنت أعرف
برغباتهم وشكياتهم منا .

— إن شكياتهم تصرخ من الظلم ، وإن رغباتهم تطلب العدل
فارضهم ، وأعد السكينة إلى نفوسهم يؤيدوك بخلاصة أرواحهم .

— وما السبيل إلى إرضاء المصريين ياأبا الحسن ؟

— إننى أرى أن أول مايجب عليك يابنى أن تسعى لإطلاق سراح

من أسر منهم ، فإن الفرنج أسروا في غارتهم الأخيرة أهل بلبيس وغيرهم من المصريين وقد عادوا بهم إلى بلادهم .

— هذا صحيح ، وسأخصص مُغل بلبيس على كثرته لفكاك هؤلاء الأسرى ، وسأعفي أهل هذه البلدة من دفع الخراج مدة حياتي .

— نعم ماتفعل أيها الوزير فإنك بذلك تملك قلوب الأهلين . وهناك أيضا مكوس كثيرة تبهظ المصريين وحبذا لو أعدتم النظر فيها فأبطلتم بعضها ، وأنقصتم البعض الآخر .

فقال صلاح الدين :

— هذا ما عقدت العزم عليه ، فقد شكنا الناس إلى عمى أسد الدين رحمه الله أمر هذه المكوس ، وكان قد أعد العدة لوضع مائة ألف دينار مما يستخرج من المكوس بديوان الصناعة بمصر ، ومائة ألف دينار أخرى مما يستخرج من بعض الجهات القبلية والبحرية ؛ ثم نظر إلى القاضي الفاضل وقال :

— وإني أرجو أيها القاضي أن تكتب في الغد سجلا بوضع هذه المبالغ لترسله إلى جميع بلاد مصر ليقرأ على المنابر .
وتقدم عند ذاك الفقيه زين الدين ، وقال :

— إنني أشكر الله الذي وهبك هذا الملك ، وأتوقع أن نرى الخير جميعا وهو يغمرنا في عهدكم الزاهر إن شاء الله ولا غرو فإن هذه بداية طيبة ، والكتاب يقرأ من عنوانه ، ولكن هل يسمح لى سيدى الوزير أن أطلعه على مظلمة لورفعها لكسب الأجرين في الدنيا والآخرة .

— قل أيها الفقيه إني عاهدت الله أن أفعل كل ما فيه الخير لهذا البلد وأهله .

— إن هذا الخير بعضه لأهل مصر ، ومعظمه للمسلمين عامة فقد جرت العادة أن يؤخذ من الحجاج في عيداب مكس مقرر وضريبة مفروضة منهم يلاقون من الضغط في استيفائها عنتاً جمّاً ، ويسامون خسفاً وعسفاً ، وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته أو لا نفقة عنده فيلزم أداء الضريبة المعلومة وقدرها سبعة دنانير ونصف دينار فإذا عجز عن الأداء تناوله الجبابة في عيداب بأليم العذاب .

فوجب صلاح الدين لهذا الأمر وسأل الفقيه :

— وفي أي الوجوه تصرف هذه الضريبة .

فقال زين الدين

— إنها تجمع لميرة مكة والمدينة .

فزاد عجب صلاح الدين ونظر إلى صديقه عيسى الهكاري وقال :

— أترى ياسيد عيسى ؟ إن هذ هو العجب ؟ يجمعون الأموال

من لا مال معهم من حجاج بيت الله الحرام لييروا به مكة والمدينة ، هل ترى هذا من الصواب في شيء ؟

فأحس الفقيه بأن صلاح الدين يستشيريه ويطلب رأيه فقال :

— لا أيها الوزير إن هذا هو الخطأ بعينه والرأي أن تقدموا

على إلغاء هذه الضريبة ، ومن الممكن أن توقفوا مايجي من جهة من

الجهات على ميرة هاتين المدينتين المقدستين .

وأمن القاضي الفاضل على رأى الفقيه عيسى وقال :

— نعم الرأى مارأى ياسيدى الوزير فبه يرفع الظلم عن الحاج
ويصل الخير إلى سكان المدينتين وتجزون على هذا وذاك الأجر من
الله والدعاء من الرعية .

فاغتبط صلاح الدين لهذا القول وقال :

— أنت سلاحنا لرفع المظالم ياسيد عبد الرحيم فاكتب بهذا أيضا
منشوراً فى الغد .

ونظر إلى أبى الحسن فوجد البشر يعلو وجهه ، والفرح يبدو فى
بريق عينيه الباهت من فعل السنين ، وقال :

— وبعد ، أما من حاجة أخرى فنسرع لقضائها يا أبا الحسن
فإنك ترشدنى إلى الخير وتجلب لى رضاء الله

فتردد أبو الحسن قليلا ولكنه أقدم فقال :

— لتخفر لى جرأتى يا بنى إن قسوت فى القول . إنك ستلى حكم

هذا البلد وهذا الشعب ، وستجد حولك أعواناً ورجالا ، وستحس
نشوة الحكم ولدته وستستمع إلى أقوال وآراء معظمها غث وقليل منها
السمين الذى يفيد ، فنصيحى إن كان لى أن أتقدم بها أن يكون اعتمادك
على هذا الشعب ، وأن توفر جهودك لخدمته فإنك تلقى العون كل
العون ، لقد ملك هذا البلد ماوك وملوك ، ومنهم من غرته الأمانى
فاستبد وظلم ، وطمعى وتجبر ، فلها أفاق وجد هذى الأمانى سرا باً ظل
يخدعه وهو لا يدرى ، ووجد مجده قد صار إلى زوال .

وكان صلاح الدين وهو يستمع إلى أبي الحسن يحس أنه يرتفع عن هذه الأرض وأوشابها إلى طبقات رفيعة من الأثير تحوى كل عال وتضم كل جميل ، فنظر إلى أبي الحسن نظرة التلميذ المأخوذ بآراء أستاذه وقال :

— إن كلماتك يا والدي تنفذ إلى حنايا قلبي وشعاب نفسي ، فأحس لوقعها برداً وسلاماً — وإني لأذكر أوقاتاً كانت تمر على حينما أخلو لنفسي أو أخرج إلى الصحراء فأفكر وأطيل التفكير فاني كنت أستصغر حينذاك شأن هذه الحياة وشأن هذا المجد الذي يثير الأفراد ضد الأفراد والشعوب ضد الشعوب ، وكنت أرى أن الحياة أهون شأنًا وأيسر أمرًا مما نظن ففيها العذاب أصناف وألوان ، وفيها البكاء والدموع والحزن ، والدهر العات ذوجعة ملأى بالسهم يصوبها يميناً وشمالاً وفي كل مكان فتخلف وراءها ضحايا كثيرين .
فابتسم أبو الحسن ابتسامة خفيفة وقال :

— هذه النظرة الصادقة تبدى استعدادكم الطيب ، ولكن دع ما في قلوبكم من يأس ، وانظر إلى الحياة نظرة باسمية ولا تنسى أن نعم الله حولنا تغمرنا وتفيض علينا ، والسبيل إلى شكره أن نجاهد في سبيله ، وإرضاء عبيده نوع من الجهاد ، وهناك الجهاد الأكبر ينتظر ، جهاد الفرنج أعداء الدين .

فأطرق صلاح الدين لحظة وقال :

— صدقت أيها الوالد الرشيد ، إن الجهاد الأكبر ينتظرنى —

ولسكنك تعلم أن يداً وحدها لا تصفق ، والأصدقاء في الدنيا قليل .
— إن الحق ما تقول أيها الوزير ، ولا تظن أن الأمر قد مهد
لك ، فأمامك صعاب من فوقها صعاب ، فلا تنس الخليفة ولا تنس جنده
ورجال قصره ، ولا تنس رجالك كذلك .

ثم أشار إلى رفاقه الجالسين إلى جانبه وقال :

— ولكن يكفيك هؤلاء الصحاب الثلاثة فهم عونك بعد هذا
الشعب ، وكلهم بحمد الله صاحب رأى وصاحب عقل . هيه لقد طال
بنا الحديث فلأعد إلى ظلي ، فهل يسمح لي سيدي الوزير بالسفر
— والله ما دامت هذه رغبتك فإننا لا نمانع ولكننا سنفتقدك يا أبا
الحسن فلا تطل الغيبة ، فتعال لزيارتنا كلما استطعت

— سأحاول ، وأرجو أن أراك في خير إن شاء الله . استودعتك الله .

وحياه الوزير والدموع تملأ عينيه ، وودع الحاضرون وخرجوا
مع أبي الحسن ، وصلاح الدين يتبعهم بناظريه ، والدموع تتساقط
منها وهو يقول :

— بورك من رجل ، وبورك الوطن الذي أنبتك والله لأنت

خير عندي من كل من حولي .

المؤامرة الأولى

مضت الأيام وصلاح الدين يتصل بأهل مصر ويتودد إليهم ، ويستمع إلى شكاياتهم ، ويحاول جهده أن ينصف المظلوم ، ويمد يد المساعدة للفقراء والمعوزين ، وكان يجلس كل يوم إلى القاضي الفاضل فيدرس وإياه نظم الحكم المختلفة ويحاول وإياه رتق الفتوق وجبر الكسور ، وكثر تنقله في القرى والأقاليم يبدل المال للمستحقين بسخاء حتى أحبه العامة وأصبح اسمه رمز المجد والبطولة والسخاء ، وغدت أعماله حديث الناس في الأسواق والمجتمعات يذكرونها فتهنئ أعطافهم افتخاراً بوزيرهم الشهم البطل .

وكان صلاح الدين يحس حرارة الفرح والرضاء كلما أنصف مظلوماً أو أعان محتاجاً ، وكان يرى بعينه علامات السرور في وجوه المصريين وعيونهم كلما خرج بموكبه يمر في شوارع القاهرة أو القسطنطينية ، وكلما ذهب للصلاة مع العامة في مسجد من مساجد هاتين المدينتين فكانوا يستقبلونه استقبال الفاتح ويهتفون بحياته ويدعون له بالنصر والفوز المبين .

وكان صلاح الدين يحاول أن يعرض على الخليفة معظم شئون الحكم قبل أن يقرر فيها شيئاً ، فأحبه العاضد وأقبل على صحبته وقربه إليه ، وبلغ من محبته له أن كان يدعوه ليقم معه في القصر

اليوم واليومين وال عشرة أيام في سرور وصفاء و صداقة وإخاء .
وهدأت فورة القواد الترك والأكراد من جيشه فاعترفوا بالأمر
الواقع ورضوا بصلاح الدين وزيراً وخدموه وأخلصوا له ؛ وهكذا
استطاع صلاح الدين بلباقته وحسن سياسته أن يكسب الموقف
ويخضع الجميع لطاعته ، فتفرغ لخدمة البلد وأهاليه ؛ غير أن البستان
الجميل تنتثر في أنحاء الأشجار الباسقة تتدلى منها الفواكه من نخيل
وأعناب ورمان ، وتزين أطرافه الزهور الجميلة من ورد و نرجس
وريحان يضيع شذاها فيعطر الجو ، وتنساب الأمواه في جداوله وتنتقل
من مكان إلى مكان ، هذا البستان يشيع الجمال في حناياه وتتفجر
الروعة في نواحيه لا يخلو من حية تسعى بين الأغصان .

وكذلك كان رجال القصر الخليفة يحسون منذ تولى صلاح الدين
الوزارة أن سلطانهم يضمحل وحوهم ينكمش وجبروتهم ينضمحل ،
وغدوا في القصر مشاوي الحركة لا يستطيعون حراكا ، وإن
استطاعوا لا يقدمون ، فراحوا يسعون سعيهم في الخفاء كالحيات
والثعابين ؛ وصلاح الدين تشغله شواغل الحكم ومهامه فلا يقيم لهم
اعتباراً ، وكل ما كان يثير نفسه حينئذ إلى أبيه وأخوته وأهله إذ كان
يذكرهم كلما خلا بنفسه أو تعقدت أمامه المطالب فيتمنى لو كانوا إلى
جانبه في مصر يشدون أزره ويحل بهم عقدة من أمره .

وأرسل إلى أبيه يذكر له شوقه إليه وإلى أخوته وأهله ، وحينئذ
إلى مدن الشام وقراه وملاعب صباه ومراتع لهوه ويطلب منه أن

يسعى سعيه لدى الملك العادل نور الدين ليأذن له أو لبعض أخوته بالحضور .

وجاء الرد أن نور الدين قد سمح لأخيه الأكبر شمس الدولة تورانشاه بالسفر إليه ، ففرح لخبر مقدمه وخرج — عندما علم بوصوله — لاستقباله في موكب حافل ، وعاد وإياه إلى دار الوزارة ، وجلس يحدثه ويستمع إليه ، ويمطره وأبلا من الأسئلة عن أبيه وبقية إخوته وأصدقائه ، وتوران شاه يجيبه في تفصيل شامل يرضيه بعض الرضاء ، ولكنه يزيد في شوقه وحنينه فيسأل أخاه :

— ولم لم يأذن مولانا الملك العادل لأبي بالحضور؟ فقال تورانشاه :

— إن مولانا الملك العادل يستعين بأبينا في المهمات ، وهو في حاجة إلى مجهود كل رجل منا وهو في نضاله العنيف ضد الفرنج في الشام ، وهو في نفس الوقت يقدر كل التقدير ما قد يعترضك من عقبات أو ثورات نفوس وأنت في أول عهدك بالوزارة في هذا البلد ثم سكت لحظة وابتسم ابتسامة خفيفة صافية وقال :

— أتعرف يا صلاح الدين ماذا قال لي نور الدين قبل أن يأذن لي بالحضور إليك؟

— وماذا قال يا أخي؟

— قال : إن كنت تريد أن تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فانك

تفسد البلاد وأحضر ك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر
إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر
إليه واشد أزره وساعده على ما هو بصدده ، ففهمت قصده وقلت :
— سأسير إليه وأخدمه وأطيعه وستعلم عنى كل ما يرضيك
إن شاء الله .

فتأثر صلاح الدين لهذا الحديث ، وشكر لنور الدين هذه النصيحة
يسديها لأخيه ، وشكر لأخيه جميل وفائه وإخلاصه وقال :
— إنك ياتورانشاه أخى الأكبر وإن كانت تقاليد الحكم توجب
عليك طاعنى أمام الناس فإنك مع هذا استراني كما كنت تراني دائماً
أخاك الأصغر يوسف الذى يبذل الجهد لرضائكم ، ويطيعكم فى كل
ما تأمرون به .

ولم يكذب يتم قوله حتى سمع أصواتا وجلبة فى الخارج ثم فتح الباب
ودخل أحد القواد يقود رجلاً فقيراً ذا خلقان مهلهلة ، والرجل
مصفر الوجه يرتعد خوفاً ، ويرتجف رعباً ، وتقدم القائد فقال :

— سيدى الوزير : كنت أمر اليوم خارج سور القاهرة
فرأيت هذا الرجل يرتدى هذه الخرق الممزقة التى لا تكاد
تغطى أجزاء جسمه ويحمل هذين النعلين الجديدين ولا أثر بهما للشئ
فشككت فى أمره ، وجئت به لتستطلعوا حاله وتستخبروه عن سره
وأمسك صلاح الدين بالنعلين وقلبهما قليلاً ثم فتحهما ولشدهما كانت
دهشته عند ما وجد بين ثناياهما رسالات مطوية ، فانتزعها وشرع يقرأها

فلما أتم القراءة أعطاها إلى أخيه وقال :

— اقرأ يا أخي .

وكانت الرسائل موجهة من بعض رجال القصر إلى الفرنج يستعدونهم على صلاح الدين ، فأثارت اهتمام شمس الدولة وقال لأخيه — كنت أعتقد أن الأمور استتببت ، وأن هؤلاء الفرنج قد آووا إلى أوكارهم ، وأن مصر قد صفت لك بعد قتل شاور وآله .

ثم نظر إلى الرجل الفقير وشرع يستجوبه فيلين له في القول تارة ويهدده تارة أخرى حتى علم أن كاتب الرسائل رجل يهودى هوامع رجال القصر ، فأرسل من أحضره وما زال يغريه ويمنيه حتى أسر إليه أن الذى أمره بكتابة الرسائل زمام القصر الخليفة والمتحكم فيه الخصى مؤتمن الخلافة ، فأطلق سراحه وسراح الفقير ، ولما خلت الغرفة إلا منه ومن أخيه التفت إليه وقال :

— أرايت يا أخي ، إن الحكم يحتاج عيوننا يواظب وإلا أفلت

الأمر من يدنا ، والآن ماذا ترى ؟

— أرى أن تقتل هذا الرجل مؤتمن الخلافة .

— لوفعلت الآن لثارت بنا جنده السودانيون وهم بكثرة غالبية .

— وهل تخشاهم ؟

— كلا ، وإنما أحب أن أحتال لقتله بعيداً عن القصر ، ولهذا

فإني سأمد له مدا حتى ينسى أنى أنوى الانتقام منه فإذا سنحت الفرصة ضربته بالضربة القاضية .

وعلم مؤتمن الخلافة أن الرسائل وقعت في يد صلاح الدين وأنه عرف محتوياتها فأيقن الهلاك ، وانكش في القصر لا يعاذه إلا لماما فلما انقضت الأيام ومضى على هذا الحادث نحو شهرين وهو آمن لا يرى عنتا ولا يحس غدراً ظن أن صلاح الدين قد نسي أو عفا ، فخرج ذات يوم ليقضى نهاره في قصر له بقرية قريبة من قلوب ، وعلم صلاح الدين بتغيبه في تلك القرية فأرسل إليه من قتله وأتاه برأسه .

وحدث ما توقعه صلاح الدين ، ونار الجند السودانيون وهم أكثر من خمسين ألفا ، فأرسل إليهم صلاح الدين جيشا قويا من جنوده وعلى رأسه أخوه البطل شمس الدولة تورانشاه ، واجتمع الجيشان في الميدان بين القصرين ، ودارت رحى الحرب بينهما يومين كاملين ، وكان الخليفة العاضد يشرف على الجيشين من إحدى مناظر القصر وهو موزع القلب والعواطف ، لا يدرى إلى أى الفريقين يميل ، ولمن منهما يتمنى النصر ، وكلاهما قذى في عينيه وشجى في حلقه ، ولم يلبث أن رأى السهام والحجارة تتراعى وتندفع من نوافذ القصر فاضطرب وخشى أن يثير هذا العداء جنود أسد الدين ضده ، وقد تحقق ظنه فان شمس الدولة تورانشاه غضب غضبة مضرية وأسرع فأمر أحد الزرايين بإحراق منظره العاضد ، وهم الرجل بتنفيذ أمر قائده وإذا بالأمير شمس الخلافة يخرج من القصر ويقول :

— أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول : « دونكم العبيد الكلاب فاقتلوهم أو اخرجوهم من البلد » .

وكان السودان يهاجمون في شدة وحماس إذ كانوا يعتقدون بعد أن
رأوا السهام والحجارة تلقي من القصر أن الخليفة يؤيدهم ويشد أزرهم
فلما سمعوا هذا القول فت في أعضادهم ، وتخاذلوا وأدبروا وانتهت
المعركة بهزيمتهم ففروا إلى الجيزة وتتبعهم جند صلاح الدين فكانوا
يقتلونهم أنى ثقفوهم .

وهكذا انتهت أول ثورة ضد صلاح الدين بالفشل غير أنه غدا
أشد احزاسا من ذى قبل إذ كان يعلم أن هذه الدولة التي عاشت في
مصر قرنين ونصف قرن لا يمكن أن تزول آثارها في شهور .

نجم الدين أيوب في مصر

كانت الحوادث تتابع في مصر ، ونور الدين دائم القلق على جيشه فيها ، ويشغله الجهاد في الشام ، والنضال ضد سلاجقة الروم وامراء الجزيرة فلا يستطيع السفر إليها على شدة شوقه إلى ذلك ، غير أنه كان كلما أحرز نصرا وكلما خطا قائده صلاح الدين خطوة في سبيل القضاء على الدولة الفاطمية في مصر يبادر بالكتابة إلى الخليفة العباسي في بغداد مبشرا ومهنئا ، وأدرك الخليفة أن الحوادث تخدمه من حيث لا يدري فتأتى على بنیان الخلافة الفاطمية التي تنافس خلافته ولا تعترف بها ، فأحب أن يعجل نور الدين فيقضى عليها وهي في سكرة الموت قبل أن تتاح لها فرصة جديدة فتصحو وتفيق ، فأنشأ يبعث الرسالة تلو الرسالة يطلب من نور الدين ، ويلح في الطلب أن يسرع فيقطع الخطبة لبني فاطمة ويعيد الخطبة في مصر لبني العباس ، ووافق هذا الطلب هوى في نفس نور الدين فقد كان سنيا مغاليا في سنته ، يكره الشيعة ويود لو استطاع أن يقضى على دولتهم ، فأرسل إلى صلاح الدين يبلغه هذه الرغبة ويحثه على تنفيذها ، ولكن صلاح الدين كان حريصا شديد الحرص ؛ أدرك ببعيرته أن هذه الدولة المريضة وإن كانت تحتضر حقا فإن لها أعوانا ورجالا بعضهم يخلص لها جبا فيها وبعضهم يخلص لها لما كانت تدر عليه من رزق ؛ فتردد ولم يُقبِل ، وأرسل إلى نور الدين يعده ويستمهله .

ولكن نور الدين لم يقتنع، فدعا نجم الدين أيوب ورغب إليه أن يسير إلى مصر ليحمل ولده صلاح الدين على قطع الخطبة للفاطميين والدعوة لبني العباس .

وخرج نجم الدين وابناؤه وأهله من دمشق قاصدا مصر فلما وصلها خرج الخليفة العاضد بنفسه في موكبه الفخم يصحبه وزيره الشاب البطل صلاح الدين إلى خارج باب الفتوح لاستقبال نجم الدين ، وخرجت العامة راجلين وراكبين بموسيقاهم وطبولهم ، وزينت القاهرة ورفعت الأعلام احتفاءً بقدوم والد الوزير ، فلما وصل رحب به الخليفة وأنعم عليه وأرسل إليه من القصر الألفاظ والتحف والهدايا ولقبه بالملك الأفضل .

ولما انتهت حفلات الاستقبال جلس صلاح الدين الى والده وأخوته وأهل بيته جلسة عائلية هادئة تسودها المحبة ويرفرف عليها الإخلاص ، وكان البشر يطفح على وجهه ويبدو في ابتساماته وحركات يديه وكلمات الشوق التي يرددتها مؤهلا ومرحبا ، وأهله فرحون به وبما ساقه الله إليه من مجد وسلطان، يهنئونه ويكررون التهنئة فلما مضى من الليل أكثره كان أخوة صلاح الدين وأهله قد آووا إلى مضاجعهم يستريحون مما لاقوا في سفرهم من نصب ، ولم يبق في المجلس غير نجم الدين وولده ، فالتفت نجم الدين إلى ابنه وقال :

— والآرن يابني ، إن سلطاننا الملك العادل نور الدين لم يجب رغبتك ويأذن لنا بالحضور إلا لغرض خاص .

- وما هو يا أبت؟؟

- أن تعجل فتقطع الخطبة لبني فاطمة وتعيد الخطبة لبني العباس
فسكت صلاح الدين لحظة وقال :

- إن هذه رغبتى يا والدى قبل أن تكون رغبة نور الدين ،
ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها فهذه الدولة يحبها أهل مصر .
- ولكنك ذكرت لى مرة فى الشام بعد أوبتك أن أهل
مصر لا يحبونها .

- أجل انهم يكرهونها ويحبونها .

- وكيف؟

- إنهم يكرهونها لمذهبها ولما لاقوا من عسف وزرائها ،
ويحبونها لجودها فإن خلفاءها كانوا يبذلون المال دائماً ويمدون الموائد
للعامّة ويشاركونهم فى مباحثهم وأعيادهم ، والعامّة يحبون دائماً أن
يعيشوا فى رخاء ولا يعينهم بعد ذلك ماذا يعتنق خلفاؤهم .

- وهل تعتقد أنهم يشورون من أجل خليفتهم لو قطعت الخطبة؟

- أنا لا أتوقع الشر أو الثورة من أهل مصر ، وإنما أتوقعهما
من حواشى الخليفة وأعوانه ورجال قصره وقد علمت يا والدى ما كان
من فتنة زمام القصر مؤتمن الخلافة والجند السو دانيين .

- وقد وفقك الله ونصركم عايمهم .

- أحمد الله أن وفقنى ، غير أنه لم يمض إلاشهور على هذه الفتنة

حتى وصلتني رسالة من أبى الحسن المصرى وهو يقيم الآن فى دمياط

أنه علم بقرب وصول الفرنج إلى دمياط وفاء بوعدهم لمؤمن الخليفة ورجاله .

— أعلم هذا أيضا ، وقد أسرع مولانا الملك العادل فأرسل اليك الامداد يتلو بعضها البعض الآخر ، وسار بمن معه من الجنود فدخل بلاد الفرنج وأغار عليها ونهبها ليعجل بعودتهم من مصر .
— شكر الله له صنيعه ، فإنه لولا هذه الخدمات ما انتصرنا على الفرنج في دمياط .

ثم أطرق صلاح الدين لحظة وقال :

— ولا يمكن أن أنسى أيضا ما لقيته من الخليفة العاضد من مساعدة جليلة فإني ما رأيت أكرم منه يومذاك فقد أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب والعدة والسلاح .
— ولهذا أنت لا تريد أن تقطع الخطبة باسمه .

فابتسم صلاح الدين وقال :

— في الحق يا أبت أن هذا الخليفة طيب الخلق وفيه صفات حميدة وإن كانت له أخطاء فقد كان الباعث عليهما أحسنه من ظلم وضيق طول مدة حكمه وهو تحت سيطرة الوزراء المتتابعين : الصالح طلائع وابنه رزيك وضرغام وشاور .

لم يقتنع نجم الدين بهذا الدفاع وأخرج من جيبه خطابا قدمه إلى ابنه وقال :

— ولكن مولانا الملك العادل يطلب ويلح في الطلب إجابة

لرغبته ورغبة أمير المؤمنين المستنجد بالله الخليفة العباسي، وهما
خطابه فاقرأه :

وتناول صلاح الدين الخطاب وأخذ يقرأ :

— (وهذا أمر نحب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة
والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لآسيا وإمام الوقت
مستطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته) .

انتهى صلاح الدين من قراءة الخطاب فطواه في حرص وأطرق
يفكر ويعيد للتفكير : لقد صفا له ملك مصر بعد جهد أعوام، ونضال
جيوش ورجال ، وإنه ليرى من الحكمة أن يحرص على إرضاء أهل
مصر ليكسب عطفهم فهو يخشى الآن إن أقدم على هذا العمل أن يثير
سخطهم أو يتيح الفرصه لأعوان لدولة المحتضرة أن ينشطوا فينشوا
سمومهم ، ويضطر حينذاك إلى بدء النضال من جديد ، إنه يعرف أن
عددا كبيرا من أهل مصر يعتنقون المذهب السنّي ويكتمونه ، ولكنه
يعلم أيضا أن الكثيرين منهم شيعيون وأن هناك دعاة الدعاة والقضاة
ورجال القصر يتربصون به الدوائر ، ويرقبون أفعاله عن كذب فإن
بدرت منه بادرة تسوء نشطوا إلى الدعوة ضده ونضاله ، وربما جددوا
العهد مع الفرنج ودعوهم لنصرتهم ، ولكن الخليفة العباسي يريد
ويشاركه نور الدين في إرادته فكيف يستطيع أن ينفذ هذه الرغبة
دون أن يوقظ الحيات التي تعمل في خفاء ، لقد رأى أن يستشير
أعوانه الذين يثق بهم في مصر ، فنظر إلى أبيه وقال :

— لنؤجل هذا الأمر أيما يأبى حتى نجس النبض ونستشير
رجلا هنا كالقاضي الفاضل مثلا .

— لك هذا يا بنى ، وإني لأقدر منك هذا الحرص وهذا الحذر .
فضحك صلاح الدين وقال :

— هذا ما علمتنيه مصر - والآن لقد كنت أحب أن أحدثكم عن
رغبة لى أرجو لو عملتم على تحقيقها يا والدى .

— قل يا بنى .

— لقد أكرمنى الله سبحانه وتعالى ووقفنى لملك هذا البلد ،
ولكننى أرى أننى لازلت صغيرا قليل التجارب ، والسيد الوالد قد
خبر من الدهر أمورا كثيرة وله من حكمته ورجاحة عقله وإصالة رأيه
ما يؤهله لهذا المنصب ، ولهذا ألححت فى الرجاء أن يأذن لكم مولانا
الملك العادل بالحضور كى تتولوا هذا الأمر عنى .

فأحس نجم الدين بالسرور يملأ عليه نفسه ويسيطر على قلبه لهذا
البر من ولده وقال :

— لا يا والدى ، إن الله لم يخترك لهذا الأمر إلا وأنت كفاءه ، فما
ينبغى أن نغير موقع السعادة ، ولكننى أعدك أننى سأكون عوننا لك
على تدليل كل ما يعترضك من صعاب .

نهاية دولة

كانت الأيام تمر سراعاً وصلاح الدين قلق لا يهدأ ، مضطرب لا يستكين ، فقد أهمه حديث والده ورسالة نور الدين التي أمره فيها بقطع الخطبة للعاضد وجعلها للخليفة العباسي ؛ إنه يريد أن ينفذ وصية مولاه نور الدين ، ولكن الحوادث والمؤامرات التي مرت أمام ناظره منذ ولى الوزارة جعلته يترث قليلاً حتى يعد عدته ويتخذ للانقلاب الجديد أهبتة فقد كان للفاطميين أتباع منبثون في أنحاء مصر وكانت هناك بقية من أمراء الجيش الفاطمي تدين للعاضد بالولاء ، وكان جنود الجيش من السودانيين والأرمن يعتبرون الدولة دولتهم ، ويرون فناءهم في فنائها ، وكانت ثغور الدولة وأسوارها وحصونها مهدمة خربة لا تقف أمام مهاجم ولا تصد عدوان معتد وكان المذهب الفاطمي أخيراً هو المذهب الرسمي ، يلقت الدعاة مبادئه في المساجد .

استعرض صلاح الدين هذه الحالة كلها أمام عينيه . ورأى بتأقب نظره أن يجب عليه أولاً أن يقضى على هذه المظاهر فإذا وفق كان من اليسير عليه بعد ذلك أن يخطو الخطوة الأخيرة فيقطع الخطبة للعاضد وكان أخوف ما يخافه صلاح الدين أن يجدد أمراء الجيش وجزءه الثورة وأن يتصلوا بالفرنج في الشام يستعينون بهم ضده ، ولهذا بدأ بتفقد سور القاهرة فوجده خراباً مهدماً وقد أصبح كالطريق

العام لا يرد داخلا ولا يمنع خارجاً ، فاستدعى مولاه بهاء الدين قراقوش ووكل إليه أمر ترميمه وتجديده ، وكانت لبهاء الدين إرادة من حديد وعزمة صناديد فجمع العمال والأسرى والمساجين ، ووكل بهم الجنود الأشداء يعملون ليل نهار وهو يتنقل بينهم لا يهدأ أو لا يني ، فلم ينته شهران حتى كان السور يحيط بالقاهرة والفسطاط عالياً متيناً سليم الجدران قوى البنيان ، تعمر أبراجه وقلاعه حاميات من الأكراد والآتراك .

وذهب صلاح الدين بعد هذا إلى الاسكندرية فخرج أهلوها لمقابلته والترحاب به ، فكان لحفاوتهم أجمل الأثر في نفسه ، وجاشت في نفسه أحاسيس كثيرة متباينة وهو يمر في شوارعها وموكبه يشق الجموع المتراسة الفرحة برويته ، فقد استعاد في تلك اللحظة الأيام السوداء التي قضاهها محاصراً في الاسكندرية في قدمته الثانية إلى مصر ، وتذكر الصعاب التي عاناها والمشاق التي تحملها وهو يحارب الفرنج في البحر وجيوش مري وشاور في البر ولولا مالمقيه من معونة أهالي الاسكندرية لفضى عليه وعلى جيشه وقتذاك . وكان صلاح الدين ممن يذكرون الجميل فأكرم أهل الاسكندرية في زيارته هذه ونثر عليهم الدراهم والدنانير ، وأنعم على أعيانهم حتى انطلقت السنة الناس تدعو له بالنصر والظفر ، وكان صلاح الدين منذ حوصر في ذلك الثغر أعرف الناس بقلاعه وحصونه وأسواره ونقط ضعفها ، وما أصابها من إهمال أو وهن ، ولذلك قضى أيامه في الاسكندرية يشرف على

عمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها حتى اطمان إلى قوتها ثم عاد إلى القاهرة .

ولم يقم صلاح الدين في القاهرة إلا أياماً ريثما أعدت قطع السفن الجديدة التي أمر بإنشائها في دار الصناعة ثم حملت تلك الأجزاء على الجمال وتقدمها بفرقة من جيشه حتى وصل إلى مدينة تالية وكانت بها قلعة حصينة للفرنج يهددون منها الحدود الشرقية لمصر والملاحة في البحر الأحمر . وركبت السفن وأنزلت إلى البحر وشحنت بالمقاتلة ، وهاجم القلعة برأ وبجرأ حتى خضعت وأسر جميع من فيها ، فأمر بترميمها وملاؤها بالأشداء من رجاله ، وعاد إلى القاهرة والأسرى في ركابه .

وما انتهى من تحصين العاصمة وتأمين الشغور والحدود حتى التفت إلى النواحي الدينية وكانت سياسته ترمى إلى الفل من حدة المذهب الشيعي والحد من قوته بإفصاح المجال للمذهب السني ونشره بين الناس وتثقيفهم على أساسه . وكانت لدعاة المذهب الشيعي وشيوخه مراكز قوية في مساجد الفسطاط والقاهرة ، فوجد صلاح الدين أنه من الخرق في الرأي أن يقتحم على هؤلاء الدعاة والشيوخ معاقبتهم في تلك المساجد خوفاً من أن تشور المنازعات بين أتباع المذهبين فيؤدى هذا إلى اضطراب الحالة في مصر ، ولسكنه اقتدى بمولاه نور الدين ورأى أن ينشئ في مصر المدارس ، ولم تكن مصر تعرفها من قبل ، وبدأ بسجن المعونه القريب من مسجد عمرو بالفسطاط فأحاله مدرسة

للسافعية ، ثم أتبعه بدار الغزل فأحاطها مدرسة لها السكية ، وحذا حذوة
أقرباؤه فاشترى ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه منازل العز
بالفسطاط وجعلها مدرسة للسافعية ، وأوقفت الأوقاف الكثيرة
للصرف على تلك المدارس ، وأجزلت العطايا لمدرسيها وفقهائها وطلابها
فأقبل الناس عايتها وبدأوا ينفضون عن المذهب الشيعي وأشيائه .
وثنى صلاح الدين بعد هذا فألغى شعار الاسماعيلية وأمر باسقاط
« حتى على خير العمل » من الآذان ، وكانت هذه التغييرات تحدث في
بطء وكياسة فلم يحس بها عامة الناس ، ومن أحس بها كان يستنكرها
أولا ثم لا يجد صدى لاستنكاره فيلوذ بالصمت ، والحياة تجرف الجميع
في تيارها وتشغلهم بشؤونها .

ولم يبق أمام صلاح الدين إلا رجال القصر وأعدائه فبدأ بامراء
الجيش الفاطمي فعزلهم واسترد منهم اقطاعاتهم وأبعدهم عن منازلهم
وقصورهم وأسكنها قواده وجنوده ، ثم أمر أخاه تورانشاه فمتبع
الجنود السودانيين في الصعيد حتى شتتهم فلاذوا بأذيال الفرار وذهبوا
إلى بلاد النوبة والسودان .

عند ذلك بدأ صلاح الدين يقص جناحي العاضد ويسلبه قواه
المادية فقطع عنه إقطاعاته ، واستولى على جميع ما كان بيده من البلاد ،
ثم استولى على القصور الفاطمية ووكل بها وبمن فيها قائده الجبار
بهاء الدين تراقوش فتولى حراستها بعين لا تغفل فكان لا يخرج منها
خارج ولا يدخل إليها داخل إلا بإذنه .

وكان العاضد يرقب هذه التغييرات كلها دهشاً متعجباً فقد خيب صلاح الدين ظنه ، إنه اختاره من بين القواد جميعاً ليكون وزيره لأنه رآه شاباً صغير السن فحسب أنه يكون في يده أداة طيعة ، فإذا به قد فان جميع الوزراء السابقين دهاء ومكراً ، وقوة وجبروتاً ، لقد كان له في عهد الوزراء السابقين أثارة من قوة ، وها هو صلاح الدين قد قضى عليها وتركه سجيناً في قصره لا يستطيع حراكاً إلا والعيون ترقبه من كل مكان ؛ لقد كان له في الماضي جيش وقواد وها هو صلاح الدين قد أبعد منهم من أبعد وشئت من شئت ، وأصبح الجيش جيشه ، كل قواده وجنوده من الأكراد والآتراك ؛ لقد كان له منذ ولي الحكم ماله الخاص ، وهو سلاح نافع ، وها هو صلاح الدين قد سلبه هذا السلاح الأخير فلم يبق له من أيام عزه الغابرة إلا فرساً واحدة ، وحتى هذه الفرس الأخيرة لم يشأ صلاح الدين أن يتركها له فأرسل بالأمس يطلبها ، فأجابه العاضد إلى طلبته ، ولم يتمالك نفسه بعد خروج الرسول وقد طغت عليه الآلام وأملت به الأحزان فانفجر باكياً ، وظل على ذلك ساعة من الزمن وهو في بستانه ، ثم أحس قدوم قادم ، فمسح دموعه وانقلب إلى غرفته وقلعها عليه وقد أحس المرض يلب في جسمه ديبياً .

ونام العاضد في تلك الليلة نوماً متقطعاً تخللته الأشباح والأحلام المزعجة ، واستيقظ عند بزوغ الفجر وهو قلق مضطرب منقبض الصدر فقد رأى فيما يرى النائم أنه ذهب إلى قبسة الامام الشافعي ، فصلى

وجلس ، وإذا بعقر به خيفة قد سعت إليه فلدغته .

قام العاضد من سريره فتوضأ وصلى الفجر وأحضر المصحف
ولبث يقرأ فيه ساعة من الزمن ، فلما هدأت نفسه قليلا ، استدعى
أحد رجال قصره وأرسله إلى قبة الشافعي وأمره أن يحضر من يجده
بها من الرجال .

ذهب الرسول إلى القبة فلم يجد بها إلا رجلا صوفيا غريبا اسمه
الشيخ نجم الدين الخبوشاني فأحضره معه .

وسأله العاضد عن حاله وأخباره ، غير أنه وجده رجلا فقيرا لا
ينبيء حاله عن شر ، فأكرمه وصرفه .

كان صلاح الدين يتخذ طريقه إلى هدفه على هدى من بصيرة نفاذة
وتجربة حكيمة ، غير أن نور الدين كان ثائرا لا يهدأ ، فهو يرسل إليه
الرسول بعد الرسل يستعجلونه الضربة القاضية على هذه الدولة المحتضرة
وهو يبدي الأعذار ويستمهل حتى يستكمل عدته ويهيء جميع الظروف
فلما أحس أن الظروف قد أصبحت مواتية جمع مجلسا من أمراء جيشه
وقواده وفقهاء السنة ومتصوفيها ، وعرض عليهم رسائل نور الدين
وسألهم المشورة والنصيحة فتردد البعض وأبدوا مخاوفهم أن يشور
الاسماعيليون وأنصارهم ، وتحمس البعض الآخر للفكرة ، وأيدوها ،
ومن عجب أن أشد الناس مهاجمة للعاضد وطعنا فيه وذمالة وتحييذا
لقطع الخطبة باسمه كان هو ذلك المتصوف نجم الدين الخبوشاني .

وكثير القول وطال النقاش ، وانتهى الرأي أخيرا إلى أن يترك

صلاح الدين تنفيذ الخطة لآييه نجم الدين حتى إذا فشلت تدارك هو الأمر واعتذر بأن القوم أقدموا دون علمه وموافقته .

وفي يوم الجمعة الأول من المحرم سنة ٥٦٧ ذهب نجم الدين أيوب ومعه جماعة من أصحابه وامراء دولته إلى المسجد الجامع بالنفسطاط واستدعى إليه خطيب المسجد فقال له :

— إن انت ذكرت هذا المقيم بالقصر في خطبتك ضربت عنقك

فشده الخطيب وعجب ، ثم سأل :

— فلن أخطب إذن ؟

فقال نجم الدين .

— مولانا الخليفة العباسي المستضيء بالله .

وصعد الخطيب المنبر وقد استولت عليه الحيرة ، ونال منه الذعر ، إنه إن أطاع أمر نجم الدين فلربما ثار به المصلون وقضوا عليه ، وإن لم يطعه عرض نفسه للقتل ، وألقى خطبته مضطربا مرتبكا على غير عادته ، وهو لا يدري ما يقول ، وأخيرا هداه الموقف الشائك إلى أن دعا للائمة المهديين ثم للسلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ونزل فصلى بالناس وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الخوف ؛ فلما انقض الناس دعاه إليه نجم الدين وسأله :

— لم لم تفعل كما أمرت ؟

فقال الخطيب معترفاً

— إني لم أعرف اسم المستضىء ولا نعوته ، فإذا علمتها دعوت له في الجمعة القادمة إن شاء الله .

وآثر نجم الدين العفو وخرج فجمع في داره جماعة من الفقهاء وطلب إليهم أن يختاروا من بينهم واحداً يتولى الخطبة للخليفة العباسي في الجمعة القادمة ، فتردد البعض ، وتخوف البعض ، وأخيراً تقدم منهم رجل موصلى كفيف البصر اسمه الأمير العالم ، وقال :

— أنا لها أيها الأمير

وخرج به نجم الدين فصاحه وقال :

— بارك الله فيك أيها الشيخ

ولكنه أدار وجهه وهو يقول في نفسه : « حقا إن كل ذي عاهة جبار » .

وتناهت هذه الأخبار إلى العاضد في مرضه فأدرك أن الأمر جد لا هزل ، وأن هذه نهاية النهاية فاشتد به المرض فكانت تعتريه نوبات من الغيبوبة فإذا أفاق جمع إليه أهله وأولاده وطفق يقبلهم ويضمهم إليه وعبراته تنهمر من عينيه . لقد آمن أن دولته ودولة الفاطميين قد انتهت ، ولكنه أصبح يخشى على أهله وأولاده عوادي الزمن فماذا هو فاعل من أجلهم ؟ ليس في الأسرة رجل كبير رشيد يوصيه بهم خيراً ، ولم يبق من امراء الدولة وقوادها أحد يعهد بهم إليه ، وأخيراً لجأ إلى ما يلجأ إليه المضطر فأرسل يستدعي إليه صلاح الدين .

وحضر صلاح الدين واستمع إلى وصية العاضد إليه تخرج في كلمات
متهالكة متقطعة أن يرعى أهله وأولاده من بعده ، وتأثر صلاح الدين
لقوله وبكى لبكائه ، ووعد خيراً وانصرف

واشدت وطأة المرض على العاضد حتى قام لبعض حاجته فعث
وسقط ، وأرسل أهله في طلب طبيب القصر ابن السديد فتدكأ واعتذر ،
وعلم العاضد باعتذاره فاشتد به الألم وقال : « لقد انفض عنى الجميع حتى
الطبيب ، لم يبق في الدنيا إذن خير » ، ورفع خاتماً مسموماً في إصبغه
كان قد أعده لمثل هذا اليوم ، ومصه مصتين فاسترخت أعضاؤه ،
وظل طول الليل يتلوى من الألم .

وأشرقت شمس يوم عاشوراء على أصوات النعي وبكاء الباكيين
وصراخ الصارخات والنادبات ، يعلنون جميعاً للبالأ كله موت خليفة
ونهاية دولة — دولة سمت مصر في عهداها إلى أعلى مراتب العز والمجد ،
وأسمى طبقات الرفاهية والسؤدد .

ريحانة تستغيث بفاطمة

وقفت السيدة أزهار زوج الأمير شمس الخلافة على باب غرفة فاطمة ترقبها وهي جالسة جلستها الهادئة مرتدية رداء أحمر وتغطي رأسها عصاية حمراء فبدت لها وكأنها وردة حمراء جميلة تفتحت في الصباح الباكر تدعو القاطنين بجملها، وكانت فاطمة تحنو على عودها وتحرك أوتاره فتنبعث لحركتها ألحان عذبة فيها حنين فتجاوبها بنغمت منسقة كاللحن .

وهاجمت أزهار أفكار متباينة سريعة كلها تدور حول فاطمة ، فهي تراها منذ سنوات كالزهرة الجميلة حان قطافها ، وقد حدثت زوجها ليجد لها زوجا كفاً ، وأقبل الخاطبون فكانت تحدث فاطمة عنهم فلا تجد منها إلا رفضاً وإعراضاً ، فإذا ألحت عليها أن تبين لها سبب الرفض كانت تجيب في مكر دائماً :

— إنني سعيدة معك ومع أبي يأمامه ، ولا أحب أن أغادر كما لمنزل لا أعرفه ، ورجل لا أعرفه .

فتنظر أزهار وتسكت ولكن على مضض .

وقد جاءت اليوم تعرض على فاطمة خاطباً جديداً ، ولكنها مكثت مدة تقدر وحدها الحجج القوية والبراهين المفحمة التي ستهمج بها على فاطمة لتقنعها حتى تفوز منها بالقبول ، فلما وقفت بالباب تستمع لأغانيها وتراقب وجهها المشرق وجسمها البض النامي ازدادت

اقتناعا بضرورة الاسراع بزواجها فطرقت الباب طرقا خفيفا انتهت
له فاطمة فرفعت رأسها ورأت زوج أبيها تطل عليها بوجه مشرق
باسم وتحييها تحية الصباح ، فتركت العود جانبا وخفت إليها مرحبة ،
وقبلت يدها فمدت السيدة أزهار يدها اليسرى ومرت بها على شعر
فاطمة الأسود الناعم المنسق وقد تدلى في ضفيرتين طويلتين خلف
ظهرها . وقالت :

— نعم صباحك يا بنتي ، ماهذا اللحن الجميل ، لقد غدوت
موسيقية بارعة .

فأطرقت فاطمة حياء ، واحمر وجهها من أثر هذا المرح ولم تجب
وسكتت السيدة أزهار لحظة ثم قالت :

— أتعرفين فيم أفكر الآن يا فاطمة ؟

فرفعت فاطمة رأسها ونظرت إلى زوج أبيها نظرة سريعة فلم تعرف
فيم تفكر ، ولكنها خشيت أنها قد تكون أتت لتحدثها عن خاطب
جديد غير من رفضت فقالت :

— نظراتك اليوم يا أمي لا تظهر ما في نفسك
فضحكك أزهار وقالت :

— إنني أفكر في ورده جميلة ذات لون أحمر قان بديع تغطيها
قطرات الندى اللؤلؤية الجميلة .

فقالت فاطمة :

— أنا أعلم يا أماه أنك تحبين الورد والرياحين ، ولكن هل

تعوزك الأزهار وبستان قصرنا مملوء بها والله الحمد .

— نعم يا بنيتي ، صدقت — بستان قصرنا مملوء بها والله الحمد ،
ولكنني أفكر في وردة فريدة هي خير مافي هذا القصر من ورود ،
بل أنا أعتقد أنها خير مافي قصور القاهرة من ورود .

فعبجت فاطمة لهذا الوصف وقالت :

— إنك تبالغين يا أمي فليس في قصرنا وردة بهذا الجمال وإلا
لضاعت رائحتها فمئات الأرجاء وعطرت الأنحاء .

واقتربت أزهار من فاطمة ووضعت يدها على كتفها وقبلتها قبلة
تعبر بها عن حنان الأم وإعجابها وقالت :

— لا تتغابي يا فاطمة ، إنك الوردة التي أعنى والتي ضاع عبيرها .
كما تقولين — فجزب الأنف .

فعلما الدم في وجه فاطمة وغطاه بحمرة خفيفة جميلة وأطرقت
حياء وقالت :

— إنك دائما تمدحين جمالي يا أمي ، وهذا كرم منك ولكنني
أخشى أن يداخني الغرور فالعذارى يغيرهن الشتاء .

فمدت أزهار يدها وأمسكت ذقن فاطمة ورفعت رأسها قليلا ،
ونظرت إلى عينيها السوداوين وقالت :

— إنني أصفك بما فيك يا فاطمة ، ولكنني أعجب حتماً يظل
هذا الجمال عاطلا بعيدا عن الأنظار ، بعيدا عن رجل يسعده وتسعدينه
فخجلت فاطمة وقالت :

— عدنا إلى هذا الموضوع البغيض إلى نفسى ، لقد قلت لك
يا أمى إننى لأرغب فى الزواج الآن .

فشدت أزهار الضغط عليها بيدها وضمتها إليها وقالت :

— إن الزهرة إذا تفتحت يابئتي وجب قطافها وإلا ذبات ،
وتناثرت أوراقها وضاع جمالها .

— ولكننى لازلت صغيرة يا أمى .

— لست صغيرة يا فاطمة ، كان يجب أن تكونى الآن أما ذات أطفال

فحارت فاطمة كيف تجيب ، وأرادت أن ينقل الحديث إلى

هو موضوع آخر فمدت يدها إلى العود وقالت :

— أتخبين أن تسمعى هذا اللحن الجديد ، إنه لحن جميل سمعته

والدى فأعجبته ، وكنت أكرره قبل مجيئك فإن ريحانة ستحضر الآن

لتسمعه منى كاملا لأول مرة ، ولم تكذبتم كلامها حتى دخلت الخادم

تستأذن لريحانة ، فوقفت السيدة أزهار وقالت :

— فكرى يا فاطمة فى هذا الأمر ثانية فإن الأمير كان هنا بالأمس

ليسأل أباك عن رأيه ، وأبوك يريد أن يصل إلى رأى حاسم قبل أن

يسافر إلى عمله الجديد فى قوص .

فدهشت فاطمة وفغرت فاهها ، ونظرت إلى زوج أمها وقالت مستفسرة :

— عمله الجديد فى القوص ؟ !

— أجل فقد أقطع صلاح الدين قوص لأخيه شمس الدولة

توران شاه فأنا بأك عنه ليل هذه الولاية ، ويبقى هو هنا .

ودخلت ريحانه فانقطع الحديث بين أزهار وفاطمة ، وحيت
السيدة ضيقها وخرجت ، وتركت الفتاتين معا تبث كل منهما همها
لصاحبها ، ونظرت ريحانة فوجدت فاطمة مطرقة تنظر إلى العود في
يدها وإلى الأرض نظرات ساهمة شأن من يفكر ، فسألتهما :

— فيم تفكرين يا فاطمة ؟

فرفعت فاطمة رأسها وتكلفت الابتسام وقالت :

— لاشيء كنت أستعيد اللحن الذي سأسمعه اليوم .

فلم تشأ ريحانة أن تخرجها ، وقالت :

— إلى هذا الحد تشغفين بدروس الموسيقى ، أسمعيني إذن ،

فأمسكت فاطمة بالعود وحنّت عليه تداعبه بريشتها وتعنى :

يامنزل الأنس الجميع وملعب الحى الأغن

أين استقلت بالحديد بركابه ومتى ظعن

شوقى إلى زمن الحمى سقى الغوادى من زمن

شوق المغرب شردته يد البعاد عن الوطن

ولقد عهدتك والزمان بشملنا بك ما فطن

وثرأك ما أغبرت مسا رحه وماؤك ما أسن

لام العذول وما درى وجدى وببالي بمن

ماضر من هو فتتى لو كان يرحم ما فتتى

ولم تكند نتهى من العزف حتى حُبس صوتها وخنقتها العبرات ،

ونظرت ريحانة فوجدت الدموع تترقرق في عيني فاطمة فعجبت لها

وأبعدت العود عنها وأمسكت يديها وقالت :

— ما هذا يا فاطمة ؟ أتبكين ؟ ولم ؟

قأسرعت فاطمة وبلعت ريقها ، ونظوت إلى ريحانة وابتسمت

وهي تقول :

— لاشيء - لاشيء . . . إن هذا يحدث لى دائما إذا كنت

متعبة فلا تراعى .

فقال ريحانة وهي لاتصدق :

— لا - ليس هذا البكاء من أثر التعب .

وارتبتك فاطمة وحارت ماذا تقول ، إنها هى نفسها لا تعرف

سببا بعينها لبكائها فقد كان اللحن جميلا حنوننا يثير الشجن ، وكانت

نفسها ثائرة لأموور كثيرة أهمها هذا الحديث من زوج أبيها تعيده كل

يوم على مسامعها وهى حيرى لاتعرف كيف ولمن تفضى بسرها

وجاءت ريحانة والثورة مضطمة فى نفسها فلم تكذبدا اللحن وتعيده

حتى ثارت أحزانها وهاجت شجونها فوجدت الدموع تنساقط من عينها

ولسكنها أرادت أن تنتحل عذرا تقنع به ريحانه حتى لاتثير شكوكها فقالت :

— إننى أبكى هذا القصر الذى سنتركه بعد قليل فإن الامير شمس

الدولة اختار أبى ليكون واليا على قوص بدلا عنه .

فقال ريحانة :

— وهل فى هذا ما يثير أحزانك ، ويبعثك على البكاء ، إن قصر الامير

فى قوص جميل كهذا القصر ، ومن يدرى فقد يفضل والدك أن يترككم

ها هنا ويسافر إلى قوص وحده .

ففرحت فاطمة لهذا الرأي وقالت :

— بوركت ياريجانة ، والله إن هذه لفكرة جميلة ، وسأطلب من

أبي أن يتركنا هنا . . . ثم سكتت لحظة وقالت :

— ولكن من يستطيع خدمته في قوص ؟ لا-لا بد من أن أصحبه

حتى ولورفض الجميع الذهاب . . . ولكن دعينا من هذا

ونظرت فاطمة فرأت رفيقتها تخرج منديلا فتمسح به دموعها

وهي تقول :

— رحم الله الخليفة العاضد وطيب ثراه ، وجعل الجنة مشواه ،

لقد لقينا العز في عهده ، وسنلقى الضيم من بعده .

فقالت فاطمة تواسها .

— لا ياريجانة — لا تخافي ولا تحزني فإنك ستنعمين بالعر الذي

كنت تنعمين به أيام مولانا الخليفة العاضد فإنى أسمع أن صلاح الدين

كريم النفس لا يظلم ولا يجور .

— إنه كريم النفس حقاً ، ولكن الملك وسياسة الملك لا تعرفان كرماً .

— وما لك أنت وسياسة الملك ؟

— ألسنت من جواري القصر ونسائه ؟

— بلى ، وما بال جواري القصر ونسائه ؟

— لقد سمعت اليوم أن صلاح الدين أمر بإبعاد رجال القصر عن

نسائه وحفظ كل فريق في سجن خاص حتى لا يتصل الفريقان فيتزاوجوا

فيلدوا وارثين للفاطميين ومطالبيين بالخلافة :

تألمت فاطمة لهذا الخبر وحرزنت لحزن صديقتها ، ولكنها أرادت أن تطيب خاطرها فقالت :

— لا تخشى شيئاً يا ريحانة فإني سأحدث أبي الليلة في أمرك ، وسأطلب إليه أن يبقيك هنا في منزلنا :

فقفزت ريحانة فرحة كمن أنقذ من شر يحيط به وأقبلت على فاطمة تعانقها وتقبلها وتقول :

— شكرا لك يا فاطمة وألف شكر ، والله لئن فعلتيها ليكون ذلك جميلاً لك أذكره مدى الحياة .

ولسكنها ما لبثت أن وجمت وأطرقت ، وراحت تفكر في خشتين . . . خشتين المحتفى الذي يتوقع الموت في كل حين ولا صديق يتصل به ويرعاه ، فنظرت إلى فاطمة وقالت وهي تبكي ثانية :

— وخشتين يا فاطمة ؟؟

— وخشتين ؟ وهل هو لا يزال في مصر . إنني لم أسمعك تذكرينه منذ جاء أسد الدين آخر مرة .

— أجل يا صديقتي إنه في مصر . فهل تحفظين سرى وسره إن أنا أنبأتك عنه :

— قولي يا ريحانة — ولا تخافى .

— علم خشتين بمجىء أسد الدين فأيقن أن أجله قد دنا ففر إلى قرية البدرشين جنوبي القاهرة ، وتنكر في زى فلاح ، واستأجر أرضاً

وكوخاً، وظل يعمل في هذه الأرض حتى الآن، وكنت أنتهز الفرص فأتنكر في زي رجل وأذهب لزيارته بين الحين والحين فأجده يعيش على حذر لا يكاد يختلط بأحد من الناس فهو يظن كل عين عالمة بسره وكنت أعد العدة ليصدر العفو عنه من صلاح الدين، وها أنت ذى ترين كيف مات الخليفة، وكيف نقر في القصر سجينات تحت حراسة قراقوش، وكيف سيكون ما لنا بعد أيام.

وبكت فاطمة لبكاء صديقتها، إلا أنها أخذت تفكر في سبيل تساعد به ريحانة في ملبتها، ورأت أول ما رأت أن تروى الحادث لأبيها وترجوه أن يسعى لدى صلاح الدين ليعفو عن خشتين، ولكنها قدرت أن يسألها أبوها، وكيف عرفتي هذا الرجل، ولا بد للإجابة عن هذا السؤال أن تحدثه عن العلاقة بينه وبين ريحانة، وهي لا تجرؤ على هذا؛

ثم فكرت في عبد الرحمن، ولكن كيف تتصل به وقد قطع أبوها دروسه، لكبر سنهما، وليحجبها عن أعين الرجال توطئة لزوجها من أحد الأمراء، فهي تعاني الآن من بعده؛ غير أنها امرأة وللنساء إحساس لا يخطيء في هذه المواضع فقالت لريحانة:

— أتعرفين الشيخ عبد الرحمن القوصي .

— أجل أعرفه .

— سأكتب له خطاباً أروى له الحادث وأطلب منه أن يؤوى

خشترين عنده في داره ، وتأكدى أنه يكون عنده في أمان ، وعليك أنت أن تسعى لدى خشترين لتقنعيه بهذا .
فقال ربحانة :

— وبعد — أنه بهذا ينتقل من سجن إلى سجن .
— ولكنه سيجد من عبد الرحمن صديقاً ، وقد نوفق إلى استصدار العفو عنه بعد ذلك فاتركى الأمر للمقادير .

* * *

قرأ عبد الرحمن خطاب فاطمة فيكاد يطير به فرحاً ، ولكنه ما لبث أن عاد إليه يقرأه ثانية بعد أن خف ما به من نشرة السرور فصدمة كلة « خشترين » ونظر إلى حاملة الخطاب وقال :

— خشترين لا زال حياً ومحتفياً ؟
— أجل .

— وتريدنى أن أويه في بيتي ؟
— لو تكرمت .

فصاح مستنكراً :

— لا — لا يمكن أن أفعل هذا أبداً ، وهل نسيت ما فعل !؟

فذعرت فاطمة وأحست خيبة مسعاها فسألته :

— وماذا فعل :

وكاد أن يجيها ، ولكنه عاد فتذكر أن فاطمة ترجوه أن يجيب طلبها إكراماً لصديقتها العزيزة عليها ، وتذكر أن هذه أول مرة يتلقى

فيها خطاباً من فاطمة ، وأول مرة تتقدم إليه فيها برجاء ، وهي لم تفعل ما فعلت إلا لثقتها الكبيرة به فهل يرفض رجاءها ولا يكون عند حسن ظنها به ، ولكنه عاد فتذكر أيضاً كيف وشى هذا الرجل بصديقه أبي الحسن عند شاور ، وكيف كادت هذه الوشاية أن تودي بحياة هذا الشيخ المسكين ، وهكذا ظل عبد الرحمن في صراع عنيف يهيم بالرفض فيبدو له شبح فاطمة من بعيد يشير إليه في استعطف أن يقبل ويضيف الرجل عنده حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

— ونظر عبد الرحمن فوجد ريحانة — هذه الفتاة الجميلة —

تقف أمامه ، وتنظر إليه نظرات مستكينة كلها رجاء وخوف فاستيقظ في نفسه من يدافع عن الرجل والفتاتين ، وأحس كأن إنساناً يقول له :

— إن هذا الرجل أصبح غير ذي خطر فقد قتل شاور الذي كان يعتز خشترين بجاهه ، ومات العاضد فانتهت الدولة بموته ، فم إذا تخاف ، حقاً إن الرجل أخطأ في الماضي وخطؤه جسيم ، ولكن كل جسيم يهون في سبيل إرضاء فاطمة .

واقتنع عبد الرحمن بهذا الرأي فنظر إلى ريحانة ثانية وقال :

— سأنسى الماضي يا ريحانة إكراماً لفاطمة ولك ، فليأت خشترين فسيكون هنا وكأنه في داره .

وفرحت ريحانة وضحكت قائلة :

— إننى ياسيدى لا أعرف كيف أوفيك حقك من الشكر ، ولكننى أرجو أن أوفق يوماً لرد هذا الجميل .

المؤامرة الثانية

ومرت شهور بعد ذلك وأهالي الفسطاط لا يرون الشيخ عبد الرحمن إلا وفي صحبته شيخ غريب ذو لحية سوداء ويده مسمحة لا تفارقه ، وتساءل الناس من يكون ذلك الشيخ ؟ وأجاب البعض من هذا شيخ جليل من علماء كردستان وفد على مصر زائراً وقد عرض عليه الشيخ عبد الرحمن أن يضيفه في داره فقبل وهو الآن ضيفه ، وكثرت الأقاويل ، وتعددت الروايات والكل يببالغون في وصف الشيخ وأخلاقه وعلمه العزيز .

ولم يكن هذا الشيخ غير خشتين فقد اختار له عبد الرحمن هذا الرى ليختمى وراءه ، وأجاد خشتين تمثيل دور الفقيه لما كان له من شغف قديم بالعلم والدراسة ، ولسكثرة ما كان يقرأ في كتب الفقه ويجالس الفقهاء ورجال الدين ويناقشهم ويساجلهم .

وكان عبد الرحمن يلازمه دائماً في غدوه ورواحه أول الأمر فلما اطمان الناس إليه وقل استغرابهم وتساؤلهم ترك له الحرية يخرج من المنزل أنى شاء ويذهب إلى حيث يريد ، ويعود وقت تحلو له العودة . وعاد عبد الرحمن يوماً إلى داره وفتح الباب ودخل إلى حديقة داره الصغيرة التي لا تحوى غير نخلتين وشجرة ليمون وشجرة رمان وكرمة عنب فرأى خشتين جالسا تحت شجرة الليمون ويده خنجر

يقبله بين يديه فعجب له وتقدم فحياه ، ولاكنه وجده مطرقاً ينظر إلى الخنجر فلم يرفع وجهه ، ولم يرد التحية ، وأعاد السلام مرة ثانية وسأله قائلاً :

— ما بالك يا خشتين لا ترد تحيتي ؟

ورفع خشتين رأسه ، ونظر إلى عبد الرحمن بعينين تملأهما العبرات وقال :

— لست جديراً بسلامك يا شيخ عبد الرحمن ، لا ولست جديراً أيضاً بالإقامة معك .

فتألم عبد الرحمن لرفيقه وحسب أنه يخضع الآن ليقظة من يقظات ضميره . . . فتألم لما فعله مع أبي الحسن فأراد ان يخفف عنه بعض ما يحس فابتسم وقال :

— إن الندم يا صديقي نوع من الاعتراف بالذنب وطلب الاستغفار ، غفر الله لك وسأحك ، وتأكد أن أبا الحسن لو كان هنا الآن لعفا عنك . فضحك خشتين ضحكة مريرة وقال :

— إن الأمر اخطر مما تظن واخطر مما فعلت مع ابي الحسن ففغر عبد الرحمن فاه واسرع يسأله :

— اخطر مما فعلت مع ابي الحسن ، وماذا يكون هناك اخطر من الوشاية برجل برىء ؟ . قل لى . . اسرع .

فارتبك خشتين وتردد ان يفضى بسره إلى عبد الرحمن واكتفى

بأن نظر إليه نظرة طويلة وكأنه يستشيريه ويسأله النصيحة ، ثم تذكر
جرمه فأحنى رأسه وأخفى وجهه بين يديه وراح يبكي بكاء قويا .

وتوافدت الظنون على عبد الرحمن وانشأ يسأل نفسه :

— ترى ماذا فعل الرجل ؟ وأى ذنب هذا الذى أيقظ ضميره
واسلمه فريسة للندم وتأنيب النفس حتى راح يبكي هذا البكاء المر ؛
ووجد أن من واجبه مهما كان الجرم عظيما ان يقف إلى جانب ضيفه
من هذه المحنة النفسية العنيفة فهو أحوج الناس اليوم إلى قلب عطوف
يطمئن إليه ليتدارك خطأه إن كان هناك مجال لذلك أو ليستغفر ربه
إن كان قد فات الأوان ، فجلس إلى جانبه وربت على كتفه وقال :

— لا تبتئس يا خشتين ولا تستسلم للحزن هكذا فأنت رجل
حرب وجلاد — واخبرنى بما فعلت فأنا صديقك على أجد لك مخرجا
فعاد إلى خشتين قبس من روح الجنيدية القديمة فمسح دموعه وقال :

— لا بد مما ليس منه بد . . . اسمع يا صديق . . . سأحدثك عن
كل شيء . . .

— قل ولا تحف .

— هناك مؤامرة تدبر منذ زمن للقضاء على صلاح الدين
وإعادة الفاطميين .

فدعر عبد الرحمن وادرك ان الأمر جد خطير فقال فى استنكار :

— مؤامرة للقضاء على صلاح الدين ؟ وانت من مدبرها !

فأجاب خشتين وفي قوله رنة الأسف :

— أجل وأنا من مدبريها .

— وهل كدتم كيدكم وتم الأمر ؟

— تم نصفه وبقي نصفه .

— إذن لا زال هناك أمل في إصلاح ما أفسدتم .

.. أجل هناك أمل .

— حدثني عن كل شيء إذن بالتفصيل لتتدبر الأمر معاً .

— اسمع يا صديق . . وانظر إلى هذا الوشم في ظاهر يدي . .

إنه أصل البلايا .

— وكيف !

— جلست يوماً في مسجد عمرو وأشرح بعض آي الذكر الحكيم

لشفر من المصلين ، ثم مر على مجلسنا الشاعر عمارة اليميني ، وتركنا وبعده ،

ولكنه عاد فوقف خلف الجالسين ، وأخذ يرمقني بنظرات فاحصة

ثم جلس يستمع حتى انتهى الدرس وهو يراقبني مراقبة دقيقة .

وخرجت من المسجد فإذا به يتبعني ، واقترب فخياني باسمي ،

فذعرت وخفت ، وارتبكت وأنكرت تحيته ، ولكنه أبان لي أنه

قد عرفني بعلامات كثيرة أخصها صوتي ، وهذا الوشم في ظاهر يدي

رآه وأنا أستعين بيدي أشير بها أثناء الشرح .

فدهش عبد الرحمن لهذا الحديث وقال :

— عجيب أمر هذا اليميني — إن ذكاه خارق وإنني لأتوجس

خيفة من هذا الذكاء ، وخاصة وهو لا ينعم الآن بما كان ينعم به أيام الفاطميين ووزرائهم . . . ولم لم تخبرني بهذا في حينه يا خشتين ؟
— استمع يا شيخ عبد الرحمن لبقية القصة — مشيننا نتحدث قليلا ثم دعاني لزيارته في داره وألح في الدعوة فقبلت وذهبت ، وهناك استماني بأسلوبه المعسول حتى ملت اليه ، ثم أبان لي عن غرضه أن أنضم إليه في عمل عظيم يكون لي من ورائه خير كثير ، وظل يشكو صلاح الدين وأهله ، ويترحم على أبناء فاطمة ووزرائهم ، ويذكر جودهم وإكرامهم له ، ويشير سخطي على هذه الدولة الجديدة دولة بني أيوب ويقول : « أترضى أن تعيش محتفياً هكذا تحيا حياة الفقهاء البائسة وأنت رب السيف ورجل الحرب والنزال . . . » وأفلح الرجل في استشارتي وسمعت اليه وعلمت أن فئة من الرجال تعمل لإعادة بني فاطمة فيهم قاضي القضاة وداعي الدعاة وبعض رجال الجيش ، وفيهم من الفقهاء زين الدين المصري ، وفيهم رجال من فرنج مصر والشام .
— وأين تجتمعون ؟

— في كنيسة خربة في طرف من أطراف القسطنطينية .

— وما سبيلكم لتحقيق هذه الأمنية ؟

— كانت خطتنا ذات شقين ، نفذ شق منها وبقى شق . . . ؛ كنا

ترى أن جيش صلاح الدين في مصر قوى فأردنا إخفاؤه وقد ألتحنا في هذا وكان سلاحنا في هذا الشق عمارة .

— وكيف ؟

— ظل عمارة كعادته يمدح صلاح الدين وأخوته وبنى أيوب جميعا
عنه يظفر بفيض المال الذي كان يفيض عليه دون حساب زمن الفاطميين
فلم ينل إلا العطاء القليل ، إلا أنه وجد شمس الدولة تورانشاه أكرم
بني أيوب وأسخاهم إذا أعطى ، فتقرب إليه وأكثر من مدحه ، فعهدنا
إليه أن يحرزه على الخروج لفتح اليمن ليكون له ملك كملك أخيه
صلاح الدين في مصر ، وما زال بتورانشاه ينشده القصيدة تلو القصيدة
وينقل إليه أحاديث اليمن ويهون عليه أمر فتحها حتى بات تورانشاه
لا يفكر إلا في اليمن ، وطلب من أخيه صلاح الدين أن يسير لفتحها فأذن له .
فقال عبد الرحمن :

— وهكذا نجحتم في شطر جيش صلاح الدين شطرين ، شطر
سار لليمن وشرط بقي في مصر ، وخيل إليكم أنكم أضعفتم بهذا قوة
صلاح الدين في مصر . . وما هو الشق الثاني من الخطة يا خشتين ؟
— الشق الثاني يتلخص في الاستعانة بالفرننج وقد تواعدنا معهم
أن يحضروا إلى مصر متى سافر تورانشاه فاذا حضروا أشعلنا نار الثورة
في مصر وتعاونوا على إعادة الفاطميين إلى العرش وطرد صلاح الدين
وبنى أيوب .

سمع عبد الرحمن القصة فعجب لهذه التيارات الخفية تتخذ سبيلها
وتمهد لأحداث قوية عاصفة وهو مغمض العينين لا يحس ، ونظر إلى
خشتين فوجده قد قبض على خنجره من جديد فسأله :

— وما هذا ؟

قال :

— اننى أحس الآن ضميرى يخزنى وخزاً وجيعاً وأجد اننى كنت
غير موفق منذ وفدت على هذه الديار . أغرانى شاور نختت أسد الدين
وبقيت هنا — ثم عرفت سر أبى الحسن فأنبأت شاور به وكنت السبب
فى سجن هذا الرجل الهرم — وأخيراً خاننى الحظ وخضعت لرغبة
هذا الشاعر اليمنى واشتركت فى التآمر على صلاح الدين ، وهأنذا الآن
أجدنى كردياً فكيف أتآمر ضد صلاح الدين وهو كرى . ولطالما
خضت معه المعارك وولنا النصر سوياً . ولهذا أفضل أن أقتل نفسى
لأنجو بها من هذا الألم الذى أنوء به .

وأدرك عبد الرحمن أن الرجل صادق التوبة وانه نادم حقاً على
ما فعل وإلا لما روى له أخبار المؤامرة فى تفصيل وهو الذى أقسم أن
لا يبوح بسرهما فأخذ منه الخنجر وقال :

— يا خشتين . انت تعرف أن التائب من الذنب كمن لا ذنب
له ، وقد اعترفت الآن بأخطائك كلها فهل تريد أن تزيدها خطأ بل جرماً
جديداً لا يعتفر — تريد أن تموت كافراً ! . . . لا لا يا صديق . ان
أمامك الفرصة المواتية للتكفير عن هذه الأخطاء جميعاً . . .
فنظر إليه خشتين وقال :

— وكيف ؟

— تستطيع أن تذهب إلى صلاح الدين فتخبره خبر المؤامرة
ليتدارك مافاتة ويعاجل المتآمرين قبل أن تتم لهم رغبتهم .
— وماذا يفعل بى صلاح الدين بعد ذلك . . ؟

— يعفو عنك .

— أتظنني أبله إلى هذا الحد يا شيخ عبد الرحمن .

— لا يا خشتيرين لا تظن أني أعذر بك . . بل اذهب فافعل كما

أشرت عليك وأنا زعيم أن يعفو عنك صلاح الدين .

— لا يا صاحبي . انا لا أستطيع .

— اذن اتركني امهد لك السبيل . سأذهب إلى القاضى الفاضل

وأرجوه أن يستسمح لك صلاح الدين وحينذاك تستطيع أن تفضي إليه بحديثك وأنت مطمئن .

واتفق الرجلان على هذا وخرج عبد الرحمن وقصد إلى دار القاضى

الفاضل ودخل فوجد الفقيه زين الدين في حضرته فعجب لهذا الأمر ،

ودهش كيف لا زال القاضى الفاضل — وهو الرجل المتقد الذكاء —

يثق بهذا الفقيه الذى يتأمر على سلامة الدولة وسلطانها ، وجلس ينتظر

أن تنتهى المقابلة ليسر إلى القاضى الفاضل بما يريد فلم تنته ، وطال الوقت

وهو قلق لا يكاد يستقر ، وأخيراً مال إلى القاضى الفاضل وهمس في

أذنه بعض كلمات فضحك الفاضل وقال :

— وماذا يمنعك ؟ قل ما عندك فلسنا نحفي عن الفقيه زين الدين

شيئاً وإن عظم .

فارتبك عبد الرحمن وزادت حيرته ، ولم يدر كيف يفعل

ولكنه قال :

— لا ياسيدى القاضى — لا أستطيع — لا أستطيع —

ولاحظ الفاضل حيرته ففقهه وقال :

— وكيف لا تستطيع ، قل ولا تخف ، وتأكد أن أذنين اثنتين
تستمعان إليك ، فزين الدين كشخصي وأنا أثق به ثقتي بنفسي .
فبلغت به الدهشة مبلغاً عظيماً ، وبدأ يشك في القاضي الفاضل نفسه ،
وأخيراً قدر الفاضل حيرة عبدالرحمن فترك مجلسه ، وبعد به إلى ركن
قصي من أركان الغرفة فأسر إليه عبد الرحمن بموجز الخبر ، ولشد
ما كانت دهشته عند ما لاحظ أن الفاضل علم بالموامرة ومدبرها فرداً
فرداً ، وذعر عندما وجده يأخذه من يده ويتقدم إلى الفقيه زين الدين قائلاً :
— هذا عبد الرحمن يا صديقي يشي بك ويقول إنك تتآمر على
الدولة وسلطانها .

فأظهر زين الدين الخوف وقال في ارتباك :

— فعلتها يا عبد الرحمن ولم ترع في حق الصداقة التي
بيننا وبينك ؟

ثم سكت لحظة وقال :

— وحق الأستاذية يا عبد الرحمن ؟ هل هذا وفاء التليذ
لمدرسه ؟

واضطرب عبد الرحمن وأراد أن يقول شيئاً ليعتذر أو ليرفعلته
ولكن الكلمات تعثرت في فيه ، وكان القاضي الفاضل يقف خلفه
واضعاً يده على فمه يخفي ضحكة تريد أن تنطلق فلم يستطع فانفجر
ضحكاً وربت على كتف عبد الرحمن وقال يطمئنه :

— لاتخف يا عبد الرحمن ، إن صديقنا الفقيه زين الدين اشترك مع المتأمرين ليأتينا بسرهم فهو أكثر الناس إخلاصاً لمصر وإصلاح الدين ، وإنا نشكر لك غيرتك ، والآن أرجو أن تأذنا لي حتى أذهب لإصلاح الدين فأبلغه هذا الخبر الجديد وأسأله العفو عن خشتين إكراماً لك يا عبد الرحمن .

— شكراً لك أيها القاضي ، إن الرجل نادم غاية الندم ومن الخير أن نعفي عنه فنكتسبه إلى جانبنا .
ونظر القاضي الفاضل إلى عبد الرحمن نظرة العالم بخفايا نفسه وقال مبتسماً :

— إن صلاح الدين يقدر الإخلاص والوفاء يا عبد الرحمن ، وسأطلب لك منه جائزة تقربها عينك وتبعث السعادة إلى نفسك .

دموع الفرح

اتمى عبد الرحمن من صلاة العشاء وقام إلى كتبه فاختر من بينها كتاباً ، وجلس قريباً من ضوء الشمعة التي تنير غرفته وحاول القراءة ، غير أنه ظل مدة والصفحة أمامه لم تتغير ولم يفقه لما فيها من معنى فقد كان شارد الذهن قلق النفس يحاول أن يعيد إلى نفسه الطمأنينة فما يستطيع ، وإنه ليزكر الآن كيف وفدت ريحانة إلى داره في الصباح الباكر تحمل إليه هذا الخبر المؤلم الذى ملأه حزناً وسلبه الهدوء : قالت ريحانة إن أميراً من أمراء الجيش الأيوبي تقدم — منذ شهر — للأمير شمس الخلافة يطلب يد فاطمة . فأجابته شمس الخلافة إلى طلبه ، ولم تكده فاطمة تعلم بالخبر حتى رفضت وأصررت على الرفض ، وأصر والدها أن يزوجه من الأمير ، وملك الأم على فاطمة نفسها فرفضت واشتد بها المرض ، وهى لاتذكر الآن وهى فى غيبوبة الحمى غير عبد الرحمن .

ألقت ريحانة لعبد الرحمن بهذه الأخبار فاكتنفه الألم وتغلب عليه الحزن وهاهو ذا الآن يجلس فى داره وحيداً بعد أن خرج خسترين ليرى ريحانة وينعم بالجلوس إليها فى مكان اتفقا عليه هذا الصباح .
وبحث عبد الرحمن فىمن حوله عن صديق يفضى إليه بسره ويسأله الرأى والنصيحة والعون فلم يجد ، ففكر أن يذهب للسultan صلاح الدين فيبسط له الأمر على يسعى لدى الأمير شمس الخلافة فيقنعه ولكن

عاد يسائل نفسه : وكيف أسعى إلى السلطان والذي يطلب فاطمة أمير
من أمراء جيشه ، وفكر أن يلجأ إلى الأمير شمس الخلافة نفسه —
غير أنه أسرع فنفى هذا الخاطر عن نفسه قائلاً :

ومن أكون أنا حتى يفضلني الأمير شمس الخلافة على أمير ذي
حول وطول وغنى وجاه . . ؟

وفكر أن يقصد القاضى الفاضل فإن له دالة على صلاح الدين
وعلى الأمير شمس الخلافة ثم انه لا بد وأن يقدر له سعيه فى سبيل
كشف المؤامرة ولكن نفسه لم تقبل هذا الرأى وقالت : « وكيف
تجرأ أن تحدث القاضى عن هذا السر ، وماذا تقول . إنه موضوع
شائك فقد يسألك الفاضل : وما العلاقة بينك وبين فاطمة ؟ » فماذا
يكون جوابك ؟ ! »

وظل هكذا ردحا من الوقت . يبحث عن الصديق وكلما لمس
الطريق التى يحسبها توصله إلى بغيته انبرت له نفسه تبين له العقبات
التى تملأ هذا الطريق وتسد مسالكه ، وأخيراً تنهد وقال :

— من لى بأبى الحسن الآن ؟ انه حلال المعضلات ، وهو الرجل
الذى استطاع أن يكشف له عن خبيئة نفسى دون خوف أو حرج .

وطلأت عليه فى الحال فكرة غريبة فطوى الكتاب وقام يجمع
ملابسه ولكنه سرعان ما نظر إلى الشمعة فأدرك أن الوقت ليل ،
وكيف يستطيع السفر إلى دمياط ليلاً ؟

وقضى عبد الرحمن ليله ساهراً ، وعاد خشتين ، فظاهر بالقراءة حتى نام كيلا يثير شكوكه ، فلما سمع آذان الفجر أسرع فصلاًه في المسجد . ووضع ملابسه على البغلة وركبها وودع خشتين قائلاً :

— إلى اللقاء يا صديقي ، فاني مسافر إلى دمياط لزيارة صديق أبي الحسن وسأعود سريعاً .

واجتاز عبد الرحمن شوارع الفسطاط وشوارع القاهرة واتجه شمالاً يقصد إلى دمياط — إلى صديقه أبي الحسن —

سبعة أيام طويلة طول الزمن كله قضاها عبد الرحمن في طريقه إلى دمياط ، يقضى يومه في المسير بجذاء النيل ، ذلك النهر الخالد المبارك الغدوات والروحوات ، يحمل إلى أرض مصر وساكنيها الري والخصب والخير ، وكان يسرح بصره فلا يقع إلا على بساط سندسي ، كأنه — كما وصفه عمرو بن العاص — زبرجدة خضراء ، لا تؤنسه في وحدته إلا أفكاره المشتتة حيناً تعجب بما يرى ، المجمعّة حيناً آخر حول فاطمة وحبها لها ، وما يكتنف علاقتهما من ظلمات .

وفي صباح اليوم السابع بدت له حصون المدينة وأسوارها وقلاعها تشرف عالية من بعيد تحمي هذا الشجر من عاديات الزمن وغارات الانسان ، وترفرف عليها أعلام صفراء ، هي أعلام الدولة الايوبية الجديدة نقشت عليها جملتان هما جماع ما دعى ويدعو إليه الاسلام ، هما رسالته إلى العالمين ، هما اللتان حمّتا المدينة القديمة وتحميانها

قبل أن تحميها هذه الأسوار والقلاع ، هما : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله »

وقرب عبد الرحمن من المدينة ، ودخل من أحد أبوابها ، وجاس خلال شوارعها وأزقتها .

وبحث وسأل حتى عرف دار أبي الحسن فطرق الباب وفتح له خادم عجوز ، ودخل فاجتاز رحبة واسعة الى غرفة مدت فيها أرائك كثيرة جلس على أحدها أبو الحسن ، فتقدم عبد الرحمن ولم يتمالك نفسه فأسرع إلى الرجل الهرم فعانقه وقبله وقد ارتفع صوته بالبكاء . وصاح أبو الحسن بعد أن وقف وفتح ذراعيه فضم إليه ضيفه العزيز وقال : — عبد الرحمن ، ولدي . أهلا . أهلا . . . عبد الرحمن كيف أنت ؟ وظل الرجلان يتعانقان ويقبل كل منهما أخاه في لطفة وشوق ، ثم جلس عبد الرحمن وقال :

— كيف صحتك يا أبا الحسن . . . والله لقد أوحشتنا فما نحس للحياة طعما وأنت غائب عنا .

— بارك الله فيك يا بني . . . اني لا استطيع ان أصف لك فرحي بمقدمك — يامر حبا — يامر حبا . . .

ودار الحديث بين الرجلين وقتا طويلا وأبو الحسن يسأل ضيفه عن القاهرة وأخبارها وعن الفسطاط ومسجدها وداره بها وأصدقائه واحدا واحدا . . .

ثم نظر إلى عبد الرحمن وقال :

— اننى أفضى الأيام الباقية هنا مرتاح البال مطمئن النفس وخاصة
يبد أن علمت أن الأمور الآن قد انتقلت إلى صلاح الدين وانه يقضى
على الحيات التي تسعى لتفتت سمها . . ولكن خبرنى كيف فعل صلاح
الدين بعمارة وصحبه ؟

— لقد شنقهم واحدا واحدا على أبواب القاهرة .

فأطرق أبو الحسن وقال :

— رحم الله عمارة وغفر له . . لقد قتله المال .

فقال عبد الرحمن :

— فى الحق أن عمارة كان قد تجرأ على صلاح الدين وأهله كثيرا

وقد أنقذه القاضى الفاضل من الموت أكثر من مرة .

— أجل انى لأذكر كيف هجا عمارة تقي الدين عمر بن شاهنشاه .

ابن أخى صلاح الدين : بقوله :

عظمتا الأمر ونخمتاه ما بن شاهنشاه إلا ابن شاه

ومن تكون الشاة أما له فما يكون التيس إلا أباه

فغضب تقي الدين وأصر أن يقتله فأسرع عمارة إلى الفاضل ودخل

عليه داره وهو يصيح :

عبد الرحيم احتمل صداعى فالرأس يعتاده الصداع

فضحك منه عبد الرحيم وشفع فيه حتى عفى عنه . .

فقال عبد الرحمن :

— ولكنه لم يرتدع بل ظل يتنقل فى انحاء القاهرة وهو يبكى

الفاطميين بشعر حلو جميل يثير الشعور ، ويعرض بنى أيوب في شعره
استمع الى قوله :

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس اموات
ثم ضحك عبد الرحمن وقال :

— أتعرف يا أبا الحسن ماذا فعل عمارة بعد أن قبضوا عليه ؟
— وماذا فعل ؟

— طلب من الجنود أن يروا به على دار القاضي الفاضل كي يسأله
العون والشفاعة لدى السلطان فأجابوه إلى طلبه ، فلما مر بالدار دخل
الفاضل وأغلق الباب فأيقن عمارة بالهلاك وقال :

عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص من العجب
ثم أراد عبد الرحمن أن يبدأ فيشكو همه إلى أبي الحسن ويثته
حزنه ولكنه حار كيف يبدأ ، وأحس قلبه يخفق خفقانا شديداً ، فمد
يده ووضعها على قلبه وكأنه يريد تهدئته فأحس بالقلب الذهبي - الذي
قدمته له فاطمة يوم خرج الى الشام بالرسائل إلى نور الدين - تحت
أصابعه فأخرجه وأخذ يعبث به بين أصابعه ، ولمح أبو الحسن شيئاً
يبرق في يد جليسه وهو ساكت لا يتحدث فسأله :

— ما هذا يا عبد الرحمن ؟

فارتبك عبد الرحمن وقال :

— هذا قلب ذهبي - ومد يده فأعطاه لأبي الحسن :

وأمسكه أبو الحسن وقربه إلى نظره وأخذ يقلبه بين أصابعه وهم

أن يقول شيئاً يداعب به عبد الرحمن ولكنه جفل وهم واقفاً كما
لدغته عقرب وصاح : — عبد الرحمن .

فذر عبد الرحمن وخشى أن يكون الرجل أصيب بمكروه
فأسرع إليه وقال :

— لبيك يا أبا الحسن .

— من أين لك بهذا القلب ؟

فلم يعرف عبد الرحمن العلاقة بين القلب وهذه الحالة التي طرأت
على الرجل العجوز وقال :

— لقد قُدم إلى كهديّة من شخص عزيز عليّ

— ومن يكون هذا الشخص يا عبد الرحمن ؟

ونظر عبد الرحمن فوجد الشيخ يبكي فلم يستطع كتماناً وقال :

— من فاطمة بنت الأمير شمس الخلافة ، ولكن ما الذي

أفزعك هكذا ؟

فلم يجبه أبو الحسن ، ولكنه جلس ورفع القلب إلى فمه واندفع
يقبله في شوق ولهفة غريبيين ، وارتفع صوته بالبكاء ، فاشتدت حيرة
عبد الرحمن وقال :

— هوّن عليك يا صديق ، وحدثني حديث نفسك فإني أحس أنني

أثرت في نفسك هما دفيناً .

فكفكف أبو الحسن دمه و قدم القلب إلى عبد الرحمن وقال :

— أنظر إلى إطار القلب وحاول أن تقرأ ما عليه .

فنظر عبد الرحمن فوجد حروفا منفصلة فوصلها وقرأها فإذا بها :
— هدية من علي المصري إلى حفيدته فاطمة . فقال :

— إنه معي منذ سافرت إلى الشام ولكنني لم ألتفت إلى هذه
الحروف فما خبرها . . ؟

— أجل ما خبرها ؟ آه لو كانت هي فإن الله يكون قد رأف بي في
شيخوختي وعوضني خيرا عن حزني الماضي الطويل . . استمع لقصتي
يا عبد الرحمن فإن أحس أنك لا تفهم عنى شيئا : كانت أسرتنا يابتي في
دمياط خيرة الأسر وأكبرها وأغناها وكان جدي لأبي تاجرا ذا تجارة
واسعة ، وكان سني المذهب تقيا ورعا كثير التدين ؛ وحدث ذات يوم
أن ثار النقاش بينه وبين فقيه شيعي من رجال الدولة الفاطمية ، واحتد
الفقيه في نقاشه فسب جدي فطمه هذا على وجهه .

ونقل الخبر إلى الخليفة الحاكم بأمر الله ذلك الرجل الملتاث في
عقله المدعي الالهية فأمر جنده في المدينة فألقوا القبض على جدي
وأرسل إلى القاهرة حيث قتل . فقال عبد الرحمن :

— ولهذا كنت تذكره هذه الدولة البائدة ؟

— هذا سبب من أسباب كثيرة فاستمع إلى بقية حديثي : تزوجت
صغيرا ووُلد لي ثلاثة أولاد ، مات اثنان منهم وبقي ثالثهم ، وشب
الولد وكبر وتزوج من بنت عم له كان يقسم في قوص ليشرف على
شئون التجارة الصادرة عنا والواردة إلينا من اليمن ، ورحل ابني ليعمل
مع عمه في تجارته .

واشترى أخى يوما جارية تركية جميلة ، وكان له أعداء من رفاقه

التجار فسعوا لدى شاور وهو والى قوص يومذاك وبالغوا في وصف
الجارية واغروه بأخذها فامتنع أخى عن بيعها فأضمرها له شاور
وحرص أناسا اتهموا أخى لديه بمهاجمة المذهب الشيعى والتعرض لمقام
الخليفة بالسب والاهانة فقبض عليه وقتله وصادر أمواله .

وخرج ابني من قوص هائما على وجهه ومعه زوجته وابنته ، وشاء
سوء الطالع أن يهاجمه وهو في الطريق جماعة من العربان فيقتلوه ويسلبوه
زوجهم وطفلته فاطمة . . أجل فاطمة التي أهديتها هذا القلب يوم
ولادتها . واشتد بي الحزن فهاجرت دمياط وعشت في الفسطاط أفضى
معظم وقتي في مسجد عمر وكما كنت ترانى أتمنى لو أصاب الله هذه الدولة
ورجالها بشواظ من نار فقضى عليها .

وثارت أحزان أبى الحسن وهو يحكى قصته فعاد إلى البكاء ، وكان
عبد الرحمن يتابع القصة في شوق شديد ويعجب فيما بينه وبين نفسه :
وما العلاقة بين هذا كله وبين شمس الخلافة وابنته ؟

ونظر فرأى أبا الحسن يقلب كفيه في حيرة شديدة ويحدث نفسه :

— ترى هل تكون هي ؟ فقال عبد الرحمن :

— تريد أن تقول إن فاطمة بنت شمس الخلافة هي حفيدتك ؟

وكيف يتفق هذا ؟

— هذا ما لست أعرفه الآن فلا بد من سفرى إلى القاهرة

ورأى عبد الرحمن الفرصة سانحة فأفضى إلى أبى الحسن بما فى نفسه
وأنه حضر إليه يستعينه ويطلب مساعدته .

فتهلل وجه أبى الحسن وقال :

— والله لو كانت فاطمة حفيدتي فأنت خير زوج لها .

وأسرع الرجلان وتركا دمياط يريدان القاهرة ودخلا على صلاح الدين في دار الوزارة فرحب بهما كل الترحيب وفرح كل الفرح لرؤية صديقه أبي الحسن بعد هذه الغيبة الطويلة . ولما سمع قصتهما عجب منها وأرسل فاستدعى الأمير شمس الخلافة وقص عليه الرواية كلها ولشدهما كانت دهشة الجميع عندما سمعوا شمس الخلافة يقول :

— إذن فاطمة حفيدتك يا أبا الحسن - فلتتخذني ابناً لك إذن .

فلم يتملك أبو الحسن نفسه من الفرح وجرى نحو شمس الخلافة وعانقه وأخذ يقبله ويقول :

— أجل - أنت ابني .. أنت ابني - ولكن كيف وصلت إليك فاطمة ؟

— لقد تقدم إلى بها أحد الأعراب فاشتريتها وربيتها إذ لم يكن

لي أولاد ، وإنما الآن لأعز عليّ من كل ما أملك .

وانتقل الجمع إلى دار شمس الخلافة ودخل الأمير إلى غرفة فاطمة

فهد هذه الأخبار المفاجئة تمهيدا ثم دعى الجميع فدخلوا يتقدمهم أبو

الحسن الذي أقبل على سرير المريضة فقبلها وهو يقول :

— شفاك الله وعافاك يا بنتي وابنة ولدي .

وكتب القاضي الفاضل عقد الزواج بين فاطمة وعبد الرحمن ،

وانطلقت الزغاريد تجلجل في أنحاء القصر ، وتقدم عبد الرحمن بقلب

خافق فأمسك بيد فاطمة ورفعها إلى فمه فقبلها في صمت ، ومشى صلاح

الدين ليهنئ أبا الحسن وشمس الخلافة فوجدهما قد أدارا وجهيهما يمسان

دموعا طمرت من عينيها . . هي دموع الفرحة .

دار الفكر العربي

مؤسسه عربية للطباعة والنشر
شارع القصر العيني عمارة مارسيني بالقاهرة
تليفون ٥٦٤٦٧

ظهر حديثاً

٢٥ هين الحبشة والعرب ، للاستاذ عبد المجيد عابدين مدرس اللغة الحبشية :

موضوع جديد لم يطرقه مؤلف عربي من قبل ، تقرأ فيه آراء جديدة في هجرة المسلمين إلى الحبشة ، آثار الحبشة في البلاد الاسلامية ، أصحاب القيل .
أصحاب الأخدود ، الاسلام في الحبشة .

٢٥ الحجاج سيف بن مروان ، للاستاذ عبد الرازق حميده المدرس بدار العلوم :

كتاب يعرض تاريخ رجل من رجالات بني أمية ، الذين كان لهم فضل على السياسة والأدب وطار لهم ذكر في المشارق والمغرب ، في أسلوب على دقيق ورعاية للحق وعتابة بالشواهد والبراهين .

٥٠ الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول ،

للدكتور عبد اللطيف حمزه المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد :
قدم له الاستاذ احمد أمين بك فقال « إن قراءة هذا الكتاب تدل دلالة قاطعة على ما بذله المؤلف من جهد مضني وعناء متواصل في سبيل دعوة يضل سالكها وتصعب رؤية معالمها إلا بعون من الله ، .

٢٠ خصصنا الشعبي ، للدكتور فؤاد حسنين على الاستاذ بلكيه الآداب بجامعة فؤاد :

قال فيه الاستاذ محمود تيمور بك « اطلت على أبحاث فنية عن خصصنا الشعبي دجنها براعتكم الكريمة فراقني فيه تحليلكم الفنى لهذه القصص واهتمامكم بالتعريف به فكنت اليكم هذا لأعبر لكم عن صادق إعجابي ، .

المسرح عن شوقي ، للاستاذ محمود حامد شوكت :

بحث في المسرحية في شعر شوقي وتقديم لتاريخ المسرح المصري وظواهره من عصر الفراغة حتى العصور الحديثة ، وتفسير مقومات مسرح شوقي من تأثره بالمسرح الأوربي والمسرح المصري المعاصر مع تحليل وتقد كل مسرحية تقدأ عليها .

قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ،

للدكتور توفيق الطويل المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق :
سيرة الاضطهاد الدامي الذي أنزله الرومان بالمسيحية وشهادتها ، والسكنيسة الكاثوليكية على خصوصها من الكاثوليك والبروتستانت وغيرهم من رواد الفكر الحديث ، وتاريخ ما وقع في الاسلام من مآس الاضطهاد المرير مع دعوة للتسامح والحرية الدينية قبل أن تعرف أوروبا هذه الحرية بأحد عشر قرناً من الزمان .

مرقص العميان ، للدكتور عارف العارف :

قصة رائعة تعرض حوادث فتي فقد البصر ولم يفقد البصيرة فصورت نزعاته وآراءه ، وآلامه وملذاته على الشيء ، وأطلعنا على الشيء الكثير من دنيا العميان .

الأدب المقارن ، تأليف فان تيجم أستاذ الأدب بالسوربون :

با كورة سلسلة الآداب العالمية التي تصدرها دار الفكر العربي من تأليف كبار الأسماء وترجمة خير الكتاب العرب ، نقطة حاسمة في تاريخ الدراسات الأدبية باللغة العربية .

سر الحاكم بأمر الله ، للاستاذ على احمد با كثير :

أقوى مسرحية ظهرت باللغة العربية ، تجلو شخصية الحاكم وتكشف سرها الذي حير المؤرخين . وقد فازت بالجائزة الممتازة في مباراة وزارة الشؤون الاجتماعية .

أطفال بلا أسر ، تأليف أنا فرويد ودروثي برلنجهام . تعريب الأستاذين :

محمد بدران المراقب العام المساعد للثقافة بوزارة المعارف ورمزي يسي :
يبحث مشا كل الأطفال الذين يربون بالملاجم ودور الحضانة ، كما يبحث في العلاقة بين الأطفال وأنفسهم ، وبينهم وبين مربياتهم ، وبين أثر المعاهد في نفوسهم كما يكشف عن الآثار التي تنجم عن حرمان للطفل أسرته من .

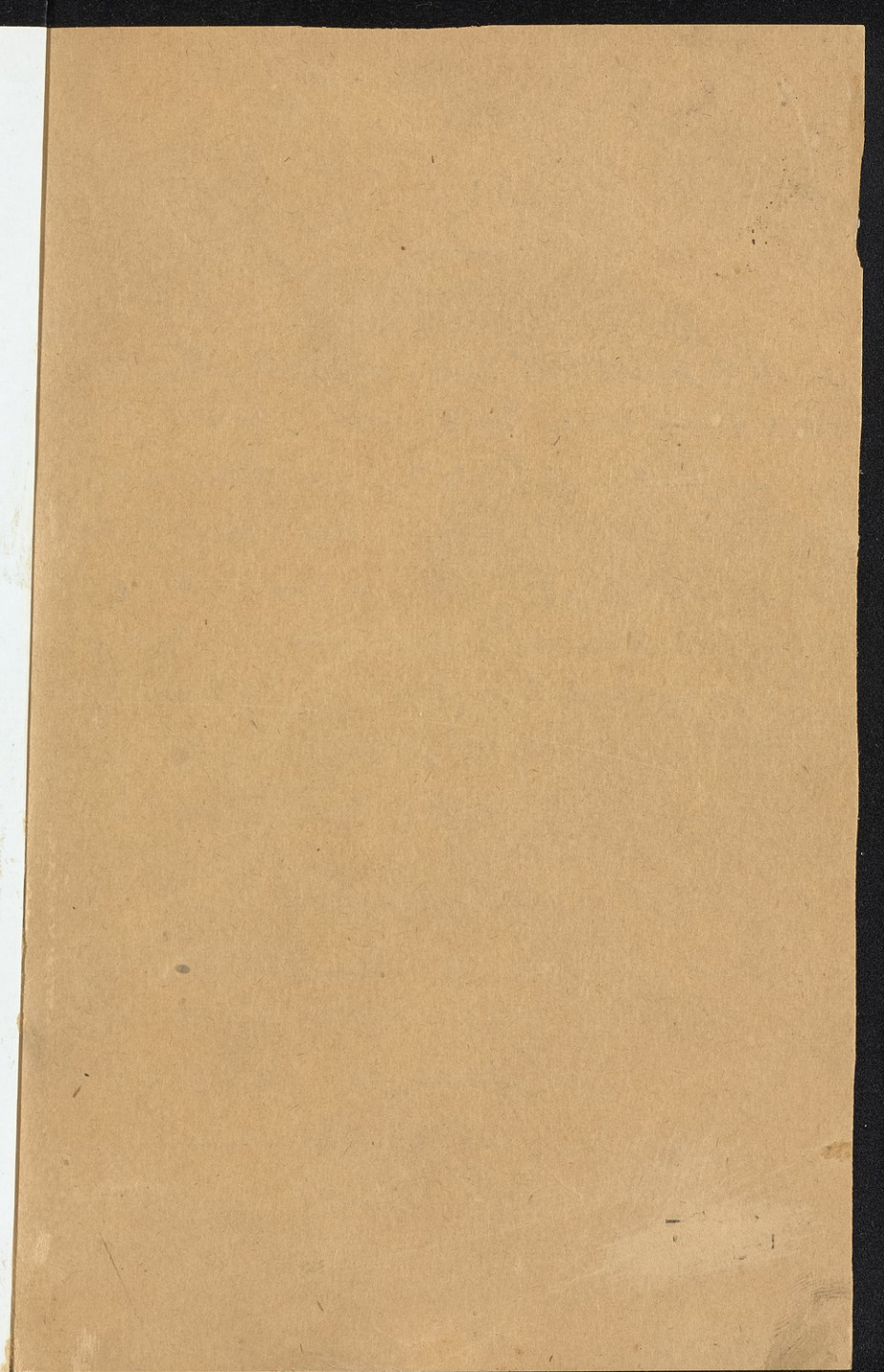
للمؤلف

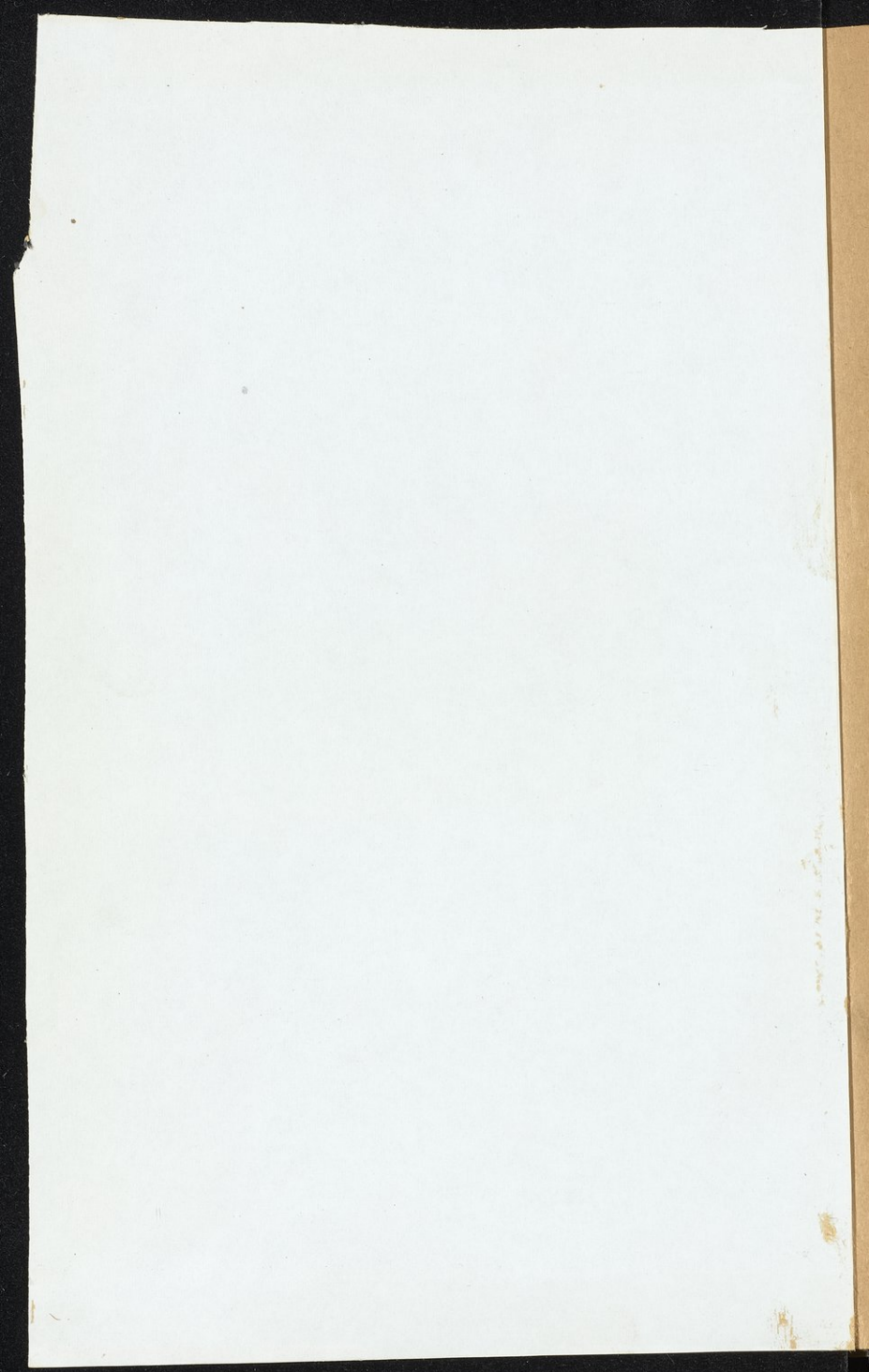
(أ) تأليفاً :

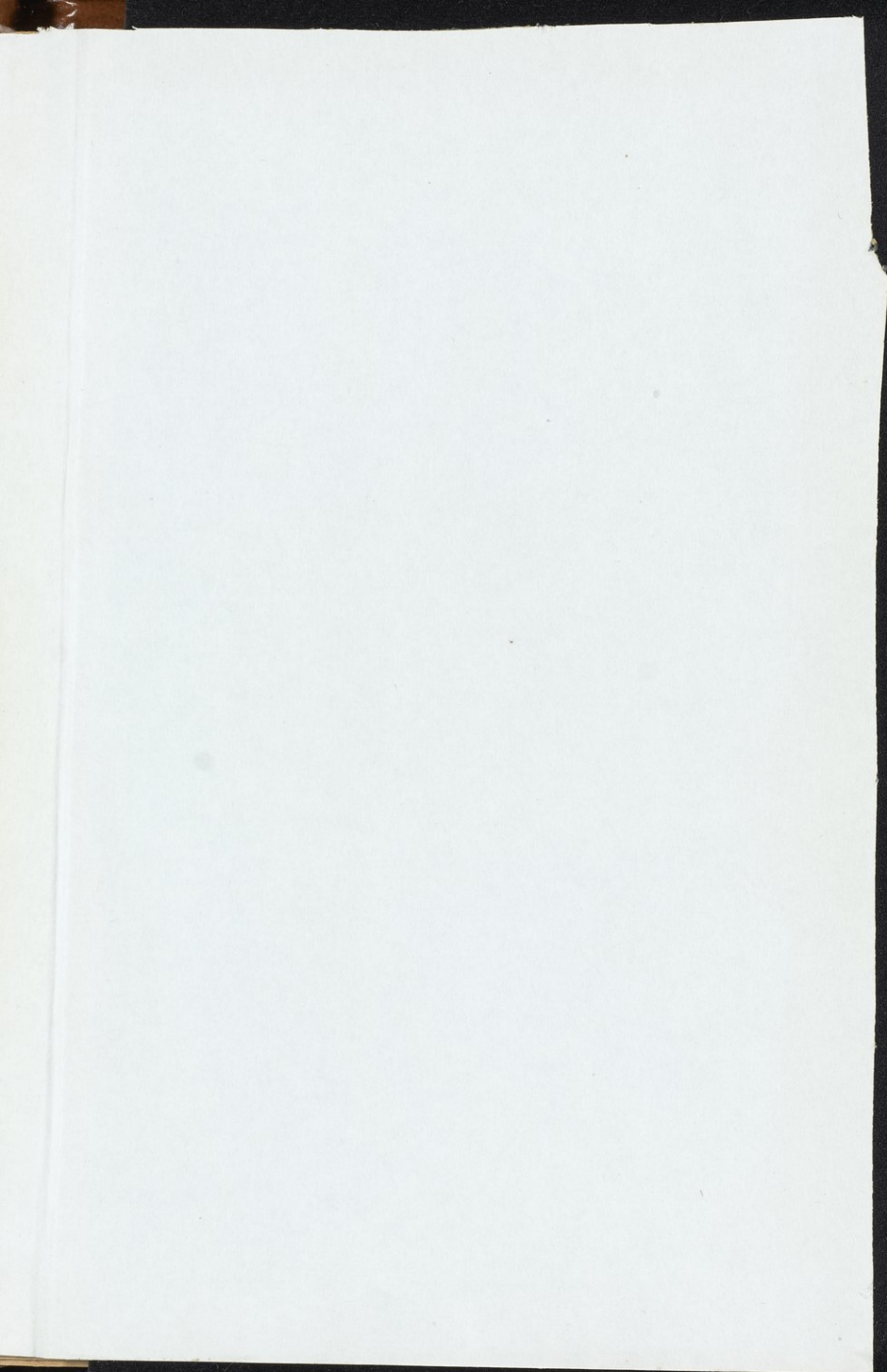
- ١ - الأدب المصري القديم ، فصل في كتاب « تراث مصر القديمة » ، الذي اشترك في تأليفه نخبة من أساتذة جامعة فؤاد الأول ، مطبعة المقتطف ١٩٣٧ .
- ٢ - رفاة الطهطاوى (زعيم النهضة الفكرية في عهد محمد على) - مجموعة أعلام الإسلام ، نوفمبر ١٩٤٥ .
- ٣ - تاريخ الترجمة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بحث أجاز لدرجة الماجستير مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة فازوق الأول ، ونال جائزة البحث الأدبي لسنة ١٩٤٦ من مجمع فؤاد للغة العربية (يظهر قريباً) .
- ٤ - الفسطاط (أول عاصمة لمصر الإسلامية) ، (لم يطبع بعد) .
- ٥ - معجم السفن العربية ، (لم يطبع بعد) .

(ب) نشرًا : مكتبة المقرئى الصغيرة :

- ١ - إغاثة الأمة بكشف الغمة ، بالاشتراك مع الدكتور محمد مصطفى زيادة مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ .
- ٢ - نحل عبر النحل ، الناشر مكتبة الخانجى ١٩٤٦ .
- ٣ - اتعاط الحنفا بذكر الأئمة الخلفاء ، الناشر دار الفكر العربى ، (يظهر قريباً جداً) .









**Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University**

NYU - BOBST



31142 02341 1849

DT95.5 .S43 1947

Misr wa-al-Sham bayna dawlatay